على طريق إعادة تشكيل الوعي

(لَتَرْكَبن طَبَقاً عَنْ طبقٍ)

(الانشقاق: ١٩)

فقه الوجود

مقدمة في المفهوم القرآني للحياة والموت والجنة

أحمد الوتاري

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٠/١٠/٤٠٤٣)

٢٦١
الوتاري، أحمد عدنان
فقه الوجود/ أحمد عدنان الوتاري.- عمان:دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٠.
(٢٨٧) ص
ر. أ.: ٢٠١٠/١٠/٤٠٤٣.
الواصفات: الفقه الإسلامي// الإسلام// الوعظ والارشاد



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E- mail: daralmamoun@maktoob.com

– محتويات كتاب (فقــه الوجــود) –

(مقدمــة في المفهــوم القرآنــي للحيــاة والمــوت والجنــة)

بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بالكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله، وبعد:

نعيش زماناً فتح الله فيه على الانسان من أبواب كل شيء، وبدا فيه جلياً جمال القدرات التي أودعها الله هذا المخلوق الكريم، وهي بتوفيق ربها توغل في استكشاف دقائق الذرات، وتتوسع في رؤيتها لأبعد المسافات في الكون والمجرات، وتصنع أنموذجاً لأول مرة للصبغة الجينية ولتأريخنا الحيوي، تتشكل معها صورة أرقى لمستقبلنا، وهذا كله علمٌ من علمِ الله الذي خلق النجوم في السماء والأجنة في الأرحام كيف يشاء: (إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ* هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (آل عمران: ٦)، علمنا إياه بتوفيقه ولطفه: (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) (البقرة: ٢٥٥)، وبه ترتقي نظرتنا إلى أنفسنا وإلى وجودنا وإلى ربنا خالق الوجود.

في مثل هذا الزمان الجميل، لا يزال العقل الاسلامي -وهو حامل لواء الحق الأصيل-، متخلفاً عن تمام ما يحبه منه ربه، وقاصراً عن جدارته بحمل هذا الحق، وقد أخفق في أن يمسك بزمام قيادة الناس إلى فتح هذه الابواب؛ في علوم صفات المادة ونظام الكون وخصائص الحياة، لأسباب كثيرة، يعالج هذا الكتاب واحداً منها، وهو المتضمن للفقه القاصر الذي تكرس عبر قرون التراجع -في هذا العقل- عن طبيعة دوره في الحياة، وقدره في هذا الوجود.

إن مما يحز في القلب أن يرى سادة الحضارة في الأرض اليوم يتبجحون بإنكار الخالق، وبادعاء أن الله: (تعبير عن الضعف الإنساني)، أو أن الكتاب المقدس:

(مجموعة خرافات محترمة لكنها طفولية[1])، ومن ثَمّ تحولت عندهم مهمة الانسان في الحياة **من كونه:** سيداً مُستخلفاً في الأرض، وظيفته بذل الحد الأقصى مما أوتي من قدرة على العلم ومن إرادة فاعلة، يستثمرهما في معرفة نفسه ومعرفة ربه، وفي الاستعداد للقاء الله -في وجود قادم أرقى- بتغيير الكون وإصلاح هذه الحياة؛ **إلى كونه:** حيواناً متطوراً أصله خلية واحدة تطورت إلى قرد، ثم صارت عبر القرون بالانتخاب الطبيعي إنساناً، يعيش في كون المادة فيه هي: (الحقيقة الأولى والوحيدة في الوجود، ومنها نشأت كل الحقائق)، ومن ثَمّ فليس في حياته ما يستحق بذل الوسع سوى أمرين، **الأول: العمل** لتحصيل أقصى الممكن من **القوة** —كقوة المال أو نفوذ السلطان أو تأثير الشهرة وغيرها-، **والثاني: التمتع** بما توفره له تلك القوة من إشباع ممكن للرغبات والشهوات **إلى الحدود القصوى الممكنة**، وفي حدود محوري (**العمل**

---

[1] قال ذلك واحد من أرقى أصحاب العقول في حضارة الغرب في القرن العشرين، وهو ألبرت إينشتاين صاحب النظرية النسبية في الفيزياء، في رسالة بخطه كتبها في الثالث من يناير ١٩٥٤ – قبل سنة واحدة من وفاته-، وبيعت في المزاد العلني في لندن في ١٥ مايو ٢٠٠٨ كما تناولت الخبر مختلف وكالات الأنباء، ومثله قال عالم الفيزياء البريطاني ستيفن هوكينغ أنه: (ليست هناك ضرورة لوجود خالق لإطلاق الشرارة وخلق الكون)، وأن (الخلق التلقائي هو السبب وراء وجود شيء ما بدلاً من عدم وجود أي شيء) فـ(الخلق هو عملية عفوية)، و(يمكن للكون أن يخلق ذاته من العدم)، وقد وردت هذه العبارات في كتاب (التصميم العظيم) الذي وضعه بالتعاون مع عالم الفيزياء الأمريكي ليونارد ملودينو، وصدر في شهر سبتمبر/٢٠١٠، ومن المحزن أن تصدر مثل هذه الأفكار القاصرة عن أمثال تلك العقول الذكية، وهي تتعمد إغفال الجواب عن السؤال الأول في الوجود: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ)؟ (الطور: ٣٥)، وفي الوقت نفسه تخلط الحسابات الرياضية للمادة الجامدة مع قضية خلق الحياة التي ما أدعاها أحد سوى (**الله العظيم**) الذي خلق الأشياء — الجامدة والحية- كلها من العدم: (**وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ** وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) (الحِجْر: ٢٣).

والمتعة)، تتكرس ساعات العمر، حتى آخر لحظة، ليغادر الانسان المكان بعدها كما تغادره أي جيفة، بلا معنى ولا قيمة لغير ما حصده من لحظات التمتع بالفرصة**!**.

ليس الغرض من هذا الكتاب نقد الحضارة المعاصرة، ولكنه نقد وبناء تجديدي يليق بزماننا -على ما نرى- للعقل المسلم ولمفهومه عن **فقه الوجود**، عساه أن يكون داعياً له ليعطي فرصة العمر من نفسه ما تستحق، سواء على مستوى الانجاز في الحياة، أم على مستوى التمتع بنصيبه منها، كما هو داعٍ **لقراءة أرشد** للرسالة القرآنية العظيمة لقضية الحياة والموت، ولفكرة الدار الآخرة والدور الانساني فيها، من بين قراءات معاصرة قاصرة ضيقت على الأمة في الاختيار بين دعاة باسم الدين لا يصلحون لقيادة شؤون الحياة، وبين دعاة (لا دينيين) لا يصلحون شؤون ما بعد الحياة، حتى تعطلت ملكات الابداع فيها، وضعفت إرادتها للفعل الحضاري، **مما** يتطلب **إعادة تشكيل للوعي الاسلامي بفقه الحياة وفقه الموت وفقه الجنة**، يبث الروح في وعيه بنفسه، وفي إرادته لحب وجوده جميعاً وتحقيق أقصى الانجاز فيه، وكذلك في وعيه بقدر الحق الذي نزل به القرآن، والمستوى العالي المتفوق الذي جاء ببيانه لحقيقة الخلق ودور كل إنسان في الوجود، وهذا هو مقصود ما ستراه فيما سيأتي من صفحات.

منهـــج الكتـــاب[2]:

يتقدم الكتاب تعريف قرآني من زاوية خاصة بـــ(**الرب الجميل**) خالق هذا الوجود، ويعقبه وصف لـــ(**أطباق الوجود**) الانساني، وفق البيان القرآني للأحوال التي يتقلب فيها الانسان مدى الوجود، ثم يتناول الكتاب –في أقسام ثلاثة– فقه الحياة وفقه الموت وفقه الجنة بالروح التي تليق بالوعي الاسلامي خاصة، وبالوعي الانساني عموماً، وهو يتدرج في مراحل وجوده في هذا الكون الجميل بعد أن لم يكن شيئا مذكوراً.

فأما القسم الأول فيتناول (**طبق الحياة**) في بابين، يتحدث الباب الأول منهما عن (**فقه الحياة**)، وفق منهج يتدرج في الإجابة عن أسئلة: (**من أنت؟**)، و(**ما علاقاتك بمن سواك؟**)، و(**ماهو النظام الحاكم لتلك العلاقات؟**)، **وكيفية العلم بـــ(مكانك الخاص في الوجود**)، ومن ثم يؤسس هذا الباب في (الفصل الأول) لتفهم طبيعة الحياة من خلال فقه خصائص أركان الوجود الانساني فيها: من حيث **تفرد الذات** الواحدة لكل إنسان، و**التنوع** اللانهائي بوصفه أبرز خواص **المكان**، **والتغير المستمر** على أنه واحد من أهم علامات الحياة، في ظل فقه (نظام الحركة الإنسانية) الدافع لهذا التغير، ثم يتم في (الفصل الثاني) بيان الموضع الانساني العام في الحياة من

---

[2] يتمثل في منهج الكتاب عموماً –سوى الفصل الخامس من القسم الأول– نوع من أنواع **التفسير الموضوعي**، اصطلحنا عليه في كتابنا (فقه السورة القرآنية) بـــ(الوحدة الموضوعية في إطار **المفهوم القرآني**): وهو نوع يتناول فيه الباحث (المعنى) أو (المفهوم) الوارد في عدد من الآيات من سور مختلفة في كتاب الله، تتنوع فيها المفردات اللغوية والجمل المستعملة في تفصيل ذلك المفهوم المعين، ويستخرج منها جميعاً صورة شاملة لهذا المعنى أو المفهوم، وقد أثمر المنهج في سياق الكتاب بياناً ستشهد حصيلته في هذه الصفحات في فقه الوجود والمفهوم القرآني للحياة والموت والجنة.

خلال **دائرة علاقاته** بمن سواه فيها: مع **من لا نظير له -الله-، ومع نظرائه في الخلق من الناس، ومع من ليس له بنظير من بقية المخلوقات،** وما يقتضيه كل نوع من أنواع هذه العلاقات من أداء خاص، في ظل تدبير الرب الخالق ونظام القدر الحاكم لهذه العلاقات ولحركة الكون وقوانينه الذي يأتي بيانه في (الفصل الثالث)، وليقود هذا الفهم -في (الفصل الرابع)- إلى تعريف بـــ(فقه المقام)، على طريق **الفهم الدقيق للموضع الخاص الذي خلقه الله لكل فرد وخُلِق هو له في الوجود، والقدر العظيم لكل لحظة يقضيها الفرد في الحياة.**

ويستعرض الباب الثاني من هذا القسم (إشارات في فن الحياة) في أربعة فصول، يعرف الفصل الأول (في فن الحياة) بقواعد ثلاثة من أجل حياة أجمل، في حين يتناول الفصل الثاني قضية (حب الحياة) ويبين ضوابط هذا الحب في القرآن وضوابط التعامل مع نعم الحياة، ثم يعالج الفصل الثالث (تنمية القدرات) الانسانية على طريق حياة أفضل؛ يحبها الخالق لمخلوقه، ويبين ملامحها الفصل الرابع (الحياة في سبيل الله)، الذي يعالج قضية تهميش الحياة والحط من قدرها، التي سادت أدبيات التربية الاسلامية، حتى صار التهرب من عيشها (فناً) متخصصاً، يُسَوِّغ التقاعس عن الانجاز المادي فيها، ويدعو إلى إنكار فطرة (حب الحياة)، ويشرع للموت في سبيل الله فحسب غاية عليا، مما أدى إلى تشكيل قلق وشعور بالتقصير في الشخصية الاسلامية التقية، صار جزءاً من أي مشروع فردي أو جماعي للانجاز المادي في الدنيا، وكأن المسلم مقصر إذ (يحيا في سبيل الله)، مما أضعف ما هو كامن في العقيدة من دافع للانجاز والتفوق، وهذا نقيض ما يدعو إليه القرآن من رسالة، تجعل كل (طبق) من أطباق وجودنا نعمة عظمى، تستحق منا بذل الوسع لفهم مراد الله من كل فرد،

ثم بذل الوسع للكون وفق هذا المراد، وهي غاية الخلق: **(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)** (الذاريات: ٥٦).

وأما **القسم الثاني: (طبق الموت)**، فيتناول في بابه الأول (**فقه الموت**)، ويهدف إلى تخليص الوعي الاسلامي من عقد الخوف من المجهول، التي تجرد وصف الموت بكونه هَولاً مفزعاً، ورعباً دائماً يسوغ الهروب من الحياة، - فيما لم يخلق ربنا الجميل إلا جميلاً -، فيبدأ هذا الباب من الكتاب بمقدمة عامة في بيان خصائص الموت اليقينية الخمسة، التي تشكل دافعاً عظيماً لإرادة (فقه الوجود)، يعقبها بيان لـــ(ما بين الحياة والموت) في (الفصل الأول)، وفيه تعريف بقلق الموت وطبيعته العامة، وإشارات الغيب المبثوثة في فرصة العمر لتهيئنا لإرادة الوعي وطلب العلم بحقيقته، ثم يعرف الفصل الثاني من هذا القسم ببعض قضايا (ما بعد الموت)، من مثل التعريف العام بـــ(البرزخ)، ولحظة الانتقال والخروج من الحياة، ليتم في (الفصل الثالث) التعريف بـــ(الموت الجميل)، ووصف البرزخ من حيث كونه طبقاً (مخلوقاً) من أطباق وجودنا، يبدأ لحظة نهاية طبق الحياة، وفيه من الخير والجمال والراحة ما فيه، وعلى قدر معرفتنا به سنـــزداد له حباً كحبنا للحياة، دون داع للقلق منه ما دام في أصل النفس إرادة للخير وحب للحق، وإخلاص لرب العباد الذي خلق لنا الحياة، وخلق لنا (موتاً جميلاً)، يستحق حباً لاحقاً من نوع خاص، مثلما استحقت حياتنا منا حباً خاصاً، ثم يتعرض الباب الثاني من هذا القسم –بشكل مختصر- لـــ(فقه ما بين البرزخ وبين الطبق الأخير)، ويبين في فصله الأول (شأن ما قبل الخلق، وشأن ما بعد البرزخ)، ويحكي في الفصل الثاني عن (ما بعد البرزخ) مع بيان صورة مجملة عن نبأ القيامة العظيم وما يتعلق بها من أحوال الانتقال إلى الطبق الأخير، ويعطي الفصل الثالث صورة مختصرة عن (جهنم: دار الألم).

وأما **القسم الثالث** من الكتاب فيتناول **(فقه الجنة)**، ويهدف إلى بيان الصورة المعجزة للوصف القرآني لطبق وجودنا النهائي، وهي صورة لا تتوافر في أي نص بشري من قبل ولا من بعد، ولا في النصوص المحرفة للكتب السابقة، ولا يمكن لوعي إنساني مهما كانت قدراته أن ينتج مثلها، وهي مؤسسة على مقدمات ثلاث تؤسس للوعي بتفرد هذا الطبق من الوجود، لتبنى عليها في الفصل الأول مفاهيم (الخصائص العامة للوجود في الجنة)، وليتم في الفصل الثاني استعراض (بعض من صور النعيم)، وهذه الخصائص والصور كلها مستنبطة من إشارات ومعاني النور الحق الذي أنزله الله على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، وقد جمعت لهذا الغرض آيات القرآن العظيم التي تتناول وصفها المعجز، وستجدها هنا تحكي صورة هذا الوجود القادم الحيوي المتجدد العظيم بنفسها، دون تدخل منا سوى في التصنيف والتقسيم، ووضع العناوين التي توضح المراد.

وينتهي الكتاب بعود على بدء، وخاتمة في وصف الله، فيها فرصة لمعرفته بما ثبت عنه من **وصف لنفسه بالحق**، تؤطر المعرفة المتحصلة من شهود ما صدر عنه من **آثار صنعه في الخلق**، التي بدأ بها الكتاب عند التعريف بالرب الجميل، ثم بيان خصائص علاقة كل مخلوق في الوجود بالله الذي منه كان هذا الوجود بأطباقه جميعاً، وبه يبقى كل موجود.

مصادر الكتاب

إن المرجع الأول في كل ما ورد من مفهوم للوجود في هذا الكتاب هو رسالة السماء الأخيرة إلى الأرض: (**القرآن العظيم**)، وفيه بيان بالحق من خالق الوجود إلى الخلق يكسوه الجلال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ﴾ (الواقعة: ٥٧)، وبجلال يؤكد الخالق أنه من أنزل هذا القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ (الإنسان: ٢٣)، وأنه بالحق أُنزِل: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ (الإسراء: ١٠٥)، وما ستراه من فقه لهذا الحق هنا إنما هو محاولة واجتهاد بشري قاصر -مهما بلغ في دعواه- عن بلوغ تمام ما يكمن في وحي السماء من حقائق كبرى وأنوار تشرق على بصائر القلوب فتحييها، وترفعها إلى حيث يليق بها من رشد وفهم راقٍ لقيمة الوجود والنفس الانسانية وفرصة العمر، وللدور الانساني الجميل الخاص المتفرد المتميز مطلقاً؛ لكل إنسان أنعم الله عليه بنعمة الوجود بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً.

ومن تقسيمات **القرآن** المبثوثة في آياته، -المطابقة لبديهيات الوعي الانساني-، تم تحديد أركان الوجود الانساني: (الذات والمكان والزمان)، وبيان خصائصها، وتعريف الموضع الانساني في الحياة، ودائرة علاقاته فيها: مع الله -الذي لا نظير له-، ومع نظرائه من الناس، ومع من ليس له بنظير من بقية المخلوقات، -وهي الأنواع الثلاثة الممكنة من العلاقات لمعيَّن مع الأعلى منه والمساوي له والأدنى منه-، ثم في فهم السنن الإلهية الحاكمة للحركة في الوجود باعتبار نوعيها: (السنن الإلهية الكونية العامة) -التي تنظم ما يكون من الله إلى كل مخلوقاته-، و(السنن الإلهية الخاصة بالحركة الانسانية) -التي تتعامل مع ما يكون من فعل إنساني، باعتبار خصوصية هذا الكائن المختار المتفرد الحر الإرادة-، ثم لتستثمر هذه المعارف جميعاً في التقديم لمعرفة

(المقام) الخاص لكل إنسان في الوجود، وقصته الخاصة في الحياة، وهذه من أعظم أنواع المعارف شرفاً، بعد العلم بالله وبكلماته التي أنزلها ليعلم الانسان ما لم يعلم.

وبالمنهج نفسه تم استقراء آيات القرآن على طريق فقه الموت ومابعد الموت وفقه الجنة، والتعريف بالله خالق الوجود بالوصف الذي وصف به نفسه، مما سترى مصداقيته في ما ستقرأه في صفحات هذا الكتاب[٣].

وبعد: فــ(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً) (الإنسان: ٢٩)، وهي دعوة للأمة، ودعوة لكل فرد، في زمان تخاذلنا فيه عن تحقيق أقصى الانجاز في ميادين كثيرة غاب عنها الفعل الاسلامي، بسبب استصغارنا لقدر الحياة، أو طبيعة تعريفنا لمفهوم (العبادة) والعلاقة بين الخالق والمخلوق، وهي دعوة لنـــتعرف بحب على أحوال كل طبق من أطباق وجودنا، ثم لنشرع في بذل الجهد لاستحقاق هذا الوجود في هذه الدنيا، وبذل خير ما فينا لخير ما فيه، ثم ليستحق كل منا من بعد موضعه في البرزخ الجميل، ثم بعده في الطبق النهائي، -حيث الموضع الذي خُلق لك وخُلِقت له دون كل من سواك-.

---

[٣] لا يدعي هذا الكتاب بأنه يمثل مرجعاً متكاملاً في العقيدة أو الشريعة الاسلامية –وقد أشرنا إلى هذا في أكثر من موضع منه-، وإنما وظيفته **إتمام** الصورة التي تبنيها كتب العقائد والفقه في الوعي الاسلامي، ووضع لمسات على طريق تذوق روح المفهوم القرآني للوجود، تعزز الفهم وتكون دافعاً لأقصى الانجاز، وفي نفس الوقت فإنه –أي الكتاب- يمكن أن يكون **ممهداً** لمن كان خارج دائرة التصور الاسلامي، لينعم النظر في الحق النهائي الذي جاء به القرآن، وليتذوق جمال الصورة العالية المتفوقة لهذا الحق، وليسلك الطريق الحق الذي يعطي لوجوده معنى ولحياته قيمة.

-الإهداء-

إلى عبدٍ ...

خلَقَه ربُّــــه كما لم يخلق من الناس أحداً

وعرفَ ربَّه كما لم يعرفه من الناس أحد

فأحبَّ ربَّه أشدَّ الحبِّ

وأحبَّه ربُّه أشدَّ الحبِّ

وحبَّبَه إلى الناس فأَحَبُّوه كما لم يحبُّوا من الناس أحداً

بما عرَّفــــهم بربِّـــــهم كما لم يُعرِّفــــه لهم منهم أحد

فصلَّى عليه الله وسلَّم خيـــرَ صلاةٍ وسلامٍ بما يستحق من الحبِّ

وعلى آله ومن أحبه واتبع هـــداه ودعـــا بدعوته إلى هذا الحبِّ

مقدمة في حب خالق الوجود

(الـــرب الجميـــل)

لقد خلقك الله وأحسن صورتك لتكون (جميلاً)، ترتدي (الرياش الجميل الذي أنزله إليك، وتأكل (طعاماً متنوعاً جميلاً)، وتركب (عربة أو دابة مزينة جميلة)، وأنت تقضي فرصة الحياة في موضع جميل، حيث تحتويك (أرض بهيجة بنباتها تحتك، و(سماء مزينة) بمصابيح جميلة فوقك، وكل ذلك مقصود لأن يكون بهذه الخلقة!

مقدمة في حب خالــق الوجــود

(الــرب الجميــل)

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واصفاً ربه؛ رب السماوات والأرض وما بينهما:

(إن الله **جميــل**، يحب الجمــال)[٤]

إن الله الأول والآخر قد أبدع بسر كلماته الكونية هذا الوجود، كما خلق أرواحنا بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم أودع الارواح هذه الاجساد في طبق الحياة، ثم سيوفيها حقها لتخرج منها عند الموت، ثم بعد وجودها في البرزخ سيعيدها مع أجسادها -كما خلقها أول مرة- في طبق وجودها النهائي: **(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)** (البقرة: ٢٨)، وإذا كانت الحياة فرصتنا الأولى والوحيدة لمعرفة الله والاستعداد للقائه، فإن أعلى ثمرات تلك المعرفة، وأعلى مراتب الاستعداد للقائه منفرداً هي: **حبه تبارك وتعالى.**

والمقصود هنا، تحصيل بعض تلك المعرفة الباعثة على حب ربنا الجميل الذي يحب الجمال، الذي بث في كل ما خلق نوع كامن خاص من الجمال، هو تجلية للجمال الإلهي وأثر من آثاره، مثلما جعل رحمته مبثوثة في كل شئ تجلية للرحمة الإلهية، وإن إحساسك بهذا الجمال الكامن في الاشياء هو الباعث لقلبك لأن يهتدي إلى معرفة (نبع الجمال الكلي الذي لا ينتهي)، ومن ثم حبه إلى الحد الأقصى الذي

[٤] رواه الإمام مسلم في صحيحه.

يقدر عليه قلبك الصغير، دون الوصول أبداً إلى **ما يستحقه** من الحب، واقرأ الكلمات التاليات من قرآن ربك العظيم، وتأمل معها هذا المقصود:

١- **أنت مخلــوق جميـــل:**

لقد أخبرنا الله تعالى عن الجمال المبثوث في خلق الأشياء جميعاً، ومنه الجمال المتفرد الظاهر في خلق كل واحد منا على وجه الخصوص:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ ....

فَسَوَّاكَ ....

فَعَدَلَكَ......

فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) (الانفطار:٦- ٨)

وأنت ترى هنا كلمات ربك متحدثة عن خلقك الذي أفرغك فيه بـــ(تسوية)، وبـــ(بنسب) متناغمة خاصة تضمن (اعتدالك)، وهو ما يسمى في علم الجمال: (توازنك)، لتتكون بمشيئته صورتك المتناغمة المنسجمة المتوازنة، وهذه هي أساسيات صناعة الجمال، التي بها جعلت في أحسن صورة:

(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) (غافر: ٦٤)

إذن، لقد خلقت (**أنت**) بصورة جميلة، وأنت إذن: جميل!، وإدراكك لبعض من جمال خلقتك الخاص، يجعلك تخطو باتجاه معرفة (الجميل) خالق ذلك الجمال.

٢- الأرض جميــلة:

إن **(الأرض)** التي نقف عليها، ومن طينها تتألف لحومنا وعظامنا، وإلى ترابها تنتمي عند موتنا أجسادنا: **جميلة!**، وقد أودع فيها الخالق ما يزيدها جمالاً:

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) (الكهف: ٧)

أي ان كل ما على الأرض من موجودات قد جُعل ليكون (زينة)!، تجعل الأرض تبدو (أجمل)!، وليكون الابتلاء المراد حصوله في فرصة الحياة (ممكناً) بوجود هذا الجمال، إذ لولاه لعمَّ الاحباط النفس حين لا تجد صارفاً لها عن قلق الموت القادم ولا دافعاً للانجاز، وكذلك لتتفتح مع هذه الزينة بوابات القلب **لــ(يبتهج)** لمرأى هذا الجمال:

(وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) (النمل: ٦٠)

إنها متعة رؤية الجمال وبهجتها المتحصلة عند النظر إلى ألوان وأشكال الزينة التي على الأرض، وهي (مقصودة) لإعداد القلب للتعرف على: (الرب الجميل)!.

٣- السمـــاء جميـــلة:

إن (**السقف**) الذي يعلو رؤوسنا: جميل، وقد خلق الله السماوات المحيطة بنا لتكون جميلة متزينة:

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ) (الملك: ٥)

إذن: فإن النجوم العظيمة التي تفوق حجماً أرضنا بملايين المرات، والكواكب التي يزيد عددها على آلاف آلاف الملايين وهي تسبح في مداراتها من الكون، قد وضعت في مدارات وأفلاك تجعل السقف الذي يعلونا يبدو (**مزيناً**) وأكثر جمالاً، حيث تبدو وكأنها (**مصابيح**) تجعل السقف السماوي الذي يعلوك لوحة بديعة ملونة ممتدة بلا حدود، وكل ما تحتاج إليه هو نظرة إلى السماء في ليلة صافية، لتكتشف هول ما أغمضت عينيك عنه طويلاً، وليتحرك في القلب ما خمد فيه من استعداد لمعرفة جمال من خلق هذا الجمال!.

٤- الطعـــام جميـــل:

إن (**الثمرات**) التي تعطيها لك هذه الأرض، وطعامك منها الذي به قوامك، قد خلق بجمال متنوع لا ينتهي لتمتع به روحك وبصرك قبل نفاذه إلى بدنك:

(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ:
فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً.....
نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً.....
وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ......
وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ......
مُشْتَبِهاً... وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ.....
انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ..... وَيَنْعِهِ....
إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأنعام: ٩٩)

أنظر!!: إن الذي خلقك يقول: (**انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ..... وَيَنْعِهِ**)، ويدعوك -وهو خالق هذا الجمال- **لتنظر إلى (التنوع) في (الشكل)، و(اللون)، و(الملمس)، و(التكوين)، وبعد ذلك (الطعم)**، وتُسبِّح بإيمان وحب خالق هذا الجمال.

٥- ملبســـنا جميـــل:

إن (**اللباس**) الذي يغطي بدنك، لم يجعله الله تعالى ليواري سوءاتك فحسب، وإنما قد أُنزل ليكون: (رياشاً)، -وهو اللباس الحسن الفاخر-، ومن ثَمّ فإن الجمال الذي فيه مقصود، ليضفي على جمال الخلقة لمسة من نوع آخر، يمتـــن الخالق الجميل بها عليك في ملبسك:

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً) (الأعراف: ٢٦)

والله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته عليك، وينكر على من حرم على نفسه تلك الزينة:

(قُلْ: مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟ قُلْ: هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الأعراف: ٣٢)

إن ربك يحب أن يراك (جميلاً) في ملبسك لأنه يحب الجمال، وسيحبك أكثر إن زدت على ذلك كله (ابتسامة) يشرق بها وجهك، وتلتقي وتستقبل بها الناس، وتكتب لك بها صدقة.

٦- مركبنـــا جميـــل:

إن (**وسائل تنقلك**) في مناكب هذه الأرض قد خلقت ليكون لك فيها (جمال) حيث تحملك:

(وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) (النحل: ٦)

وقد قصد بها أن تكون جميلة ومزينة، مع إرادة كونها حاملة لأثقالك إلى المواضع التي يشق عليك حمل أثقالك إليها من دونها:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا **وَزِينَةً** وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ) (النحل: ٨)

أي أن ما خلقه الله من وسائل للنقل مما عرفته الإنسانية قبلاً كالدواب، ومما لم تعرفه من قبل (كالسيارات والطائرات)، ومما لم تعلمه بعد (مما سيخلقه ربنا مستقبلاً)، قد جعلت جميعاً لتكون (جميلة) عند ركوبها، كما خلقت قبلها الأرض والسماء جميلتين، وخلقت صورتك وطعامك وملبسك جميلة كلها.

٧- إدراك الجمــال طريقك الأقصر للإيــمان بالله:

إن أشد الناس خشية لله أعلمهم به، وكلما زاد العلم بالله وبمخلوقاته زادت تلك الخشية، و(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (فاطر: ٢٨)، وهؤلاء العلماء المؤمنون ذوو مترلة عند ربهم: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) (المجادلة:١١)، وهذا العلم بالله على درجات، تصفه ثلاث آيات متتابعات في السورة التي تذكر فيها الأنعام:

أ- إن من أعظم سبل العلم بالله: النظر في الكون وفي عالم النجوم الواسع؛ الذي يدرك معه العقل كم نحن صغار بالنسبة إلى عظمة هذا الكون الفسيح، وكم هو عظيم ربنا الذي خلق كوناً بهذه العظمة: (فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) (الواقعة: ٧٦)، وهذا العلم والنظر في الكون طريق للوصول إلى وصف كونك من أهل **العلم**: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (الأنعام: ٩٧).

ب- وهناك نوع ثانٍ من العلم أدق وأعلى درجة، يسمى العالم به (فقيهاً)، -والفقه: أخص من العلم-، وهذا الفقه يتعلق بهذا الكائن الانساني العجيب، الذي تتجاوز به المادة الجامدة كل الحدود بعد أن تبث فيها الروح، ليكون منها أنا وتكون منها أنت، بكل ما أنت عليه من علم وما أوتيت من إرادة، وهو علم عظيم يدرس خصائص ظاهرة الحياة ووظائف الأعضاء وعلم الأجنة والخلية الحية وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم المتعلقة بالانسان، مما يستحق به حامله وصف كونه (فقيهاً) حين يجعله سبيلاً للتعرف على خالق هذا الكائن العجيب، وليكون بهذا **الفقه** أقرب إلى الله وأشد خشية له: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) (الأنعام: ٩٨).

ج- وهناك نوع ثالث من العلم، يرقى بصاحبه إلى درجة من الرفعة خاصة، أعلى مما سبق، إذ يصحبه طمأنينة في القلب وليس مجرد الإدراك في العقل، وسبيله النظر إلى جمال مخلوق من مخلوقات الله، وفتح بصيرة القلب للتلقي من أنوار الجلال المبثوثة في آثار المُكَوَّنات، فيعمر القلب بها تصديق مطمئن آمن من الريب، وسكون جميل لامتلاء ذلك القلب بحب ربه ذي الجلال: الله رب العالمين، وهذا هو صريح (**الإيمان**)، وهو ثمرة كل علم وكل فقه:

(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ:
فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً.....
نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً.....
وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ......
وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ......
مُشْتَبِهاً... وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ.....
انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ..... وَيَنْعِهِ!!!....
إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأنعام: ٩٩)

فتأمل: إن لحظة صادقة تتأمل فيها جمال الدنيا وجمالك، ترقى بك مباشرة إلى درجة (الإيمان) **حين تنتشي بصيرة القلب منك بنور من نور الجلال والجمال يفيضه عليها: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)** (النور: **٣٥**)**، وتوقن معها بجمال كل ما خلق ربك الجميل من موت لاحق جميل، وجنة أجمل.**

٨- لقد تعرف إلينا ربنا بقرآن جميل وكون منظور جميل، ليجعل منا أمة صانعة للجمال، مخلصة لله في إرادة العدل وهمة الاصلاح، وبناء النفس على الحق الأصيل الذي قام به الوجود، وإعمار الأرض بالاحسان والترابط الأسري، وإخراج نماذج من الصالحين والشهداء والصديقين تفخر بهم الانسانية جمعاء لجمال (المعاني) التي زينوا بها التاريخ.

ولقد خلقك الله وأحسن صورتك لتكون (جميلاً)، ترتدي (الرياش الجميل) الذي أنزله اليك، وتأكل (طعاماً متنوعاً جميلاً)، وتركب (عربة أو دابة مزينة جميلة)، وأنت تقضي فرصة الحياة في موضع جميل، حيث تحتويك (أرض بهيجة) بنباتها تحتك، و(سماء مزينة بمصابيح جميلة) فوقك، وكل ذلك مقصود لأن يكون بهذه الصورة!، وإن فيما شهدته من بعض مواطن تجلي جمال الله فيما خلق في هذه الحياة، دلالة على أنه (**ما يكون من الله مخلوق إلا وفي خلقته جمال خاص**)، ثم إن إيقاظ حواسك باستمرار لقراءة هذا الجمال تدفعك إلى التلهف لمعرفة: (**كم يمكن لجمال الله أن يكون؟!**)، وسيزيد هذا التلهف ما ستشهده من مواطن جمال في أطباق وجودك القادمة في طريقك للوصول إلى لقاء الله، حتى يستقل قلبك الصغير كل ما في الدنيا من حب -ولو اجتمع- ليوفي أي قسط مما يستحقه ربٌّ بكل هذا الجمال من صادق الحب والاخلاص لجلاله!

وبعد: فإن رحلتك لاستكشاف الجمال لا تنتهي، لأن مقصودك النهائي هو الوصول إلى موضع خاص ملئ بالجمال خلق لأجلك في البرزخ بعد هذه الحياة، ثم بعد البعث يوم الجمع في جنة عرضها السماوات والأرض، وهناك فإن أعظم النعم عليك ستكون حين تنظر إلى الواحد الجميل، الذي خلق كل الذي عرفته من جمال!، **فافتح عقلك لهذا الفهم، وافتح قلبك لهذا الحب لربك خالق الوجود**[5]، **وخذ من**

[5] إن أصل حب الله حقيقتان أساسيتان هما أصل كل حب يتولد في القلب، وبهما كانت روح الحب القديم في قلوبنا:

الصفحات التاليات خير ما فيها، وهي تحدثك عن فقه (الحياة والموت والجنة): (أطباق وجودنا) التي خلقها (ربنا الجميل).

أولاهما: جمال الله وجلال وصفه، وكماله الذاتي، الذي يجعل القلب العالم بهذا الجمال يخفق بالثناء والتمجيد لله، والشوق إليه، بحب يفوق أي نوع آخر من الحب يمكن أن يكون لمخلوق جميل من مخلوقات الله.

والثانية: نعم الله وإكرامه وبركاته التي لا تحصى، التي تغطي العبد وتجعل القلب يفيض بحب المنعم امتناناً وشكراً وذكراً لما أسبغ عليه من نعم ظاهرة وباطنة فربنا **(ذو الجلال والإكرام)** يستحق حباً أصله الثناء على جلال وجمال وصفه الذاتي، ويستحق حباً بالامتنان والشكر لما أنعم بفعله وإكرامه، وهذا ما اختص به لفظ (الحمد)، حين ينسبه العبد إلى ربه بقوله (الْحَمْدُ لِلَّه)، إذ يلاقي ما يكمن في معناه حباً من العابد للمعبود؛ يجتمع فيه إرادة الثناء على كمال صفات المحبوب وجلالها، والشكر على ما أنعم بأفعاله: وما من لفظ يؤدي هذا المعنى في كل لغة العرب، بل وفي سائر اللغات كما يؤديه لفظ (الحمد).

وإن كلا النوعين من الحب يبدآن (بالمعرفة) المتحصلة من الاستجابة للأمر بالقراءة: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) (العلق: ١)، وهي قراءة لــ(قرآنه المسطور) الذي أنزله إلى العالمين، معرفاً فيه بنفسه، ومرشداً إلى سبيل الاستعداد للقائه، ومعها قراءة أخرى بالتأمل في سطور (قرآن الله المنظور): كتاب الكون المفتوح، حتى يشهد القلب تجلي صفات الله في تدبير شؤون الخلق وفي كل حركة في الكون.

(أطبـــاق الوجـــود)

بسم الله الرحمن الرحيم

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (البقرة: ٢٨)

(فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ* وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ* وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ* لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ) (الانشقاق: ١٩)

لقد خلقنا الله بعد أن لم نكن شيئاً مذكوراً، ثم وهبنا نعمة هذا العمر، وإن جمال عمرنا هنا كجمال **شفق** مُحمَرٍّ بديع، لكن وقته قصير، جعلنا ربنا فيه، **وركبنا** فيه (**طبق**) الحياة بمعاناته ومسراته من دون اختيار منا بعد **وجودنا الغيبي السابق**: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ) (البقرة: ٢٨)، وسيعقب هذا العمر **وجود غيبي لاحق** في (**طبق**) **ليل** الموت الطويل: (ثُمَّ يُمِيتُكُمْ) (البقرة: ٢٨)، الذي **سنركبه** أيضاً من دون اختيار منا، بعمقه وسكونه وما يحمله وما يوسقه من حقائق الغيب التي ذهلنا عنها في (**الطبق**) الذي نحن فيه الآن، ثم بعد ذلك الليل الطويل يأتي يوم يقوم الناس لرب العالمين: (ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (البقرة: ٢٨)، ونصل أخيراً إلى حيث (**الطبق**) الذي خُلقنا له وخُلق لنا، **ونركب** الوجود الممتد أكمل ما يكون، كمثل كمال القمر المتسق و**البدر المتكامل، الذي يستمد نور وجوده وخلوده من الله**: (**نور السماوات والأرض**)!.

فلعلك وأنت اليوم في هذا الطبق من الوجود: وقد قدمت من الطبق الغيبي الماضي، ومقبل على الطبق الغيبي القادم، أن تعطي قلبك لحظة، تنظر فيها قدر ما خلقت له!

على طريق إعادة تشكيل الوعي

(القسم الأول)

(طبـــق الحيـــاة)

الباب الأول

(فقـــه الحيـــاة)

الفصل الأول: خصائص أركان الوجود الانساني: (مَن أنت؟)
الفصل الثاني: دائرة العلاقات الإنسانية: (العلاقات بينك وبين الخالق ومخلوقاته)
الفصل الثالث: القدر: (نظام الحياة)
الفصل الرابع: فقه المقام: (موقعك الخاص في الوجود)

إن الحياة طبق قدمت إليه من (الغيب)، وستعود بعده إلى (الغيب)، ويظهر في كل شيء فيه ما يكفي من الإشارات لتشكيل وعيك بالنظام العام للوجود الدال على خالقه.

على طريق إعادة تشكيل الوعي

(الباب الأول)

فقــــه الحيــــاة!

- **هبــــة الحيــــاة:**

إن الوجود هبة من خالق جميل، اختصك بنفخة من روحه وسوّاك وعَدَلَك: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) (الحِجْر: ٢٩)، واستودع روحك هذا الجسد لـــ(فرصة) مؤقتة في طبق حياتك هذا، وهو طبق قَدِمتَ إليه من الغيب، وستعود بعده إلى الغيب، وقد ظهر في كل شيء فيه ما يكفي من الإشارات لتشكيل وعيك بالنظام العام للوجود الدال على خالقه، وهو وعي تشهد معه أن ثبوت قوانين الكون بهذه الدقة لا يكون إلا بخالق قائم حافظ له: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) (الرحمن: ٥)، حيث لم يكن لك دور –وأنت الطارئ على الوجود– في خلق النظام القائم ولا في حفظه، لا قبل قدومك إليه ولا بعد رحيلك عنه!

ويعين على فقه طبيعة هذه (الفرصة) وقدر دورك فيها: الوعي بخصائص (أركان) وجودك الانساني، التي اختص ربنا بها بني آدم في الحياة -في **الذات**

الانسانية، وفي **المكان** الذي خلقت فيه، وفي طبيعة **(الزمن)** في هذا الطبق[٦]-، والوعي بدائرة (علاقاتك) الممكنة بمن سواك من الموجودات، والوعي بـــ(نظام) القدر الحاكم لهذه العلاقات، ومن ثَمَّ فقه مقامك الخاص في الوجود، مما يعينك في سعيك لتأخذ من الحياة خير ما فيها كلها، ولتعطيها خير ما فيك كلك، ودونك -في ما سيلي من فصول- تفصيل هذه الأركان والعلاقات والنظام:

[٦] وهو ما يسمى مثلث (**أركان الوجود الإنساني**): **المكان والزمان والانسان**، الذي يشير إلى مفهومه القسم القرآني في السورة التي يذكر فيها البلد: (لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ* وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ* وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ) (البلد: ٣)، إذ أقسم بقدر خير **مكان** مقدس في الأرض وأعظم بقاعها، في **زمان** اشتماله على خير الخلق بحلوله فيه، وبأصل **الانسان ونوعه** – وكل منا فرد من نوعه الذي مرجعه إلى آدم عليه السلام – من الناس الذين استخلفوا في الأرض.

الفصل الأول

-خصــائص أركــان الوجــود الإنســاني -

(مَــنْ أنت؟)

أولاً: الإنسان: (أنت متفــرد):

> **أنت واحد متفرد، خلقك رب حي أحد، في كون ذي تنوع بلا عدد، ويتوسع ويتغير بلا حد، بمدد من رب قيوم صمد، وإنها الآن فحسب، فرصتك لأن تقول كلمتك، وتضع بصمتك، وربك ناظر إليك.**

بعد أن خلقه وسواه وعدله: آتى الله الانسان القدرة على أن **يعلم**: **(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) (البقرة:٣١)**، والقدرة على أن يختار ويريد: **(وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) (البقرة: ٣٥)**، وهاتان القدرتان هما أعظم ما يختص به الانسان، وبهما يمكن له **تغيير** الأرض بإذن ربه، لأن ما في السماوات والأرض مسخر له من ربه: **(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)** (الجاثية: ١٣).

وقد جعل الله هذا المخلوق **متفرداً** كتفرد الكون، ولا نظير له من جنسه، حتى إنه: **(مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً)** (المائدة: ٣٢)، لأن الواحد منا أياً كان لونه أو جنسه أو قدرته أو مكانته: وحيد من نوعه، لا يتكرر، خلق وحده ويموت وحده: **(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)** (الأنعام: ٩٤)، ويلتقي ربه يوم القيامة وحده كما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان)[٧]،

---

[٧] رواه البخاري.

وله لمسته الخاصة التي يودعها صفحة الحياة، وجزاؤه الخاص به وحده، اللائق بما سعى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (الأحقاف: ١٩).

وبهاتين الملكتين –العلم والإرادة– وبهذا التفرد: صرت مخلوقاً في أحسن تقويم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤) ومرشحاً لمراتب أعلى في الوجود لا يصل إليها من سواك من المخلوقات: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٠)، وعلى قدر اجتهادك ومكابدتك في استثمار ما خصك ربك به من قدرة على أن (تعلم)، وقدرة على أن (تختار) وتعمل، –فتبذل أقصى وسعك في طلب **العلم** النافع في فرصة العمر **وفي العمل بما تعلم**–: تكون من المرضيين **المنعم عليهم** عند ربك الجميل الذي خلقك، وإلا كنت من **المغضوب عليهم** إن علمت الحق ولم تعمل به، أو كنت من التائهين **الضالين** إن قضيت العمر غير عالم بما تفعله، لأن هبة وجودك بهذه الخصائص أمانة صعب على غيرك حملها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢)، وإنما يكون **ظلوماً مغضوباً عليه** إن **لم يعمل بما يعلم** من الحق، **وجهولاً ضالاً** إن **عمل بلا علم**، وهذان هما مدخل الشيطان إلى الإنسان، فهو إما يأتيه من **شهوة** تذله وتمنعه من العمل بما يعلم، أو يأتيه من **شبهة** تضله وتمنعه أصل العلم.

وهكذا فكل فعل إنساني في الأرض، يقاس صلاحه بمدى صلاحية فاعله علماً وعملاً، أجيراً في عمل كان: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)، أو إماماً وأميراً: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا

بِآياتِنَا يُوقِنُونَ) (السجدة: ٢٤)، فبالصبر على الشهوات واليقين ضد الشبهات تنال الإمامة في الدين والدنيا[٨].

ومثلما أن هذا الانسان موهوب بالعلم والإرادة[٩]، فإنه محكوم بعد فطرة التوحيد بغريزتين أساسيتين تضبطان دوافع السلوك الإنساني، وهما غريزة حب البقاء: (حفظ الذات)، وغريزة حب الامتداد: (حفظ النوع)، فأما **الغريزة الأولى** فتدفعه لإرادة الحياة والبقاء، فيسعى لأن يشبع عند **الجوع** أو يحتمي عند **الخوف**: لكي

---

[٨] وبذلك كان سيد الناس وإمامهم الأعظم صلى الله عليه وسلم أكثرهم عملاً بما يعلم، حتى جعل الله تمام لزومه الحق علماً وعملاً، بلا ضلال عنه ولا غَيٍّ بالعمل بنقيضه، أعظم من لزوم نظام الكون مكانه في موضعه في الوجود، فقال: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى* مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى) (النجم: ٢)، وجعل **الإيمان** بما جاء به من **علم والعمل به نصرة له: عهداً مأخوذاً على الأولين والآخرين** من أنبياء بني آدم وأتباعهم إلى يوم الدين: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) (آل عمران: ٨١)، ولتحقيق هذا العهد أنزل كتاباً هادياً يعلمهم الحق، كما أنزل الحديد، وبه يستعان لبناء القوة لنصرة الحق: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحديد: ٢٥)، فجعل قوام الدين بكتاب يهدي للعلم بالحق، وسيف ينصر هذا الحق، وبهما ينهض بالعهد كل من اتبع المرسلين: **إيماناً** بمحمد صلى الله عليه وسلم و**نصرة** له.

[٩] العلم: إدراك يميز به بين الحق والباطل والصدق والكذب، والارادة: قدرة على الميل أو النفور، أو الحب والبغض، دافعة للاختيار بين النافع والضار، فبها يحب ما ينفع ويميل إليه ويبغض ما يضر وينفر منه، (وانظر نقض المنطق لابن تيمية: ص٢٩).

(يبقى) ويدفع عن نفسه الموت، وبإرادة توفير هذين الأمرين- الأمن الاقتصادي والأمن الاجتماعي- تعبر هذه الغريزة عن نفسها، وبهما تقوم المجتمعات الإنسانية بفضل ربها: (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) (قريش: ٤)، كما أنهما موضع العقوبة حين تعصي المجتمعات ربها: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (النحل: ١١٢).

وأما **الغريزة الثانية** فيحكمها رسوخ يقين الموت القادم في باطن الوعي الانساني، وهو أمر لا مفر منه في أجله الموعود، ومن ثَمَّ يتشكل بسببه دافع في النفس **لإرادة (الامتداد)**، يعبر عن نفسه عضوياً بإنجاب الذرية التي تضمن بقاءه من خلال الولد الذي تشكل من بعضه، وهذا مما يضمن حفظ النوع الانساني، كما تشبع هذه الغريزة من خلال الانجاز المادي أو المعنوي الذي يحفظ الذكر **ويخلد مروره العابر في الدنيا**، وهذا أمر يعبر عنه بصناعة إبداع إنساني مميز، أو تحقيق نصر تاريخي مؤثر[١٠]، كما ترتوي هذه الغريزة بما يضمن لها الأمان —ولو مؤقتاً- بجمع المال لتحقيق أقصى السلطان: (الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ* يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) (الهمزة: ٣)،

[١٠] قد يشبع الانسان هذه الغريزة ولو بالوهم!، كما تلمح ذلك في تلك الرغبة الأصيلة الكامنة في داخل كل منا —حسب مفهومه الخاص- لأن يشهد نهاية الشر وانتصار الخير، فتلمحها في الطفل ينتظر نهاية القصة لينتصر الخير فينام سعيداً، أو في شاب يقضي عمراً من عمره يتابع حكاية أو تمثيلية أو مباراة رياضية بشغف، يريد فيها للبطل أن يحقق مراده، ما دام ذلك البطل يمثل عنده (الطيب والخير) -وفق مفهومه-، حتى يناله (الارتياح) عند انتصار ذلك البطل في النهاية، وتشبع غريزة الامتداد عنده إشباعاً مؤقتاً بالانتصار النسبي للخير، ولو بالوهم!

وغيرها من سبل تحقيق الذات من خلال المفهوم الخاص لكل إنسان –بحسب ما يعلم– لإرادة نصرة الحق وتحقيق الخير[11].

إن علمك بتفردك التام، وبخصوصية قدراتك، يدفعك إلى الوعي بقدرك الشخصي –أنت بالذات– في الوجود، وإلى استثمار ما أودع فيك من تفرد وخصوصية في صناعة طريقك الخاص وإيداع (لمستك) الخاصة في التعامل مع فرصة الحياة، في ظل معرفتك بربك، وعملك استعداداً للقائه.

---

[11] إن الناس مختلفون في تأثيرات بيئاتهم، وفي مستوى إدراكهم لدرجات الخير وفي إرادتهم لنصرته، وهم أنفسهم على درجات متباينة من الخيرية، وواجب العبد تجاههم بذل الوسع ليدعوهم إلى معرفة الخير الأعظم، ثم ترك أمرهم وحسابهم إلى من يعلم سرهم ونجواهم: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُم* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (الغاشية: ٢٦)، مع العلم بأن قوة هاتين الغريزتين وغلبة إحداهما على الأخرى متفاوتة النسبة لدى الأفراد، فمن غلبت عليه (غريزة حب البقاء) تراه من (الواقعيين) التنافسيين في صراعه في الحياة، وخير ما يصقله –بعد الدين– مناهج التربية الرياضية، وبث روح المنافسة الشريفة فيه وتقبل الخسارة، ومن غلبت عليه روح (غريزة الامتداد) فهو من (المثاليين) الحالمين، وخير ما يصقل هذه الغريزة فيه –بعد الدين– تعلم الفنون وصناعة الجمال، التي تؤلف حالة من الانسجام والتناغم بينه وبين العالم، حيث تراه –بطبيعته– باحثاً عن الكمال، ومن حنينه للكمال يتولد الابداع الفني، فالفنان والمبدع باحث عن الكمال، ومن معاناته الفرق بين الاشياء كما هي والاشياء كما ينبغي ان تكون ينتج قلقه الذي يولد الابداع من خلال تعبير بـــ(لغة الايقاع) في الكلمة والشعر والحبكة والرواية، أو في اللون والشكل والرسم، أو في ما سواها من أشكال التعبير الفني وصناعة الجمال.

ثانياً: المكــان: (تــنوع بلا عــدد):

لقد استخلف الله بني آدم في الأرض: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (البقرة: ٣٠)، وهو استخلاف مؤقت لكل واحد منا: (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) (البقرة: ٣٦)، مقصوده أن يودع كل واحد لمسته الأولى على صفحة الوجود بما آتاه ربه: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود: ٦١)، لعله يكون جديراً بما خلقه الله من طبق أخير للوجود: (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ) (البقرة: ٢٥).

ولأنه موضع مؤقت ينتهي بالرحيل المحتوم: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) (الزمر: ٣٠)، فقد جعله الله **جميلاً مزيناً** بكل ما فيه ليكون الابتلاء ممكناً، إذ لولا جمال المكان لما استطاع إنسان الصبر يوماً واحداً على البقاء فيه؛ ما دام هو عالم بحتمية الرحيل عنه حين يأتي أجل الموت القادم: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) (الكهف: ٧)، وهذا الجمال **متنوع** متلون بتنوع طبائع أرواح الخلق وألوانها، وهو مبثوث في خلقة **الناس** وخلق **الحيوانات**: (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) (فاطر: ٢٨)، وفي خلق **النبات**: (ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ) (الزمر: ٢١)، وفي خلق الجماد: (وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ) (فاطر: ٢٧)، و(سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ) (يس: ٣٦)، إذ إن **التنوع مقصود** ليلاقي تنوعاً أعظم منه في أرواح بني آدم، وفي قدرات كل واحد متفرد منهم -على مدى تاريخهم- على التعامل مع هذه الأنواع، من خلال **اختيار** الموضع الخاص (للمسة) التي سيودعها كل واحد، وكذلك فإن الله قد أودع هذا التنوع نظاماً موحداً في الخلق مبثوثاً في وحدة الذرات وفي نظام

المجرات، ليدل على خالقه الواحد الذي: (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) (الرحمن: ٢٩)،

فوا عجباً كيف يعصى الإله   أم كيف يجحده الجاحد

ولله في كل تحريكة وتسـكينة أبدا شاهـد

وفي كل شئ له آيـة   تدل على أنه الواحـد.

ومثلما أن **هذا المكان متنوع بلا عدد، فإنه يتوسع بلا حد**: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) (الذاريات: ٤٧)، وتوسعه المستمر دال على أن خالقه العظيم موجود يدبر أمره: (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً) (فاطر: ٤١)، وفي ظل هذا التنوع العظيم والتوسع المستمر: لك مكان خاص، ولمسة خاصة تليق بتفردك وبإمكان تغيرك الذاتي وترقيك المستمر مدى العمر، بعد أن تتعرف على نفسك وتعرف ربك، ثم تتعرف على هذا الكون حيث أقامك، وتغيره بقدر استطاعتك، بما علمك ربك.

لقد استخلفت أنت في موضع متفرد من هذه الأرض، وهذا الموضع وإن كان من الممكن أن يتغير بهجرتك منه طلباً للرزق أو للأمن، إلا أن الأصل في استخلافك أنك مسؤول عن موضعك الخاص الذي أنت أعرف به، كما ورد في الأثر: (كل منكم على ثغر من ثغر الإسلام، فالله الله أن يؤتى الإسلام من قبله)، ولذلك جعل الله في قلبك ارتباطاً خاصاً بالمكان الذي نزلت فيه على الأرض، جعل معه الخروج منه بمنزلة القتل: (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ) (النساء: ٦٦)، ذلك أن الموت فراق لمألوفاتك، ومن الموت فراقك لما ألفت وإن كنت لا تزال في طبق الحياة، ولذلك فالأصل فيك أن تنتمي إلى حيث وجدت، وأن تبدأ بالنظر إلى الكون من زاويتك

الخاصة التي استودعها الله إياك في الموطن الذي خلقك فيه، **وتنطلق من خصوصية بيئتك الطبيعية والاجتماعية،** لتودع لمستك المختلفة، إذ إن كونك مختلفاً هو ما يجعلك متميزاً متفرداً، ومن هذا التفرد ترقى إلى أن تكون مبدعاً في أدائك لفن قضاء العمر.

إن التنوع اللانهائي في المكان، يعطيك بدائل واسعة من الخيارات في الموضع الذي خلقت فيه، وأنت تؤسس دوائر علاقاتك مع الأشياء، وتحدد المواضع التي تودع فيها لمستك الخاصة، والموافقة لتفردك وتفرد قدراتك.

ثالثاً: الزمــان (تغيــر بلا حــد):

إن الزمن: وسيلة لتحديد ترتيب الأحداث، والتقدير النسبي للتغير في كم (الفعل أو الحدث) في الوجود[١٢]، وقد خلق الله الكون الذي نعيش فيه **موراً بالحركة والتغير**، حتى إنه لا يوجد فيه شئ ساكن، ولو في أدق الخلق حيث تسبح الجسيمات الحاملة للطاقة حول نواة الذرة، فضلاً عن أبعد نجم سابح في فلكه في أبعد مجرة: (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس: ٤٠)، ومن المذهل تصور أن هذه الحركة المستمرة يصاحبها تولد لا ينتهي للظواهر الجديدة، بحيث إنه لا يتكرر في الكون حدث واحد مرتين، فهو **يتغير** ويتمدد ويتكامل في كل لحظة، بدرجة أنه **لا تتكرر فيه ظاهرة أو حدث مرتين في كل تاريخه!**، لا على مستوى دوران إلكترون حول نواة الذرة، ولا على مستوى دوران كوكب في فلكه، أو دوران الأرض حول الشمس في نفس الموضع من الكون منذ خلق وإلى آخر لحظة من وجوده!.

وعلى مستوى النشاط الانساني، فإن حياة الانسان هنا –وإن كانت مؤقتة ومحددة بأجل–، فإنها ملأى بالتغيير بكل أنواعه، وبلا توقف منذ لحظة ولادته: (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً) (الحج: ٥)، وهو تغيير رباني مستمر؛ في تكوين الانسان الحيوي وطبيعة شكله وأداء جسمه الوظيفي، طفلاً وبالغاً وكهلاً،

[١٢] إن (الوقت) عبارة عن المسافة الزمنية الفاصلة بين الأحداث، وإن (قَدْرَ الحدث) أو (كم الفعل) يجعل الزمن نسبياً، فاليوم عند الله كألف سنة مما نعد عندنا: (وَإِنَّ **يَوْماً** عِنْدَ رَبِّكَ **كَأَلْفِ سَنَةٍ** مِمَّا تَعُدُّونَ) (الحج: ٤٧)، ونسبة التغيير يوم القيامة تجعله يوماً ليس مثله يوم: (تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي **يَوْمٍ كَانَ** مِقْدَارُهُ **خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**) (المعارج: ٤).

وكذلك هو تغيير متجدد في طبيعة مواجهته لتحديات العمر ونوع تلك التحديات في كل مرحلة، حتى قيل إن (دوام الحال من المحال)، **وهذه علامة الحياة: (التغير)، فالذي يتغير ويغير حي، والذي لا يتغير ولا يغير ميت** وإن طافت برئتيه أنفاس وطرقت أذنيه أصوات، -إن كان ممن لا ينتفع بها ليحدث التغيير-: (**لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**) (الأعراف: ١٧٩).

وهذا (التغيير) شامل، فكما أنه قائم في حياة الفرد، فإنه حاكم للوجود الإنساني على مستوى الأمم والمجتمعات، التي يحكمها (**نظام خاص للحركة الحضارية**)، **يشتمل على قوانين ثلاثة:**

الأول: قانون الاختلاف: (**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**) (هود: ١١٩)، فقد خلقنا الله مختلفين أشكالاً ومذاهبَ –مع ما استودعنا من فطرة توحيده–، وهذا **الاختلاف سنة ماضية لا تتخلف، ولا يملك أحد وقفه**: (**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**) (المائدة: ٤٨).

الثاني: قانون الدفع: بالنظر لوجود الاختلاف، ووجود (الدافع) المتمثل بجعل ما على الأرض زينة: (**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**) (الكهف: ٧)، بكل ألوانها: (**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ**) (آل عمران: ١٤)، فإنه من الطبيعي أن **يحصل تدافع بين المختلفين وتنافس على تلك المصالح، لتدوم الحركة ويدوم التغير**: (**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ**) (البقرة: ٢٥١).

الثالث: قانون المداولة: ومن ثمرات المدافعة أن يقدر الله مداولة الأيام بين الأمم: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) (آل عمران: ١٤٠)، فلا تتوقف دورة السيادة عند فرد أو فئة أو أمة، **وليمكث في الأرض بهذه المداولة خير ما ينفع الأرض والناس في زمانه:** (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) (الرعد: ١٧).

إن هذه السنن لا تستثني أحداً ولا فئة، ولا تحابي أحداً أو أمة، وعلى قدر صلاحك وإرادتك الاصلاح و(دفعك) بقوة، (تدول) الدنيا لك، في كل علاقاتك بالناس والأشياء.

وإن هذا التنوع و(الاختلاف) بين الناس ثروة لأنه يعطي الحافز للأفضل لأن (يدفع) ويعمر الأرض، فتحصل (المداولة)، **ويتحقق التغيير وتستمر به الحياة –التي علامتها هذا التغيير–**، و(المغبون فيها من تساوى يوماه)، والتاريخ فيها لا يعيد نفسه أبداً، ولو تساوت السنن الكونية التي تحكم الحركة الانسانية، لأن كل واحد منا ظاهرة متفردة، وكل ظاهرة في الكون (جديدة) ومتفردة، تجعل الاختلاف مع الآخرين ضرورة تشحذ الهمة وتثير إرادة الابداع وتحفز **بالتحدي من أجل استجابات** لا تنفك تتنوع وترقى بالنوع الانساني وإلا أصابه الجمود، **لأن الحياة يجب أن تستمر متغيرة مترقية إلى كمالاتها عبر الاجيال، ولا يملك جيل وحده أن يجسدها في صورها النهائية**، ومثلما يتدرج الفرد في تربية الله له مدة العمر؛ تتدرج الأجيال في ارتقائها في معرفة ربها واستثمارها الحياة استعداداً للقائه، ومثلما تنتهي فرصة الفرد عند كماله الممكن لحظة موته؛ فكذا تنتهي فرصة الجيل من الناس عند بلوغهم كمالهم الممكن فتزول حضارتهم وتنتهي سيادتهم.

إن هذا التغيير الحاصل في كل لحظة من عمر الوجود، في كل ما في الكون والحياة الانسانية، ووجود (الاختلاف) و(الدفع) و(المداولة) في التاريخ البشري دال على أن رب الكون حي قيوم، وهو موجود يدبر أمر الوجود الذي خلقه، ويُمضي سننه، و(يربيه) ويتدرج بالزيادة فيه بلا حد، إلى ما لا ينتهي من الكمالات: (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) (الرحمن: ٢٩).

إن التغير المستمر في كل ما حولك، ماضٍ لا تستوقفه غفلتك ولا يستبطئه كسلك، وهو دافعك -لدى الوعي به- للتسابق في استثمار كل لحظة في عمرك لتغير أو لتتغير.

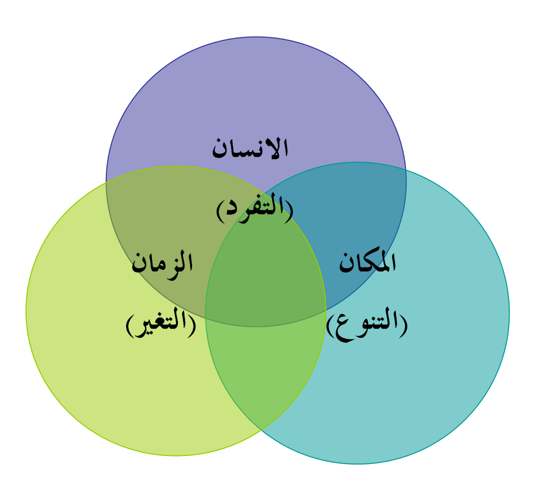
هنا محكوم بكيفية مؤقتة حيوية أرادها ربك (الحي القيوم) الذي خلقك: (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (يونس: ١٤)، فأنت اليوم في موضع قد خلفت فيه آخر كان قبلك، وسيخلفك فيه إنسان آخر يأتي بعدك، وإن الذي استخلفني واستخلفك، واستخلف من كانوا قبلي وقبلك، ويستخلف من سيأتي بعدي وبعدك، ناظر الآن إليك، ماذا ستعمل في فرصة العمر الوحيدة والأخيرة هذه؟، وأنت تعلم أنك بقدر ما تحدث من تغيير ذي تأثير أعمق في الحياة، ستستحق التقدير في الموضع الذي ستكون فيه في الآخرة، وكلما ارتضيت الجمود -وإن كنت مسلماً- رشحت نفسك لمجرد النجاة من الألم في الآخرة، دون الارتقاء في الدرجات التي لا تنتهي التي خلقها الله في (الجنة): موطننا الأول ومنزلنا

الأخير، حيث الحياة أكمل ما تكون ترقياً وتغييراً: (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ[١٣] لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت: ٦٤).

(الإنسان)

– أنت متفرد –

(مَنْ قَتَلَ نَفساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً)



(المكـــان)

– تنوع بلا عدد –

(سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ **الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا** مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ **وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ**) (يس: ٣٦)

(الزمـــان)

- تغير بلا حد -

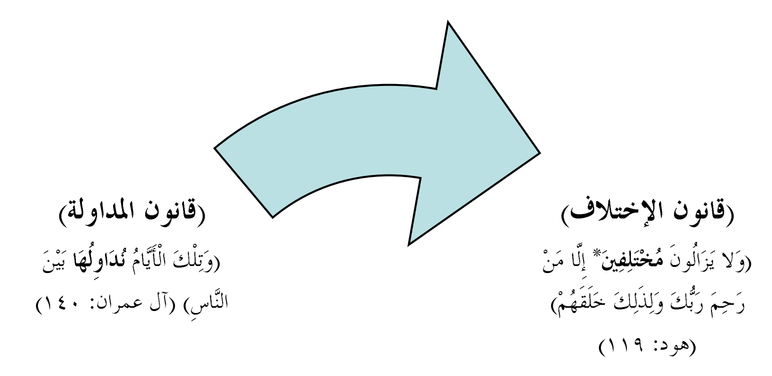
(يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**) (الرحمن: ٢٩)

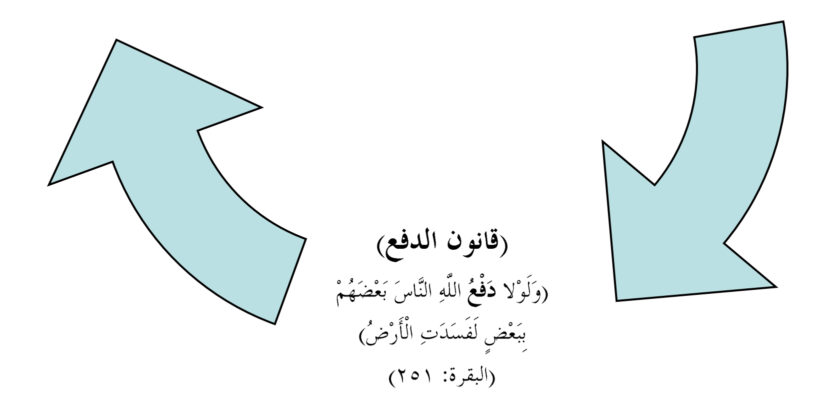
---

[١٣] الحيوان: أكمل الحياة وأشدها (حيوية)، والكلمة مصدر على وزن (فعلان)، فيه دلالة على شدة الوصف، مثلما تقول فاض الماء (فيضاً) لمجاوزته حده، وفاض (فيضاناً) حين يطغى ويشتد فيضه، ومثله غلى الماء (غلياً) و(غلياناً).

- أركـــان الوجـــود الإنســـاني -

(أنت واحد متفرد، خلقك رب حي أحد، في كون ذي تنوع يتوسع ويتغير بلا حد، بمدد من رب قيوم صمد، وإنما الآن فحسب فرصتك؛ لتقول كلمتك وتضع بصمتك، وربك ناظر إليك)





– نظــام الحركة الحضاريــة الإنســانيــة –

(إن التغير المستمر في كل ما حولك ماضٍ لا يتوقف، وإن هذه السنن لا تستثني أحداً أو أمة، وعلى قدر صلاحك –بين المختلفين– وإرادتك الإصلاح و(دفعك) بقوة، (تدول) الدنيا لك)

• مقصـــود الحيـــاة:

بكلمة واحدة: أنت واحد متفرد، خلقك رب حي أحد، في كون ذي تنوع يتوسع ويتغير بلا حد، بمدد من رب قيوم صمد، وإنها الآن فحسب فرصتك؛ لأن تقول كلمتك، وتضع بصمتك، وربك ناظر إليك: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (التوبة: **١٠٥**).

لقد جعل الله هذه الحياة مرحلة من مراحل وجودنا، و(طبقاً) من أطباقه، فيها فرصة لمعرفة النفس والوجود والخالق، بما آتانا الله من قدرة على أن (نعلم)، ثم إنها فرصة لاستثمار تلك المعرفة في الاستعداد للقاء الخالق الجميل بما آتانا من قدرة على أن نختار و(نعمل)، وهذا اللقاء لقاء منفرد: **(وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً)** (مريم: ٩٥)، -وروى البخاري في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان)-، **وإنما يكون استعداد كل منا منفرداً لهذا اللقاء من خلال التحقق بكونه مربوباً وعبداً مخلوقاً لرب خالق، فيجتهد -بعد معرفة حقيقة نفسه- لتحقيق** (الإخلاص) **لله خالقه في إحداث التغيير الإرادي الأكبر والأكثر إتقاناً في النفس وفي الكون الذي سخره له ربه،** في ظل منهج الله: إقامة **للعدل** بين الخلق: **(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ)** (النحل: ٩٠)، و**إصلاحاً** للأرض والجمادات: **(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)** (هود: ٦١)، ذلك التغيير الذي لا حد لآفاقه التي تصعد بتلك النفس وتتدرج بها في فرصة الحياة الدنيا، مع **تغيرها المصاحب لقيامها بتغيير ما سواها،** ولترتقي فيما لا نهاية له ضمن مراتب كل منها أكمل من التي سبقتها، في ظل حبها ورجائها وخوفها من رب رفيع الدرجات: **(رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ)** (غافر: ١٥)، و**(كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي**

شَأْنٍ) (الرحمن: ٢٩)، ولا نهاية لكمالاته، ثم لتستحق موضعاً متفرداً في الوجود لاحقاً بعد يوم الجمع، يتناسب وقدر ما أحدثت من تغيير أو ما ترتب على التغيير الذي أحدثته من آثار صلاح إلى يوم القيامة: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) (يس: ١٢).

الفصل الثاني

-دائـــرة العلاقـــات الانسانـــية-

(العلاقات بيـــنك وبين الخالـــق ومخلوقاتـــه)

إن لك مع التنوع اللانهائي في الأرض علاقات لا تنتهي، وأنت مكلف بالعدل في كل علاقة منها في كل وقت، بعد وضع نفسك أولاً حيث يحب ربك، وهذا هو مسمى كونك (عبداً) لله رب العالمين.

- **الموقـــع الانساني في الحيـــاة:**

يختصر القرآن تعريف موقعك في الحياة بكونك: (خليفة) الله خالقك وخالق من سواك: **(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)** (البقرة: ٣٠)، استودعك مكاناً صغيراً من الكون، ميدانه السماوات والارض: **(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)** (الجاثية: ١٣)[١٤]، وظيفتك فيه الإعمار: **(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)** (هود:٦١)، وهو استخلاف مؤقت: **(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)** (الأعراف: ٣٤) ولكل منا خلاله مهمة متفردة، كما أن كلاً منا مخلوق متفرد قد خلق لموضع متفرد -كغيره من مخلوقات الله-: **(وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ)** (الصافات: ١٦٤)، ليواجه التحديات التي لاتنفك تتعرض له: **(لَقَدْ خَلَقْنَا**

---

[١٤] ومن المخجل لنا -بوصفنا مسلمين- أن نهجر قمرنا ونجومنا وقعر بحارنا، ومن المخجل أن يصل غيرنا إلى القمر قبلنا، بل يسمي عناصر الجدول الذري قبل أن نسميها، ويسمي الكواكب والنجوم والحيوانات والحشرات والزهور بما يشاء من الاسماء بعد أن يكتشفها ونحن نائمون!

الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ) (البلد: ٤)، فهو مظروف (في) المكابدة والمشقة في الأرض، حتى يقوده ذلك بكدح متعب إلى لقاء ربه: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ) (سورة الانشقاق: ٦)، وعلى قدر ما ستحدثه من (**تغيير**)، **سيحدث ربك فيك تغييراً أعظم** وأنت تكدح إلى لقائه: (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: ١١)، وإن كلاً منا ميسر لما يتناسب ونوع التغيير الذي يحدثه: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) (الليل: ١٠).

إن وجودك في أرض الاستخلاف محوط بدائرة من العلاقات؛ مع الخالق **الأعلى**: (**الله**)، ومع من **يساويك** في الخلقة من (**الناس**)، ومع من هو **دونك** في الخلق من الكائنات، وكل نوع من أنواع هذه العلاقات الثلاثة[١٥] يقتضي نوع أداء خاص من قبلك **علماً وعملاً**، ودونك بعض تفصيل هذه العلاقات:

---

[١٥] تبينها إشارة الآية في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) (الرعد: ٢٥)، حيث قسمت مواضع الأداء الانساني إلى قسم مع الله وقسم مع الناس وقسم مع أرض الاستخلاف، ومعلوم أن **عهد الله** هو الإيمان بالتوحيد الذي جاء به محمد ونصرته: (لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ) (آل عمران: ٨١)، وجوهره **الاخلاص لله**: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) (البينة: ٥)، وأما **القطع** المقصود لما أمر **الله به ان** يوصل: فهو لما بين العبد وبين نظرائه في الخلق من الناس من صلة الأرحام وواجب الاحسان: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) (محمد: ٢٢)، وأما الافساد في الأرض فهو شامل لما استخلف الله بني آدم فيه من قوى الأرض وخيراتها: (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ

النـــوع الأول: العلاقـــة بالله (الذي لا نظيـــر له):

والأصل في هذه العلاقة التحقق **بالعبودية** التامة له تبارك وتعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات: ٥٦)، بأكمل حب وأكمل ذل، وبذل الوسع لكي تكون كما يحبك أن تكون، فهي عبودية أشمل من مجرد أداء شعائر الصلاة والصيام، وإنما هي إرادة شاملة لعمارة الكون وإصلاح الحياة: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود: ٦١)، واستحقاق نعمة الاستخلاف في الأرض من خلال فعل ما يحبه تعالى ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة — وهو مسمى العبادة–، وتعظيم شعائره والتزام شرائعه، وتحقيق **(الاخلاص)** له **وابتغاء وجهه واتباع مراده** في كل ما تعمله فيما استخلفك فيه من علاقات مع القسمين الآخرين –مع الناس ومع بقية الكون–، وهذا الاخلاص في العبادة يقتضي أولاً مجاهدة العبد نفسه ليكون **(صادقاً)** في نفسه، يوافق ظاهره باطنه، ولا يكون من لسانه مقال إلا بما يطابق واقع الحال، وهذا الصدق أصل كل خير وبر في حياة العبد[١٦].

خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (يونس: ١٤)، وهذان النوعان من العلاقات -مع الأرض والناس- هما ما تساءلت عنه الملائكة عند استفهامها عن استخلاف بني آدم: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ) (البقرة: ٣٠).

[١٦] روى الإمام مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ومايزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً).

إن عموم الناس في غفلة عما في الوجود من دلالات على صفات خالقه: (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) (يوسف: ١٠٥)، وإن أول الطريق لتحقيق أدبك في (الاخلاص) مع الله يبدأ بإيقاظ الحواس من هذه الغفلة والنظر في هذه الآيات: (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (يونس: ١٠١)، وهو نظر مقرون بقراءة الكتاب المسطور: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) (العلق: ١)، وهذه القراءة والنظر تقودان إلى **خلوة تتفكر فيها** في أصل نفسك: (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا) (سبأ: ٤٦)، وهو تفكر يقودك إلى التعرف إلى ربك والتعامل معه إذ تدعوه وحده فيجيبك: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (البقرة: ١٨٦)، فتستجيب له كما يستجيب لك، ويستقر في وعيك فقرك المطلق إلى الله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (فاطر: ١٥)، وتدوم على **ذكره في كل حالك**: (**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**) (البقرة: ١٥٢)، وإن **ذكر** (**الله**) **لك** أيها العبد يتجلى بفيض من أنوار المعرفة به، يلقيها الله في قلبك حين تذكره، وكلما ازددت به معرفة ازددت له حباً.

وبهذه المعرفة تتوجه إليه بأقصى **الحب** من قلبك ثناءاً على جماله وشكراً على نعمائه: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الفاتحة: ٢)، وهو حب أعظم من كل حب: (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ) (البقرة: ١٦٥)، مقرون بأعظم **الرجاء** لرحمته وعطائه وحده: (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) (الفاتحة: ٣)، ويلحق الرجاء **خشيته وحده** والخوف من مخالفة أمره ومن حسابه يوم لقائه: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) (الفاتحة: ٤)، وهو خوف يورث (تقوى) الله بفعل ما يحبه الله وترك ما لا يحبه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) (الحشر: ١٨)، وبهذه الثلاثة –الحب

والرجاء والخوف- ينـــتظم (**إخلاص**) **العبادة** لله في القلب[١٧]: (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**) (الفاتحة: ٥) ، ولكنه إخلاص لا يكتمل إلا بانضباط القلب بالاعتماد على الله وحده في جلب المنافع ودفع المضار –وهو مسمى **التوكل** على الله-: (**فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**) (هود: ١٢٣)، وهو توكل ضامن لأن لا تنسب لنفسك من الأمر شيئاً، فتبذل أقصى الوسع للفعل المؤثر في نفسك وفي الأرض: مع تثبيت نسبة كل شئ إلى الله وحده: (**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**)، **فتقر في نفسك بذلٍّ عظيم: أنه حتى إرادتك العبودية لله لن تكون إلا بعون منه ليجعلك له عبداً.**

إن هذا (الاخلاص) القلبي يستغرق كل أحوال فعلك وأزمانه في مدة العمر، إذ إن قضاء الله ماضٍ بأن لا تدوم الحياة على حال واحد من الخير أو الشر: (**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**) (الأنبياء: ٣٥)، فيعين الاخلاص هذا القلب على حبس النفس على الرضا بقضاء ربها عند حصول ما تظن فيه الشر –وهو مسمى **الصبر**-، فيجازيها ربها بكشف الضر مع عطاء بغير حساب: (**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**) (الزمر: ١٠)، كما يعين الاخلاص القلب على **شكر** المنعم وحده عند حصول ما يحبه العبد من الخير، فيكون الجزاء زيادة بغير حساب: (**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**) (إبراهيم: ٧)، وبذلك يكون قلب العبد في **حاضره** في كل أحواله لله – متقلباً بين الصبر والشكر-، مطمئناً لتصريف الله فيما يصيبه به من مقدَّرات في الخير والشر: (**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ**

---

[١٧] يقول ابن تيمية رحمه الله: (المحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر قوتها وضعفها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده)، مجموع الفتاوى: ٩٥/١.

مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ* لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) (الحديد: ٢٣)، **عالماً بأنها بالله كانت، وأنها إنما قدرت لتربيته و(تخليصه) ليكون لله**، ثم إنه من بعد يجتهد بنيته لأن يكون لله في **ماضيه ومستقبله**، ويتحقق هذا **بالاستغفار** -عما كان- من التقصير في **الماضي**، و**التوبة** بالعزم على عدم العودة إلى فعله في **المستقبل**: (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) (هود: ٣)، وبمجموع ما ذكر من تقلب القلب بين الصبر والشكر في **حاضره**، وثباته على استغفاره عما **مضى**، وتوبته عن أن يكون مقصراً في **المستقبل**: يتحقق (**إخلاص**) قلب العبد الواجب في حق الله، وبه وحده تكون لك (هوية) ولوجودك معنى.

ومع إخلاص القلب لله وحبه له، يجتهد العبد لأن يكون على مراد الله في **عمله** في إقامة وتعظيم **شعائر الله**[18] من الصلاة والصيام والزكاة والحج: (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) (الحج: ٣٢)، وكذلك يجتهد في عمله في إقامة واتباع **شرائع الله**[19] وما أوجبه من نظام في المعاملات مع عباده، عدلاً وإصلاحاً، مما ستعلمه في القسمين التاليين.

---

[18] إن الأصل في **شعائر الله** أن تعظم ولا يزاد عليها -بلا دليل- ولا ينقص منها، **فلا يزاد على الشعائر ببدعة**: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ) (الشورى: ٢١)، ولا ينقص منها ظاهراً وباطناً بكسل أو جحود: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً) (النساء: ١٤٢).

[19] إن الشرائع تمثل منهجاً اختاره الله -بعلمه- ليرقى به الفعل الانساني في فرصة الحياة: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) (الجاثية: ١٨)، روعي فيه التخفيف مراعاة لطبيعة الضعف الانساني الأصيل: (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً) (النساء: ٢٨)، والتيسير: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ

النــوع الثاني: العلاقــة بالنــاس (النظــراء في الخلــق):

والأصل في هذه العلاقة تحقيق (**العدل**)، بوضع الشئ موضعه، وإيتاء كل ذي حق حقه، من خلال أن (تحب لأخيك ما تحبه لنفسك)[20]، ومعاملته بمثل ما ترضى أن يعاملك به، وهو أمر الله لك: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (**النحل**: ٩٠)، وهذا العدل غاية عظيمة ومقصد أعظم من مقاصد الشريعة، فـ(**العدل واجب لكل أحد، على كل أحد، في جميع الأحوال، والظلم لا يباح شيء منه بحال**)[21] –كما يقول علماء المسلمين–، وهي قاعدة تكتب بماء الذهب في لوح القلب، حتى تكسو كل القلب، وتنعكس في كل سلوك لك مع من سواك من الخلق، أباً أو أماً أو ابناً أو صديقاً أو عدواً، أو معلماً أو متعلماً، وفي كل شأن من شؤون حياتك، لأن هذا العدل سبيلك لرضا ربك (العدل)، وهو الذي: (ينصر الدولة

بِكُمُ الْعُسْرَ) (البقرة: ١٨٥)، ورفع الحرج: (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) (الحج: ٧٨)، ولذلك فشريعة الله تمثل نسيجاً متكاملاً يتم اتباعه كله، ولا يجوز فيه الانتقاء باتباع بعضه دون بعض: (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (البقرة: ٨٥).

[20] يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (رواه البخاري).

[21] انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٣٣٩/٣٠، وقوله: (حتى إن الله تعالى قد أوجب على المؤمنين أن يعدلوا على الكفار في قوله تعالى: (كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) (المائدة: ٨)).

العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة)[٢٢]، وقد قال في الحديث القدسي: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، يا عبادي فلا تظالموا)[٢٣]، **وسبحان ربنا الذي هو (على كل شئ قدير)، وقد حرم على نفسه الظلم قبل أن يجعله محرماً على عباد (لا يملكون من الأمر شيئاً)!**

إن (الاخلاص) لله في إرادة إقامة (العدل) في علاقاتك مع نظرائك من الخلق، يوجب **وفاءاً مطلقاً** وأداءاً للحقوق المترتبة على أي التزام بين طرفين: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)** (المائدة: ١)، وهذا الوفاء شامل وضروري لكل نوع من أنواع العلاقات الإنسانية، أبوة أو بنوة أو زوجية أو عمل، ومثله الوفاء بالالتزام بنظام أي سلوك اجتماعي ضامن للمصالح، -كالالتزام بضوابط المرور وفاءاً بالعقد المتضمن إعطاء رخصة القيادة على سبيل المثال؛ إلى غير ذلك-، فيكون واجباً **تعبدياً** على المكلف أن لا يخالف فيه النظام العام، وهكذا في كل ما يتضمن عهداً للالتزام بين طرفين، فإنه يوجب أداءاً مطلقاً للحقوق: **(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)** **(النساء: ٥٨)، مهما كانت بسيطة أو صغيرة، فإن الله محاسب عبده على أي ظلم في الأداء، إلى حد محاسبته على مجرد أداء التحية التي يتعارف عليها الناس: (وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً)** (النساء: ٨٦)، وكما أنه مأمور بالوفاء بالعقود وبالأداء الدقيق للحقوق، فإن الله لن يقبل منه **التجاوز** على أدنى حق: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)** (النساء: ٢٩)، ويأمره بوصفه عضواً في مجتمع انساني **بالتعاون ليعمل الكل على تحقيق البِرّ للكل** -والبر اسم جامع لكل خير-: **(وَتَعَاوَنُوا عَلَى**

[٢٢] المصدر السابق: ٦٣/٢٨.

[٢٣] رواه الإمام مسلم.

الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (المائدة: ٢).

ويتضمن هذا التعاون على الخير وجوب **حماية حقوق كل الضعفاء** ونصرة من **لا يملك دفع الضر والمفسدة عن نفسه** –كاليتيم ومن لا ناصر له–، ووجوب **مساعدة** كل من **لا يقوى على تحصيل الضروري من المصالح** –كالمسكين ومن لا يملك عصب المال–، ووجوب **مخاطبة** الناس ودعوتهم للتعرف على الحق الأصيل وإشاعة الاخلاص لله الواحد: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ* وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ* وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) (الضحى: ١١)، وهذا شامل لكل الخلق: (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (الممتحنة: ٨)، حيث يوحد الناس (إنسانيتهم) ومن ثم فالأصل حب الخير لكل أجناسهم: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: ١٣).

وإنما يحدد الإطار الصحيح للعلاقات بين الناس ما وضعه الله من ضوابط لما **أحله وحرمه** من هذه العلاقات[٢٤]: (وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) (الطلاق: ١)، يكون الالتزام بالخضوع لأحكامها واجباً جماعياً فرضه الله: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (المائدة: ٤٤)، ثم إن

---

[٢٤] إن الحرام درجات أربع، أدناها فعل الفواحش، وأعلى منها الظلم والعدوان، ثم الشرك بالله، **وأعلى منها كلها أن تدعي أنك ممثل الله في الأرض فتتقول عليه ما لم يقله:** (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) (الأعراف: ٣٣)، وانظر مقدمة (إعلام الموقعين عن رب العالمين) لابن قيم الجوزية رحمه الله.

مما يحفظ نظام التزام الناس بها: (حدوداً) شرعية حدها الله، تمثل (ردعاً) عن مجاوزة ما أحله الله إلى ما حرمه الله قبل وقوعه، كما أنها تمثل (جزاءاً) دنيوياً لمن وقع في الحرام، يكفر عنه ما كان منه من تجاوز على أنفس الناس أو أموالهم أو أعراضهم، ويجعله لغيره عبرة، وهذه الحدود تمثل (**سياجاً**) يحفظ المجتمع العابد لله بعد تأسيسه وقيامه وتشكيل نظامه في إطار الشورى السياسية التي تضمن ولاء الجميع لما اختاره الجميع من الخضوع لمنهج الله: (**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**) (الشورى: ٣٨)، ولكن الأصل الأعظم في تأسيس وقيام هذا المجتمع وحفظه هو (**الحب**) الأصيل الذي تتلاقى عليه قلوب الناس التي عرفت الله، وبهذا الحب لله: يحب المسلم عباد الله، وبه يؤسس لخير أداء (للعدل) في علاقته مع نظرائه من الخلق، فيجتهد ما وسعه ليكون لهم **رحمة**: (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**) (الأنبياء: ١٠٧).

النـــوع الثالث: العلاقة مع ما سوى الناس من الحيوانـــات والجمـــادات (مما هو ليس لك بنظيـــر):

والأصل فيها إرادة (**الاصلاح**)، (**إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**) (هود: ٨٨)، ويتضمن استثمارها وتطويرها بلا حدود بما ينفع الناس، لأنها مخلوقة لك ومسخرة لك، على أن يكون هذا الاستثمار والتطوير في ظل شرع الله تحريماً لما حرم، وإباحة لما أحل، وهو معنى (الاصلاح) المراد من الانسان، الذي يتجاوز الصلاح الذاتي إلى حيث تحقيق غاية الاستخلاف، حين يُرِي المخلوق خالقه من نفسه ما يحبه، ويكون جديراً بما أنعم عليه من قدرة على العلم والإرادة وتيسير للعمل، وهذا مقصد كلي من مقاصد الشريعة: (**إن الله بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها**)[٢٥]، وإنما هو إصلاح لمخلوقات استخلفك ربك فيها، ولكل منها علاقته الخاصة بربك وربها جميعاً، ولها قدرها في الوجود: (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**) (النور: ٤١)، وقد جعل لكل منها نصيباً من خيرات الأرض، وأرسى بين قوى الأرض ميزاناً يحفظ (البيئة) مؤهلة لبقائك وبقاء بقية الكائنات، وأمرك بحفظه: (**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ* أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ* وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**) (الرحمن: ٩).

إن (الحب هو أصل كل حركة في الوجود) [٢٦]، ومثلما يلقيك الحب في أعتاب الله، أو ينظم علاقاتك بنظرائك من الخلق، فإن الحب ينسج رباطاً خاصاً مع ما سوى الناس من المخلوقات، يحتويها جميعاً: نجوماً وكواكب، وبحاراً وغابات

---

[٢٥] مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢٧٨/٢٤.

[٢٦] وانظر خاتمة هذا الكتاب في بيان علاقة (الوجود) بـــ(الرب الجميل).

وجبالاً وصحارى وأنهاراً، وطيوراً وديناصورات وأسوداً وأسماكاً وحشرات، وذرات وجزيئات، حين يتعلم القلب والعقل قراءة ما في كل منها من صور لتجلي القدرة الإلهية: (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) (النمل: ٨٨)، تدعوك لاستكشاف أسرارها ولاستثمارها، وتعطيك **دافعاً للحب وحافزاً للإنجاز الدقيق المتقن** في مملكتك الصغيرة التي استخلفك الله فيها[٢٧].

وإنما يُلقي الحبُّ المخلوقات في أعتاب الله وهي بفطرتها تسبح **بحمده**: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً) (الإسراء: ٤٤) ، وبهذا الحب تخشع أشد الجمادات عظمة وصلابة لسماع كلام الله: (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الحشر: ٢١)، وتراها سماءاً وأرضاً وجبالاً ترفض بغضب ما يمس جلال ربها: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا) (مريم: ٩١)، كما أنها بحبها لربها تحب من يحب، وتحزن لفراق المصلحين[٢٨]، ولا تبكي لزوال المفسدين: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ) (الدخان: ٢٩).

---

[٢٧] يقول سيد قطب: (فالناس قطعة من هذا الكون لا تصح حياتهم ولا تستقيم إلا حين تنبض قلوبهم على نبض هذا الكون، وإلا حين تقوم الصلة وثيقة بين قلوبهم وإيقاعات هذا الكون الكبير)، في ظلال القرآن: ٥٤٧/٧.

[٢٨] مثلما ثبت فيما رواه البخاري وغيره من خبر أنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي صلى الله عليه وسلم حنيناً إليه، بعدما تركه ليخطب على المنبر.

إنها كائنات (مأنوسة) خلقها رب واحد جميل، تراها من أنسها مع من يحبه الله تنتظم في فريق واحد بجبالها وطيورها، مثلما انتظمت في التسبيح مع داود الحبيب عليه السلام: (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ) (الأنبياء: ٧٩)، وكما انتظمت الطير مسبحة ربها الحق مع داود، تراها تنقل الخبر الحق إلى سليمان: (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ) (النمل: ٢٢)، أو تُبعث لتعلّم الناس أدب دفن الموتى: (فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ) (المائدة: ٣١)، أو يرسلها ربها لتعاقب طغاة الناس من مثل (أصحاب الفيل): (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ* تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ) (الفيل: ٤).

إنها (أمم) من المخلوقات تمتلك تفرداً في خلقتها، وفي علاقاتها مع الوجود كما يمتلكه الانسان: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) (الأنعام: ٣٨)، وهي مجموعة يوم القيامة إلى ربها: (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) (التكوير: ٥) ولكل منها نظام تقدير رباني يحدد خط سيرها في الحياة: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (هود: ٦)، ولذلك حرص نوح عليه السلام –بأمر ربه– على أن لا تفنى منها أمة في الطوفان: (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) (هود: ٤٠)، لأن لوجودها قدسية جعلت امرأة تدخل النار في قطة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، وامرأة تدخل الجنة بكلب عطشان سقته ماءاً في يوم قائظ –كما

رويت قصتهما في كتب الحديث-، وقال صلى الله عليه وسلم: (في كل كبد رطبة أجر)[٢٩]، وبهذه القدسية دخل (كلب) تاريخ الكرامات مع أصحاب الكهف، كما دخل (هدهد) سليمان و(حوت) يونس و(ناقة) صالح تاريخ المعجزات.

إن أدق هذه المخلوقات -كالحشرات- له شأن في الوجود، وقد أكرم الله عبده سليمان بمخاطبته **نملة**: (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ* فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا) (النمل: ١٩)، كما أن **الله** (**أوحى**) **إلى حشرة** فعلاً جليلاً: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ* ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل: ٦٩)، ولدقة خلق الحشرات وتفاهتها في أعين الناس فقد ضرب الله المثل في إعجاز الخلق بأقلها شأناً عندهم: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) (الحج: ٧٣)، وفي هذا إشارة إلى أن استكشاف الأنواع التي لا تنتهي من عالم النبات وعالم الحشرات والأسماك وغيرها من الحيوانات، وتشريحها وفقه بعض من أسرار خلقها، والاستفادة بروح مبدعة من إيحاءات أنظمة خلقها الدقيقة لإنشاء حياة أفضل: **واجب عبادي**، كما أنه واجب عبادي أن نستكشف و(نصلح) المحيطات والجبال والغابات والصحارى وغير ذلك من مواضع استخلافنا، وهذا الاستكشاف والاصلاح الأقصى هو نوع من (**العبادة**)، **من خلال تحققك بجدارة** (**الاستخلاف**)

[٢٩] رواه البخاري ومسلم.

التي أرادها منك ربك في موضعك الخاص، وإنما كلفت بـــ(شعائر الله) لتعينك على هذه (العبادة).

إن العدل والاصلاح يتداخلان في علاقة المكلف بالناس والحيوانات والجمادات، وإن انتظام هذه المقاصد جميعاً في الوعي الإنساني، مع استجماع الإرادة على طلبها، والعزم على تحقيقها: هو إيفاء **بميثاق إخلاص** العبودية لله، والمتضمن **إقامة العدل وتحقيق الاصلاح مع الخلق ومع ما سواهم من الأشياء**، وهو الكفيل بضمان هداية رسالة السماء الأخيرة للإنسان، وإلا فإن هو تخاذل عنها أو عن بعضها كان (فاسقاً) خارجاً عن طاعة خالقه، يعمي الله بصيرته –على قدر فسوقه– عن رؤية نور القرآن: (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ* الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (البقرة: ٢٧).

إن لك مع التنوع اللانهائي في الأرض (علاقات) لا تنتهي، وأنت مكلف بالعدل في كل علاقة منها في كل وقت، وذلك باعتبار (إن الله كتب الإحسان على كل شئ) [٣٠] –كما قال النبي صلى الله عليه وسلم–، فالعدل مع فاكهة جميلة مثلاً يقتضي النظر إلى جمالها قبل التغذي بها وتذوق (جمال) طعمها، والعدل مع ما سخر الله لك من قوى كامنة في الأرض وفي السماء يقتضي تعميق البحث فيها واستثمارها، والعدل مع والديك يقتضي برهما وخفض جناح الذل من الرحمة لهما، والعدل مع عملك يقتضي إتقانه: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه)[٣١] –كما قال النبي صلى الله عليه وسلم–، والعدل مع درسك وبحثك يقتضي تفوقاً لا يعرف حداً،

---

[٣٠] رواه الإمام مسلم في صحيحه.

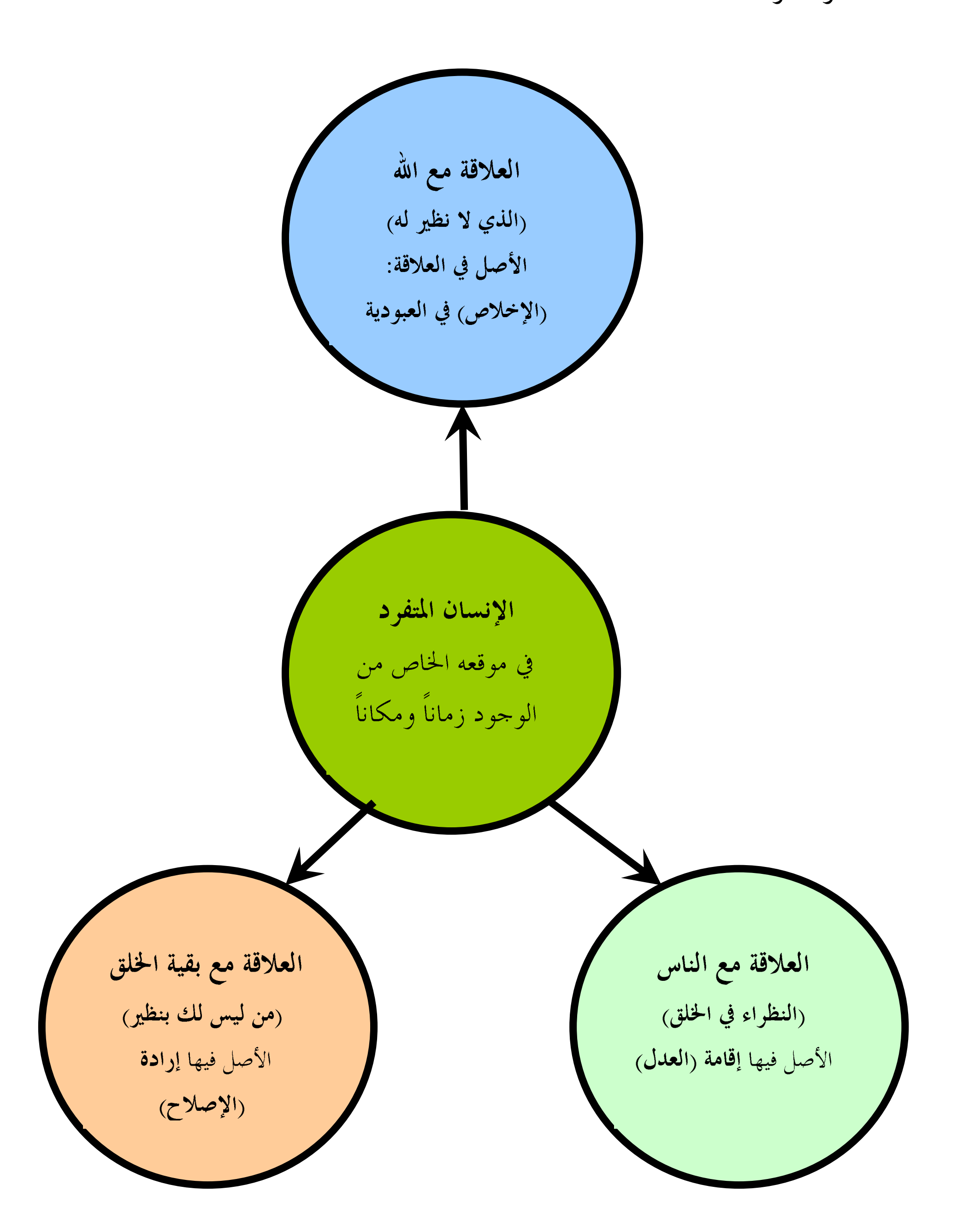
[٣١] رواه البيهقي في شعب الإيمان وصحح إسناده الألباني.

كما يتوجب عليك في كل ما آتاك الله من نعمة في العلم أو في السلطان أو في المال عدل، حتى مع قدح ماء تشربه، أو مع قميصك حين تلبسه، أو مع مركوبك الذي سخره الله لك، **وهكذا ينبغي أن يكون شأنك في كل ما استخلفك فيه ربك: تبذل أقصى وسعك وتجتهد لتتأدب وتعامل كل شئ بما يستحق، وتضع كل شئ موضعه الذي يستحق، بعد وضع نفسك أولاً حيث يحب ربك، وهذا هو مسمى كونك (عبداً) لله رب العالمين.**

- **الهويـــة والانتـــماء**

إن أدب إقامة العدل وتحقيق الاصلاح وإدراك موضعك الخاص في الوجود، مرتبط باتباع منهج (الانسان الأعلى) والقدوة العالية التي مثَّلها خير من استحق العمر، وأعظم من ترك أثراً في تاريخ الأرض والناس عدلاً وإصلاحاً: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) (الأحزاب: ٢١)، إذ إن الطريق إلى حب ربك الجميل يمر بجسر وحيد متمثل باتباعه صلى الله عليه وسلم: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (آل عمران: ٣١)، وكل ما دون طريقته في تحقيق ما يطلبه خالق الكون تضييع للعمر: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (الأنعام: ١٥٣)، وهو اتباع يضمن جعل وجودك كله لله: (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) (الأنعام: ١٦٣)، ويحدد **هويتك في ظل التنوع الكبير**: (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) (الحج: ٧٨)، ويحدد **انتماءك** إلى تاريخ من نوع خاص، هو **تاريخ الأمة الواحدة الصالحة العابدة لله**: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء: ٩٢)، وإليها انتمت خيرة بني آدم: (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (البقرة: ١٣٦)، وإليها تنتمي خيرتهم في زمانك: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (الحجرات: ١٠)، **وإليها ستنتمي أمم من الصالحين**: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ

يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (الحشر: ١٠)، **وكلهم يلتقون معك** على حب (الرب الجميل)، وعلى أدب وحيد جوهره إرادة **الإستسلام بسلام** لله رب العالمين، ينظم إرادتك لتحقيق الخير ويعينك على إيداع لمستك الخاصة، ويعينك على معرفة (هوية) نفسك، التي لن تعرفها إلا بمعرفة (أعرف المعارف): (الله)، خالقك وخالق كل شئ، وهو وحده الذي يعطي (الهوية) لكل من سواه.



– دائــرة العلاقــات الإنســانــية –

الفصل الثالث

-القــدر (نظــام الحيــاة)-

• نظــام القــدر:

> **إنه نوع متفرد وجميل من النظام، لا يملك تدبيره المتجدد الحيوي إلا رب حي قيوم، خلقك ووهبك القدرة على أن تختار ما تريد من ضمن سلسلة كبرى من تنوعات ما حولك، كما خلق المادة والمكان، وخلق الأزمان كلها، وهو بذاته بائن عن خلقه.**

ينظم وجودك وفعلك في الحياة تدبير محكم: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر: ٤٩)، وهذا التدبير كوني عام، دال بطبيعته على مدبره الحكيم الذي: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ) (السجدة: ٥)، ولذلك فهو لا يستثني مخلوقاً ولا حدثاً في الكون، ومن ثَمَّ فهو لا يستثنيك، فقد خلقك ربك بتفردك الذي علمته، وبهيئتك التي أنت عليها، في مكانك وبلدك وأسرتك، وفي زمان معين من تاريخ الوجود الإنساني، ينتهي إلى أجل محدد من تاريخ هذا الوجود، **وكل هذا لم يكن باختيارك**، ويكفيك النظر إلى تاريخك الشخصي لمعرفة قدر هذا التدبير الخاص بك، والتعرف منه على الرب الذي دبره؛ بما تقرأه من حكم بالغة في تصريفه لأقدارك **وصناعته لك**، ولتكون قصتك الماضية آية لك دالة على مدبرها: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ) (الذاريات: ٢١) كما كانت من قبل آية لموسى عليه السلام دالة على مدبرها: (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى* أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي* إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ

فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى* وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) (طه: ٤١)).

ونظام هذا التدبير متفرد وجميل، لا يملك تدبيره إلا رب حي قيوم، خلقك ووهبك القدرة على أن تختار ما تريد من ضمن سلسلة كبرى من تنوعات ما حولك، كما خلق المادة والمكان، وخلق تعاقب الأحداث في الأزمان، وهو بذاته بائن عن خلقه، و(خارج) عن سلسلة الماضي والحاضر والمستقبل التي خلقها ونحن كائنون فيها، وهذا شأن عظيم من شأن الله: (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ) (غافر: ١٥)، الذي: (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) (الرحمن: ٢٩)، و(لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) (الأنبياء: ٢٣)، وهو الذي: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ) (السجدة: ٥)، (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) (الحديد: ٤)، **بعلم حضوري** يليق بجلاله –وليس علماً حصولياً كعلمنا–، قدَّر به شأن كل مخلوق: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) (الفرقان: ٢)، واختص نفسه بعلم تقديره: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (الأنعام: ٥٩)، وكل ما قدره مسطور مكتوب: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (الحديد: ٢٢)، وكما كتب كل شئ قبل أن يكون فهو شاهد على كل شئ حين يكون: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (يونس: ٦١)، ويحصي كل فعل بعد كونه: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) (يس: ١٢)، وكل شئ كائن بمشيئته: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً

حَكِيماً) (الإنسان: ٣٠)، وكل شئ مخلوق بقدرته: (**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)** (الصافات: ٩٦).

وفي ظل التدبير الإلهي الخاص بك في فترة العمر؛ تواجه سلسلة من التحديات في الخير وفي الشر؛ في المال أو في العافية أو في الستر والأمن: (**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)** (الأنبياء: ٣٥)؛ هي من طبيعة المكابدة والمشقة في الحياة: (**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)** (البلد: ٤)، وتأتيك لتكابدها بما أوتيت من قدرات ولتجني ما تعطيك من ثمرات: (**إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)** (يوسف: ٩٠)، على طريق تحقيق جدارتك بنعمة الوجود واستعدادك للقاء الله، وهذا **الجزء الاختياري من صناعة تاريخك** متعلق بك، وتحكمه قوانين إلهية خاصة، تنظم ما يترتب من تدبيرات قدرية لاحقة على سلسلة اختياراتك في فعلك مع الله ومع الخلق ومع من سواهم، وهذه القوانين الخاصة تختلف عن قوانين الكون غير الاختيارية، وهي تتعامل مع خصوصية كونك مخلوقاً موهوباً ذا إرادة وقدرة على الاختيار.

- **أنواع السنـــن القدريـــة:**

وعلى هذا فإن النظام الذي يحكم قدرك القادم مرتبط ومن ثَمَّ **بنوعين من السنن**[٣٢]:

---

[٣٢] وفي معرض التعريف بهذين النوعين من السنن، من حيث تعلق الأول بالمشيئة الإلهية المطلقة، وتعلق الثاني بما يحبه الله تعالى ويرضاه من عباده، قال ابن تيمية رحمه الله: ((وقد بين في كتابه فى كل واحدة من (**الكلمات**) و(**الأمر**) و(**الإرادة**) و(**الإذن**) و(**الكتاب**) و(**الحكم**) و(**القضاء**) و(**التحريم**) ونحو ذلك ما هو **ديني موافق لمحبة الله ورضاه وأمره الشرعى وما هو كوني موافق لمشيئته الكونية**، مثال ذلك أنه قال فى **الأمر الدينى**: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) (النحل: ٩٠)، وقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) (النساء: ٥٨)، ونحو ذلك، **وقال فى الكونى**: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (يس: ٨٢)، وكذلك قوله تعالى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً) (الاسراء: ١٦)، -على احدى الاقوال فى هذه الاية-، وقال فى **الإرادة الدينية**: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) (البقرة: ١٨٥)، (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (النساء: ٢٦)، (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ) (المائدة: ٦)، وقال في الإرادة الكونية: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) (البقرة: ٢٥٣)، (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) (الأنعام: ١٢٥)، وقال نوح عليه السلام: (وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ) (هود: ٣٤)، وقال تعالى : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (يس: ٨٢)، وقال تعالى فى الاذن الديني: (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ) (الحشر: ٥)، وقال تعالى في الكونى: (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) (البقرة: ١٠٢).

النـــوع الأول: (**السنـــن الإلهيـــة الكونيـــة العامـــة**): وهي التي تنـــظم ما يكون من (الرب) إلى (الخلق) جميعاً من تقديرات لا إرادة للإنسان فيها من مثل هيئة خلقك الخاصة وصورتك وموضع ولادتك، ويخضع لنظامها كل شيء في الوجود: (لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس: ٤٠)، فهي تنظم القوانين الطبيعية الكونية العامة من مثل كون النار تحرق، أو أن لقاء البارد والحار يؤدي تدريجياً إلى وصولهما إلى التوازن الحراري، أو أن الكثرة إن اجتمعت على القلة فهي غالبة، أو من مثل أن مآل الفساد

وقال تعالى في **القضاء الديني**: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) (الاسراء: ٢٣) أي أمر، وقال تعالى في **الكوني**: (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ) (فصلت: ١٢)، وقال تعالى في **الحكم الديني**: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ) (المائدة: ١)، وقال تعالى : (ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (الممتحنة: ١٠)، وقال تعالى في الكونى عن ابن يعقوب: (فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) (يوسف: ٨٠)، وقال تعالى: (قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) (الأنبياء: ١١٢)، وقال تعالى فى التحريم الدينى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ) (المائدة: ٣)، (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ) (النساء: ٢٣)، وقال تعالى فى التحريم الكونى: (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) (المائدة: ٢٦)، وقال تعالى: (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ* لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) (المعارج:٢٥)، وقال تعالى في الكلمات الدينية: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) (البقرة: ١٢٤) وقال تعالى فى الكونية: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا) (الأعراف: ١٣٧))، مجموع الفتاوى: ١٠/٢٥ـ٢٦.

البوار: (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) (الرعد: ١٧)، وهذه السنن جميعها صارمة حاكمة، لا تستثني صالحاً أو مفسداً، أو مؤمناً أو كافراً.

والنــوع الثاني: (**السنن الإلهيــة الخاصة بالفعــل الإنسانــي**): وهي التي تنظم ما يكون من (الانسان) المختار إلى (الله)، في طريقه للكون على ما يرضاه الله، و(إرادة) ما يريده منه الله، وتحري ما يحبه الله من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وهذه السنن تعيد تشكيل قدر العبد وفقاً لتوجهه الإرادي، ووفق ما يريده (إلهه) له: (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) (طه: ٣٩)، كما أنها مستثناة من نظام السنن الكونية، فلا تعود معها النار محرقة إن أراد الله: (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ) (الأنبياء: ٦٩)، ولا الكثرة مزعزعة حتماً ثبات القلة: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ) (الأنفال: ٦٥).

إن هذه السنن الإلهية التي تنظم فعلك الاختياري تتميز بشدة حيويتها، وتغيرها المستمر من حيث تأثيرها في تشكيل قدرك القادم، بحيث إنها تغير مسار هذا التقدير مع تغير توجهك الإرادي، فلو أنك بذلت (الجهد) لتكون كما يحب ربك فإن السنن ماضية بهدايتك دلالة وتوفيقاً إلى محابه بلا نهاية: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) (العنكبوت: ٦٩)، لتزداد هدى على هدى: (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً) (مريم: ٧٦)، ولو أنك انحرفت عن ما يحبه لك من مسار، لحكمت عليك هذه السنن بانحراف أكثر يتناسب ودرجة انحراف توجهك الإرادي ونيتك: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) (الصف: ٥)، **وهذا أمر عجيب، شديد التغير، بحسب كل فعل واختيار يصدر منك، بل كل خاطرة صغيرة أو كبيرة تجول في**

فكرك وتسري في كيان شعورك، فيتشكل بها قدرك القادم، ويعمل على (تشكيلك) أنت نفسك، من خلال تدبيرات سنن إلهية حاكمة، تدفع بك بالاتجاه الذي اخترته أنت ابتداءاً، وتتغير وتغيرك بحسب ما يحدث فيك من تغيير وتجديد في توجهك الإرادي الاختياري: **(إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)** (الرعد: ١١)، ومع كل تغيير منك تقضي السنن بـــ(قدر) لله يغير ما فيك، ومن ثَمَّ فهي سنن (عادلة)، تجعل **نصيبك القادم في كل فعل ثمرة لفعلك الحالي: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)** (الشورى: ٣٠)، وإن نصيبك (أو طائرك) من الخير والشر في أي قدر في العمر (معك)، يتغير مع تغير توجهك الإرادي: **(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ)** (يس: ١٩)، وإن كل أمر –خيراً كان أم شراً– منـــته بصاحبه إلى غاية يستقر عليها في الخير والشر، بحسب ما كان توجهه الإرادي ونيته في أول ذلك الأمر: (وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ) (القمر: ٣).

وفي سياق هذين النوعين من السنن، يُفهم أنه لا يكون في الوجود شيء إلا بإذن الله –بدلالة السنن الإلهية الكونية العامة– كما في قوله تعالى: **(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)** (التكوير: ٢٩)، وقوله: **(قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)** (النساء: ٧٨)[٣٣]، فيما العبد –بدلالة السنن الإلهية الخاصة بالفعل الانساني– حر في

---

[٣٣] بل إن اثنتين من أهم القضايا في الحياة الانسانية وهما الممثلتان باتخاذ القرار الخاص بالحقيقة التي يؤسس عليها الفعل في العمر: (الإيمان أو الكفر)، ثم حقيقة (الموت) الحتمي القادم من حيث كونه قد يبدو ظاهراً كـــ(خيار) يمكن اتخاذه بالانتحار –مثلاً– لإنهاء العمر، هاتان القضيتان المتعلقتان بقرار منهج قضاء العمر وموقف إنهاء العمر لا تكونان الا بإذن الله الكوني العام: **(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)** (يونس: ١٠٠)، **(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)** (آل عمران: ١٤٥).

نطاق ظرفه الذي خلقه الله فيه زماناً ومكاناً، كما في قوله تعالى: (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) (التكوير: ٢٨)، وقوله: (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) (النساء: ٧٩).

- **الايــمان بالقــدر: نظــام التوحيــد:**

إن نصيباً مهماً من فقه القضاء والقدر مداره على فهم الفرق النسبي بين طبيعة وجود (خالق الزمان والمكان) –وهو خارج عن الزمان والمكان المخلوقين- وبين وجود المخلوق (المظروف) في الزمان والمكان، فالزمان الذي هو مسرح لأفعال العباد –كالمكان والمادة- مخلوق، وهو نسبي -كما برهنت عليه قوانين علوم الفيزياء الحديثة-، وكما يشير إليه القرآن في قوله تعالى: (**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**) (السجدة: ٥)، وقوله: (**تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**) (المعارج: ٤)، وفي هذا السياق يفهم الفرق بين طبيعة فعل الله وفعل العبد، فالله تعالى **يقدر الأمور** –من خارج نطاق الزمان الذي خلقه-، ويقضيها **بالاسباب** التي جعلها معلقة بها –داخل ظرف الزمان-: **من أفعال العباد** مما خولهم من سلطان في موضع استخلافهم، **ومن غير أفعالهم** في تصريفه وتدبيره لشؤون مخلوقاته[34]، والعباد –وهم مظروفون في الزمان المخلوق- فاعلون حقيقة، والله –خارج هذا الظرف- خالقهم وخالق الذي يعملونه: (**قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ* وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**) (الصافات: ٩٦)[35]، ولله تعالى في هذا شأن عظيم: (**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**) (الزمر: ٦٧)، تعالى عن أن يحيط به مخلوق مثلي ومثلك يظرفه ويحتويه الزمن المخلوق: (**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**) (الأنبياء: ٢٣)، وإنما يكفيك من العلم به ما ينفعك لترقى في المراتب التي يحبها لك

---

[34] انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٧/١٠.

[35] وانظر مجموع الفتاوى: ١٢١/٨، قوله: (ماتعملون: أي والله خلقكم وخلق الاصنام التي تنحتونها، ومنه حديث حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله خالق كل صانع وصنعته)، ويستدل بالآية على أن الله خلق أفعال العباد).

ويرضاها، ولذلك فاعلم أن نظام تدبير حياتك وتقديرها لا يعني تسييراً لك ولا تخييراً، وإنما هو (تيسير) الله لمخلوقه الحر الإرادة وليس تسييره ولا تخييره: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) (الليل: ١٠)[٣٦]، وغاية هذا النظام تحقيق نوع من علاقة العبودية متفرد لا يكون إلا بين الله العظيم وبين مخلوقه الحر الإرادة المتفرد، يصل بالعبد إلى التحقق بكل حب وبكل ذل لربه الذي أوجده من ظلمة العدم، في كل ما يفعله، وهو موقن بأن حتى أكمل عبوديته ما كانت لتكون إلا إن عَبَّدَه الله له!، وهذه هي حقيقة قولك: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة: ٥)، حين تتوجه بغاية عبوديتك حباً له وذلاً إليه، وأنت تقول: (**أنا عبد ذليل إليك ربي، فأعني لأكون عبداً ذليلاً، لأنه حتى ذلي إليك، لن يكون إلا إن ذللتني!**)، وهذه غاية من غايات الذل العجيب والتبرؤ من الحول والقوة الذاتية لا تكون إلا بين عبد حق وبين الإله الحق، ولا يمكن توجيهها إلى أي معبود سوى الله، ولا تتوجه أبداً إلى الأوثان أو إلى من دون الله من الأولياء، أو إلى أهواء النفس، وإنما يصنعها في نفسك **الإيمان بالقدر، مما يجعل هذا الإيمان** (**نظاماً للتوحيد**)، يجعلك في موضعك الوحيد العادل في

---

[٣٦] قال ابن تيمية رحمه الله: (فانه سبحانه يعلم الأمور على ما هي عليه وكذلك يكتبها، فهو يعلم أن السعيد يسعد بالأعمال الصالحة والشقي يشقى بالأعمال السيئة، **فمن كان سعيداً ييسر للأعمال الصالحة التى تقتضي السعادة، ومن كان شقياً ييسر للأعمال السيئة التى تقضي الشقاوة**، وكلاهما **ميسر** لما خلق له، وهو ما يصير اليه من مشيئـــة الله العامة الكونية التي ذكرها الله سبحانه فى كتابه فى قوله تعالـــى : (وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُم) (هود: ١١٩)، وأما ما خلقوا له من محبة الله ورضاه وهو إرادته الدينية التى أمروا بموجبها فذلك مذكور فى قوله: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات: ٥٦))، مجموع الفتاوى: ٢٤/١٠.

الوجود من حيث علاقتك بربك، ومعه تستحق استخلافك في الدنيا اليوم، ثم في وجودك القادم غداً، في درجة تتناسب وقدر ما تحقق في قلبك من الإيمان وفي عملك من إخلاص التوحيد وفق هذا النظام.

- **ربـــك يربـــيك بقـــدره:**

وإنما (يربيك) ربك ويتدرج بالزيادة في تربيتك: بقدره، فـ(ما من نَفَسٍ تبديه: إلا وله فيك قدر يمضيه[37])، فهو يتدرج بك -بعد خلقك- ليوصلك إلى كمالك الممكن بتدبيره وقضائه، فيربو قربك وتتيسر أسبابه كلما بذلت وسعك و(جاهدت) لتكون **مخلصاً مصلحاً عادلاً** كما يحب: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) (الليل: ٧)، وبهذا التقدير بالتيسير لزيادة القرب يكون القدر الذي يقدره لك: نظاماً للتدبير الإلهي الخاص بتربيتك، لن يسألك ربك فيه عما لا تستطيع فعله: (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا) (البقرة: ٢٨٦)، إذ لا تكليف إلا بمقدور، ولكنك (**مكلف بما تعلم**) من الحق، وعلى قدر عملك بما تعلم: ترقى في الدرجات بين: (النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ) (النساء: ٦٩)، فإن كنت ممن: (اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (التوبة: ١٠٢)، فأنت من عموم الصالحين، وإن كنت ممن أحب الموت في سبيل الله فأنت من الشهداء، وإن كنت ممن (**يحيا**) **في سبيل الله، -بمعنى أن تعمل بكل ما تعلم من الحق- فأنت من** (**الصديقين**)، وأما النبوة فهي اصطفاء لا يملك المخلوق الوصول إليه إلا باختيار خالقه: (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (القصص: ٦٨)، وبين كل فريق وفريق، بل ضمن كل

---

[37] الحكم العطائية: الحكمة ٢٢.

فريق درجات ودرجات، حتى بين الرسل: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) (البقرة: ٢٥٣).

وإن من خصائص هذا النظام البديع أنه يسمح لك (بطلب) تغيير قدرك وتشكيله، وذلك بأن تسأل ربك الذي يربيك بقدره أن يغير ذلك القدر بـــ(**الدعاء**): (فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) (البقرة: ١٨٦)، بل جعل هذا الدعاء من أخص أركان عبوديتك له وحده: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) (غافر: ٦٠)، وجعل مجرد حصول الدعاء منك علامة على حصول مرادك من تغيير وإعادة تشكيل قدرك الذي يربيك به ربك، فـــ(متى أطلق لسانك بالطلب، فاعلم: أنه يريد أن يعطيك[٣٨])، لأن هذا الدعاء نفسه من تربية ربك لك، إذ إنك حين تدعوه لتغيير قدرك، فكأنما يصطرع دعاء هو من قدر الله، بقدر قدره الله لك، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يُغني حذرٌ من قدر، والدعاء ينفع مِمَّا نزل ومِمَّا لم ينـــزل، وإنَّ البلاء لينـــزل فيلقاه الدعاء، فيعتلجان -أي: يصطرعان- إلى يوم القيامة[٣٩])، وهذه الخصيصة تجعل هذا النظام من أرقى مناهج التربية مطلقاً، إذ يسمح بتدخلك بمنهج نظام تربيتك الذي يربيك به (مربيك)، ولكن بحدود هو يعلمها، فـــ(لا يكن تأخر أمد العطاء مع الالحاح في الدعاء موجبا ليأسك؛ فهو ضمن لك الاجابة فيما يختاره لك، لا فيما تختار لنفسك، وفي الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد[٤٠])، لأنه الأعلم مطلقاً بما يصلحك وبما يصلح لك.

---

[٣٨] الحكم العطائية: الحكمة: ١٠٢.

[٣٩] رواه الحاكم في مستدركه بسندٍ صحيحٍ من حديث عائشة رضي الله عنها.

[٤٠] الحكم العطائية، الحكمة: ٦.

وأنت تواجه الأقدار: إعلم أن الله قد أودع فيك **فطرة معرفته وتوحيده** وهو محاسبك عليها: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) (الأعراف: ١٧٢)، وعلى طريق تعريفك به يقدر عليك مدة العمر –بتدبير لطيف رحيم- الخير والشر، واللذة والألم: (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) (الأنبياء: ٣٥))، ((حيث إنه في كل تدبير منه لشأنك: سعي بك إليه **وإلى معرفته**، فهو (متى أعطاك: أشهدك بره، ومتى منعك: أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك ومقبل بوجود لطفه عليك)، وقصة عمرك السابق –حتى هذه اللحظة- تحكي حسن تدبيره واختياره لك، فحين يبتليك بالشر (وليخفف ألم البلاء عنك، علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك، فالذي واجهتك منه الأقدار: هو الذي عودك حسن الاختيار)، وهو الأعلم بما يصلحك وما يصلح لك من العطاء، فـــ(ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك)، وإنه (من تمام النعمة عليك: أن يعطيك ما يكفيك ، ويمنعك ما يطغيك)، و(إنما يؤلمك المنع؛ لعدم فهمك عن الله فيه)، وربما يأتيك وقت تعلم فيه أن ربك قد صرف عنك –إذ منعك- بلطفه ما لم تكن تعلمه، و(متى فتح باب الفهم في المنع: عاد المنع عين العطاء)، حيث تشهد تربية ربك لك في كل نفس تبديه[٤١]))، ويكون فهم بعض تقديره سبيلك للتعرف عليه.

[٤١] فقه الهجرة إلى الله: ص٢٠.

-فصل مختصـــر في التعريف بالخيـــر والشـــر-

- **الخيــر والشــر:**

إن الكون كله وكل أمر كائن أو حادث فيه إنما هو كائن وقائم بمدد الله له، لأن (ما لا يكون بالله: لايكون!)، و(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) (الحج: ٦)، وأنه تعالى قد: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) (التغابن: ٣)، وخلق معهما ما هو خير أو شر بالنسبة لنا من المخلوقات، فعرفنا **الخير**: **بأنه اللذة وما يكون سبباً للذة**، **والشر**: **بأنه الألم وما يكون سبباً للألم**، وبهما ندرج في طريق الابتلاء: (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) (الأنبياء: ٣٥)، وأرسل المرسلين وأنزل كلماته التي تحدثنا عن الحق وطريق الخير: (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) (الإسراء: ١٠٥)، وتحدث عن ما خلق مما يشاء من درجات النور والظلمات: (وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) (الأنعام: ١)، فكان الايمان درجات، والكفر دركات، وكذا النفاق والشرك دركات ودركات، وكل ساعة من العمر هي فرصة لعمل يحبه الله للارتقاء بالخير في الجنة بالدرجات، أو ستكون غصة بالانكفاء في النار والشر في الدركات بعمل ما لا يحبه الله[٤٢].

إن الحق في الوجود مطلق وأصيل، ونقيضه من الباطل طارئ ودخيل: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) (الأنبياء: ١٨)، ولا يمكن عدَّ النور والظلام متوازنين أو يملك كل منهما (كفة)،

---

[٤٢] إن المغبون يوم التغابن -(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ) (التغابن: ٩)-: هو كل من من فاتته درجة أعلى، أو نزل دركاً أسفل، فتأمل رحمك الله مكانك من الغبن وأنت تطالع المفاضلة حتى بين رسل الله!: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) (البقرة: ٢٥٣).

مهما بلغ تناقضهما، لأن النور وحده هو الحق الأصيل الثابت، ودرجات الظلام النسبية طارئة زائلة، ومن ثَمَّ فإن الحب والطيب والخير واللذة والصلاح والعدل هم الأصل الباقي، والبغض والخبث والشر والألم والفساد والظلم كله طارئ زائل: **(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ)** (الرعد: ١٧).

ولقد علمت أن من أخص ما خصك ربك به من **قدرات** بعد خلقك: قدرتك على أن (تعلم)، وقدرتك على أن (تختار) وتعمل، ولكي يمكن لك أن تتعرف على وجود هذه الهبة الثانية العظيمة فيك، كان لابد من أن يتوافر أكثر من خيار في وعيك ليتضح وجود هذه الملكة، لأن الإرادة هي: (إمكان الاختيار بين أمرين فأكثر)، وإن لم يتوافر في وعيك سوى خيار واحد ما تعرفت على ما وهبك الله، ومن ثَمَّ فإن **بعض حكمة**[٤٣] **وجود الباطل أو الشر ومناقضته الظاهرة للحق أو الخير تتمثل بكونه ضرورياً لوعي أنفسنا ووعي حقيقة ملكة الاختيار** التي فضلنا بها الله على كثير من خلقه، **ثم إن وجوده ضروري –بعد ممارسة الاختيار والعمل في الحياة– لـــ(إعادة الوعي) عند النسيان والغفلة،** حين ندرج في مسالك الحياة، ونفرح بالنعمة وننسى المنعم: **(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)** (سورة يونس: ٢٢)، فيأتي الألم والشر ليوقظنا، وليرد الغاوي الظالم، ويذكر الضال التائه، فالألم: (حاجز

---

[٤٣] وراء كل شر حكمة بالغة، علمها من علمها وجهلها من جهلها، وفي قصة موسى مع الرجل الصالح في السورة التي يذكر فيها الكهف خير إشارة ودليل على ما يخفى من الحكم الباطنة عن النظر القاصر المتعامل مع ظاهر الأمور.

الإدراك)، وبعمقه وسكونه يعطي الفرصة لعودة الوعي إلى العلم بقدر النفس وطبيعة التحدي وما فرطنا في جنب الله العظيم.

لقد فطر الله الحق الناس على حب الحق: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (الروم: ٣٠)، و(إن أصل الفطرة التي فُطِر الناس عليها – إذا سلمت من الفساد–: [أنها] إذا رأت الحق اتبعته وأحبته، ...، ومن المعلوم أن الله خلق في النفوس محبة العلم دون الجهل، ومحبة الصدق دون الكذب، ومحبة النافع دون الضار، وحيث دخل ضد ذلك فلمعارض من هوى وكبر وحسد ونحو ذلك)[٤٤]، وهذا المعارض طاريء كالمرض الذي يعتري الجسد فلا تستقيم معه شهوة ما ينفعه، ومتى شفي من مرضه عاد ليحب ما يصلح له من الحق والخير والصلاح، فالشرور والآلام هي من الفساد الذي لا يحبه الله، وبغضها ومحاربتها هما الدليل على العبودية لله الذي يريد من عباده الذين وهبهم حرية الاختيار: تحقيق الخير والإصلاح، فحرَّم عليهم الظلم والفساد، وحبب إليهم وأمرهم بما فيه أكمل أحوالهم مما يجعلهم جديرين بنعمة الوجود، فأبغضوا –**بفطرهم**– فعل الشر والقسوة والظلم وفاعله؛ بما يعنيه من خروج وتمرد وتشيطن على مراد خالق الوجود، استحق به الرجم والطرد من رحمته.

وبهذه القدرات وهذه الفطرة كان أمراً حتماً لازماً عليك وأنت تدرج في مسالك الحياة؛ أن تلتقي الألم واللذة في منعطفاتها: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (الأنبياء: ٣٥)، وهذا الشر والألم الذي ستلاقيه صغير لا يقاس بما أغدق الله عليك من نعم وخير، إذ هو ابتلاء (**بشيء**) قليل من بين الكثير مما أنعم به عليك: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ

---

[٤٤] مجموع الفتاوى: ١٥/ ٢٤١.

وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) (البقرة: ١٥٥)، وإنما هو تذكرة للكل مؤمنين وكافرين، فهو حين يُقَدَّر على **المؤمن** فإنه يكون إما **كفارة** له عن ذنب سبق: (وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) (النساء: ٧٩)[٤٥]، أو **تربية** له بالصبر –وهو حبس النفس على الرضا بمراد الله– ليرتفع في الدرجات: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ) (الأحقاف: ٣٥)، كما يكون الألم في حق **جاحد الحق إما تذكرة** له لعله يعود إلى رشده: (وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الزخرف: ٤٨)، أو **عقوبة ماحقة** ترفع شره عن الأرض، بحسب ما يقدره الله عليه: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ) (ق: ٣٦).

- **مدافعـــة الشـــر**

يقتضي نظام الحركة الحضارية وسننه أن **يتدافع** الخلق **المختلفون** بما يستطيعون، (**لتدول**) الدنيا لهم ولمصالحهم –كما تم بيانه في الفصل الأول–، وفق مقاييسهم للخير، فهم يتفاوتون في معرفتهم بالخير، وإرادتهم له، ويختلفون في درجات ما هم عليه من الخير، فليس من احترف الإفساد كمن كان مصلحاً، وليس الهندوسي كالنصراني أو كاليهودي، وليسوا جميعاً كالمسلم: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) (البقرة: ١٤٣)، ومع دوام مدافعة كل طرف: تكون مداولة الأيام: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) (آل عمران: ١٤٠)، والكل خلق الله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ

---

[٤٥] المؤمن يؤمنه ربه، ولكن يناله من الخوف وينقص من أمنه بقدر نقص إيمانه: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (الأنعام: ٨٢).

وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: ١٣).

وإنك إن أكرمك الرحمن وأشرق على قلبك بعض نور القرآن، وصرت من أهل العلو بالحق: (وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (عمران: ١٣٩)، فإن حق الخلق عليك أن تنظر إليهم بعين الرحمة: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: ١٠٧)، مع كونك الأشد مدافعة للشر وتحصيلاً للخير على درجاته، **لكي تدول الأيام للحق**، بما قضى الله من سنن، وهذا هو مسمى (**الجهاد**)، الذي يعني: **بذل الوسع** للكون على ما يرضي الله، **بتغيير** ما في النفس وما سواها في الآفاق من الناس والجمادات، من كل حال لا يحبه الله، إلى **كل ما يحبه الله من حال، وهو سبيلك إلى الله:** (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) (العنكبوت: ٦٩).

وإذا كان التغيير علامة الحياة، فإن الجهاد -بذل الوسع في سبيل التغيير- هو علامة حياة الفرد وعلامة حياة الأمة، وبه يكون الواجب تجاه كل ظلم أو فساد أو فوضى في الأرض: مكابدته بما أوتيت وإفناء النفس في تحصيل مراد الله، -وهو التوحيد الحق[٤٦]-، وكل بذل في هذا السبيل بذكر أو فكر أو فعل إصلاح أو دفع لفساد: هو (**تزكية**) ونماء للنفس ترتقي به في طريقها الى الله: و(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) (الشمس: ٩)، وعلى قدر هذا البذل والتزكية يزداد الاطمئنان بالتصديق بالحق: (فَزَادَهُمْ إِيمَاناً) (آل عمران: ١٧٣)، أو ينقص بالانحراف عن الحق: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) (الصف: ٥)، **والإيمان** -بهذا المفهوم-: (مقياس الاستعداد للقاء الله)، ويرفع درجته في نفسك الاستقامة على إرادة بذل الوسع في طاعة الله وتحقيق مراده، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، وتجنب معصيته، بعد

---

[٤٦] وليس التوحيد فناءاً في ذات الله، كذلك الذي يدعو إليه كهنة الهندوس وأشباههم.

الاقرار بأن الله تعالى هو رب خالق وإله حاكم: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) (الأعراف: ٥٤).

إن الأصل في إرادة التغيير: (البناء وليس الهدم)، فالخير هو الأصل والشر استثناء، والبر هو الأصل والعداوة استثناء: (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (الممتحنة: ٨)، والسلم هو الأصل والحرب استثناء، فالقتال وجه من وجوه السياسة وليس العكس، والأصل في الناس الخيرية، وإنما هم درجات في معرفتهم بالخير الأعظم، وفي إرادتهم لتحصيل الخير:

وإن الجهاد ومدافعة الشر: مدافعة على درجات متباينة من الخير في كل ميدان، لا تستثني أي فعل خير صغيراً كان أم كبيراً، بين احترام لإشارة مرور، أو رفع لقمامة أو أذى من الأرض، أو ابتسامة في الوجه، أو اتقان وتفوق في عمل، أو رص لفوضى، أو صناعة لجمال، أو اختراع لوسيلة تسهل بها شؤون الحياة، أو رفع لظلم أو إقامة لعدل بين الناس، أو مقاتلة لتكون كلمة الله هي العليا.

وهكذا تتنوع مواطن التغيير، ومعها تتنوع أساليب مدافعة الشر ومراتبها: وأولها مدافعة ضعف النفس وبذل الوسع لحملها على تعلم **العلم** بأنواعه لمعرفة مقامها الخاص، **والعمل** به، **والدعوة** إلى أعظم الخير **والصبر** على مشقته: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (العصر: ٣)، ثم مدافعة شر الشيطان ومكابدة ما يثيره من (شبهات) تعطل ملكة العلم، أو (شهوات) تعطل العمل بالحق، وهما طريقاه لإفساد الناس، ومعهما

تتنوع أساليب تغيير الشر بالسيف والسنان أو بالحجة والبرهان: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحديد: ٢٥)، وذلك كله إنما يكون بحسب المستطاع باليد أو باللسان أو بالقلب، دعوة للخير وإقامة للاصلاح ودفعاً للفساد: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (آل عمران: ١٠٤).

وتنهض أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأعباء دعوة الأمم جميعاً – بالحجة والبرهان – إلى الحق الذي به قام الوجود: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (النحل: ١٢٥)، ومعه تقوم بها مسؤولية صناعة الأنموذج الانساني الأرقى حياة ومماتاً ونشوراً، ومع إقامة الحجة لله على الناس؛ تنهض الأمة بأعباء الدفاع عن هذا الحق وأهله وإعداد القوة للقتال (دفعاً للظلم) أو (رفعاً للظلم)، وقد مَثَّلَ الله أطوار وجود هذه الأمة من حيث نمو قدراتها على هذه المواجهة –كما حصل في جيلها الأول– في قوله تعالى: (وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) (الفتح: ٢٩)، **ويحدد هذا المثل أربعة أطوار لنمو الأمة وتكليفها الرباني**، وتقلبها عبر التاريخ في قدرتها على هذه المواجهة:

الطور الأول: (أَخْرَجَ شَطْأَهُ): وهي مرحلة الضعف التي تمر بها الأمة أول نشأتها أو بعد دوران دورة التاريخ ومداولة الأيام بين الناس: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ **نُدَاوِلُهَا** بَيْنَ النَّاسِ) (آل عمران: ١٤٠)، قبل تكوين الكيان السياسي والاقتصادي المستقل، والحال فيها: (**النهي عن القتال**)، وتثبيت الدين والدعوة إليه، يبينه قول الله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ

كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً) (النساء: ٧٧).

الطور الثاني: (فَآزَرَهُ): وهي مرحلة ما بعد تكوين الكيان السياسي مع وجود خوف **الاستئصال**، والحال فيها (**الإذن بالقتال** عند وقوع الظلم)، يبينه قول الله: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) (الحج: ٣٩).

الطور الثالث: (فَاسْتَغْلَظَ): وهي مرحلة ما بعد تكوين الكيان السياسي وتوفر التوازن النوعي في القوى مع الشر الذي تتم مدافعته، والحال فيها: (الأمر بمقاتلة من بدأ بالقتال، ووجوب القتال **لدفع الظلم**): (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (البقرة: ١٩٠).

الطور الرابع: (فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ): وهي مرحلة ما بعد التفوق في ميزان القوة مع الشر، والحال فيها: (القتال **لرفع الظلم وإقامة العدل**): (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (الأنفال: ٣٩)، وهو قتال في سبيل الله لرفع كل ظلم لا يحبه الله: (وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً) (النساء: ٧٥).

إن الواجب على كل فرد؛ وعلى أهل الشأن في كل جماعة صغيرة أو مجتمع كبير من جسم هذه الأمة فقه الظرف الدقيق المحيط بهم، ومعرفة الحجم الصحيح لميزان القوة والمفاسد والمصالح المترتبة على نوع المواجهة الذي من خلاله يتم تحديد الطور الصحيح الذي يصف حال ذلك المجتمع أو تلك الجماعة –أو ذلك الفرد–، وبالتالي فقه التكليف الرباني الذي يمثل **واجب الوقت الصحيح عليهم عند مدافعة الشر**، **دون التكليف بما لا يطاق** ودفع تضحيات غير مبررة قد تودي إلى الاستئصال وزوال حملة الحق، **ودون التقصير والنكول** عن حمل الأمانة والتضحية بما استخلفها

الله فيه في سبيل تحقيق ما يحبه منها الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (التوبة: ١١١).

إعلم أن الشر كما أنه طارئ ودخيل فإنه (ضعيف)، مهما انتفش وتعاظم في الظاهر، لأن الشيطان المتمرد وأولياءه ضعفاء، وشرهم ضعيف: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ (النساء: ٧٦)، والحق بأصالته قوي عزيز، قادر على إلغاء الباطل ومصادرته: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء: ١٨)، ذلك أن الله هو الحق: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١)، فلا يخوفنك ما تراه من الفساد مهما بلغ: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٥)، و﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ﴾ (آل عمران: ١٩٦)، فإنما هو لهم استدراج مؤقت: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ (القلم: ٤٤)، **وشد العزم لتغيير كل قبح وظلم وفوضى، وجاهد لبث الجمال والعدل والنظام، وشمر اليدين (للحيــاة في سبيــل الله).**

الفصل الرابع

-فقـــه المقـــام-

(موقعك الخـــاص في الوجـــود)

- **إختـــر مكانـــك:**

إن (فقه المقام) يعني: الفهم الدقيق للموضع الذي خلق لك وخلقت له في الوجود، وإن أرقى مناهج التربية هي تلك التي تعلمك استكشاف خواص نفسك لتعرف مقامك حيث تكون (أنت) كما أنت.

لقد عرفت أن مقصود فرصة الحياة الوصول بالانسان إلى أقصى كماله الممكن قبل نهايتها، من خلال سلسلة لا تنتهي من المعارف الممكنة له، ثم من الخيارات التي عليه أن يعيد من خلالها تشكيل نفسه وتشكيل الدنيا، واستغلال قوى الأرض والسماء وطاقات النفس الإنسانية وقدراتها: لإصلاح الكون بما يستطيع، ورفع الظلم وإقامة العدل، وإزالة الفوضى وإقامة النظام، وإكمال النقص وصناعة الجمال، إلى غيرها من مقاصد الإصلاح، مع التمتع بما أودع الله تعالى من خيرات وجمال في الأشياء تكرس وعيك بالفقر إلى الله وإرادتك لتحقيق الانتساب إليه، وهو مقصود **عبادة الله،** من خلال أن يكون المخلوق في الموضع الذي يحب خالقه أن يكون فيه: **(وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ)** (الصافات: ١٦٤)، وبذل الجهد ليكون جديراً بنعمة إيجاده بعد أن لم يكن شيئا مذكوراً.

إن (**فقه المقام**) يعني: **الفهم الدقيق للموضع الذي خُلِق لك وخُلِقت له في الوجود،** كما يعرفه عن نفسه كل موجود؛ فبينما يسبح كل شيء في **عالم الشهود** رب الوجود العظيم: **(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)** (الإسراء: ٤٤)، فإن لكل

شيء أو طائر أو شجرة أو نجم أو ذرة **صلاته الخاصة وتسبيحه الخاص** الذي يتناسب **ومقامه الخاص** في هذا الوجود: **(كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ)** (النور: ٤١)، وكذلك في **عالم الغيب** حيث لا يعلم أحد إلا الله عدد ما خلقه الله من جنوده من الملائكة: **(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)** (المدثر: ٣١)، وإن كل واحد منهم يسبح ربه: **(يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ)** (الأنبياء: ٢٠)، **ويعرف مكانه الخاص** الذي خلقه له ربه: **(وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ)** (الصافات: ١٦٤)، ثم إن كل واحد من بني آدم مجبول على نوع خاص من الأداء ومهيأ لنوع فعل خاص ولمسة خاصة: **(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)** (الإسراء: ٨٤)، وله وجهته الخاصة كغيره من مخلوقات الوجود: **(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)** (البقرة: ١٤٨)، وله –من ثم- مقام خاص خلق له، وعلى قدر إتمام الوفاء بعهد الله تكون درجته الخاصة من بعد: **(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)** (الأحقاف: ١٩).

إن كل واحد منا تجربة **فريدة** وجديدة تماماً على مسرح الوجود، حيث إنك قد خلقت ضمن **مكان** ذي أنواع لا حصر لها، **وزمان** معين بخصائصه، وفي ظل هذه الأركان يمكنك أن تختار (**مقامك**)، أو سلسلة علاقاتك بما حولك وطبيعتها، وتكون مسؤولاً عن ما ستحدثه فيه باختيارك، من حيث نوع التغيير وقدره، بما أودع الله فيك من قدرات كامنة ضخمة، تؤهلك لإحداث تغييرات لا يحدها حد، محورها أن تكون كما يحبك خالقك أن تكون، عبداً مخلصاً له في إتقان كل ما (تعمله وتغيره وتتغير معه)، متحرياً ما أباحه لك –دون ما حرمه عليك- في كل ما خلقه لك

لـــ(تتمتع) به، ولتكون عبداً له في كل حالك، ترجو مقاماً عالياً في وجودك القادم[47].

وإن أرقى مناهج التربية هي تلك التي **تعلمك** استكشاف خواص نفسك لتعرف مقامك حيث تكون (أنت) كما أنت، حتى تضع قدراتك **العملية** حيث خلقت لتكون، ثم ليقودك نظام تدبير أقدارك لاحقاً إلى درجات ترتقي بهيئة وجودك وبنوع لمستك، ومن بعدها في علاقتك بعبوديتك لربك، واجتهادك لتكون كما يريدك أن تكون، وهذا هو الفقه الذي يتحدث عنه العارفون بقولهم: (كن حيث أقامك المولى)، حيث واجبك (العيني) الخاص بك[48]، الذي هو بحقك لا يقل أهمية عن شعائر عبادتك صلاة وصياماً، لأنك حملت فيه المسؤولية عن الأمة كلها، فلا تقل جدارة جامع القمامة المتقن لعمله في موضعه، عن جدارة الباحث المتعمق، عن جدارة الفقيه الصادق، أو جدارة الأم التي تتقن طبخ وجبة الاسرة، أو جدارة الفنان الذي

---

[47]وهذا هو جوهر الخلاف مع الحضارة المادية، التي تجعل (العمل) و(المتعة) محورين للحياة بذاتهما، بعد إعلان (موت) الإله وغيابه عن الوعي والتأثير في الحس الانساني، حتى غدا المغزى الكلي للحياة وللحضارة الانسانية: مجرد بذل أقصى الجهد في (العمل)، لتحقيق أعلى كسب من القوة المادية بأقل زمن ممكن، يتمكن بها من توفير أقصى قدر ممكن من (المتعة) في فرصة العمر، ثم مغادرة المكان عند الموت كما يغادرها أي عفن حيوي، أو معدن متآكل يصدأ حتى يتلاشى.

[48] الواجب الكفائي هو الذي إذا قام به واحد من الأمة يسقط عن الباقين، وإن لم يقم به أحد أثمت الأمة جميعاً، مثل حاجة الأمة إلى طبيب، فإن أدى الطب واحد منها سقط عن من سواها، وإلا أثمت كل الأمة إن فشلت في تكليف طبيب يكفيها هذا الواجب، ثم إن هذا الواجب يغدو (عينياً) بحق المكلف المعين عند الشروع بأدائه والاستعداد له، كمن درس الطب وتخرج ليكون طبيباً، فيكون تطبيب الناس بحقه فرضاً كسائر عباداته العينية كالصلاة والصيام، يؤثم بالتقصير فيه أو بعدم أدائه بحقه.

يودع لمسة جمال تنتعش بها الأرواح، أو الرياضي الذي يتنافس بشرف للتفوق وتحقيق مستويات إنجاز إنسانية أعلى ترقى بها الأجسام، أو المستكشف الذي يتحدى الصعاب ليبلغ حيث لم يصل إنسان قبله، وهو يبحر في أنحاء الأرض أو دقائق أسرار الخلق أو آفاق الكون الفسيح الذي استخلفه فيها ربه، وسخرها له جميعاً: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الجاثية: ١٣)، كل في مقامه الذي يسره إليه ربه، لأن لكل قدره الخاص عند ربه، وهذا المقام يمثل الموضع الخاص الذي استخلفه ربه فيه: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[٤٩]، واستودعه إياه أمانة، يخرج من الإيمان من ضيعها: (لا إيمان لمن لا أمانة له)[٥٠]، وجعل تضييعها بإسنادها إلى غير أهلها علامة على انتهاء غاية الوجود الانساني في الأرض، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة)، قيل: كيف إضاعتها يا رسول الله؟، قال: (إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)[٥١]، وإن السعادة الحقة هي في أن تكون على ما يرضاه الله في علاقاتك مع الله والخلق والأشياء، أو في أن تكون في مكانك الذي خلقت له مع اتخاذ عمل تعلمه و(تحبه)، فالسعادة تأتي من تحقق الانسجام بينك وبين المكان، اذ أن لكل واحد تكليفاً ومقاماً، و(كُلٌّ ميسر لما خلق له)، و(كُلٌّ مكلف بما يعلم)، و(لا تكليف لإنسان إلا بمقدور)، والكل مكرم عند ربه: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) (الإسراء: ٧٠)، وكل مجازى بعمله: (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى* ثُمَّ يُجْزَاهُ

---

[٤٩] رواه البخاري وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم.

[٥٠] رواه الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم.

[٥١] رواه البخاري وغيره.

الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) (النجم: ٤١)، وكل نعمة في العلم أو السلطان أو المال أو العافية أو غيرها: **مسؤولية!**: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) (التكاثر: ٨)، والجزاء نسبي: (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) (الأنعام: ١٣٢).

• الحيـــاة فرصـــة في كل لحظـــة منها

يمكن للحظة واحدة من عمرك تكون فيها في أكمل ما يحبه الله منك في تلك اللحظة بالذات؛ أن تختصر كل العمر، في (**كلمة**): كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن أحدكم ليتكلم **بالكلمة** من رضوان الله -ما يظن أن تبلغ ما بلغت- فيكتب الله له بها **رضوانه إلى يوم يلقاه**، وإن أحدكم ليتكلم **بالكلمة** من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها **سخطه إلى يوم يلقاه**)[٥٢]، أو في (**موقف**): كما كان موقف يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز إذ قالت: (هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ) (يوسف: ٢٣)، فاستعصم في لحظة عن المعصية مع توافر أقصى دواعي الفتنة، واختصر ذلك الموقف في تلك اللحظة عمراً كاملاً، أو كما حكى النبي صلى الله عليه وسلم —في أحاديث مختلفة- عن بغي من بني إسرائيل دخلت الجنة بلحظة رحمة بكلب عطشان في يوم قائظ فسقته، أو عن رجل -نكرة لم يُعرِّفه- قام قومة واحدة عند سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله، فبلغ ذلك الرجل منزلة حمزة سيد الشهداء -رضي الله عنه- بموقف واحد!، أو لرجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه فكان في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله، أو لرجل قال لا إله الا الله صادقاً من قلبه مرة واحدة فدخل الجنة!.

وتأمل قول الله تعالى لعبده ونبيه صلى الله عليه وسلم: (**طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**) (طه: ٢)، إذ أشقاه ما كان من قومه من صد عن الحق وتكذيب، فقص عليه ربه ما كان من تدبير ولطف في رعاية عبده موسى وإعداده لساعة القمة في أدائه لواجب وقته مع الله: (**وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى**) (طه: ٩)،

---

[٥٢] رواه الترمذي، ورواه البخاري بلفظ آخر.

بعد أن جاءِ به على قدر إلى الوادي المقدس وكلمه وأبلغه اختياره له: (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى) (طه: ١٣)[٥٣]، وهو موقف عظيم مهول للعبد الصغير وهو يكلمه الله العظيم، فلطف به ربه وسأله عن شأن صغير –هو أعلم به– يخفف به هول الموقف، فاستأنس موسى وأجاب ربه تفصيلاً، ثم أراه ربه آيات منها **تحول العصا إلى حية تسعى، وأمره بأن لا يخاف منها ليعده إلى ما سيكون لاحقاً مما هو أعلم به من مواجهة مع السحرة**، ثم أمره بالذهاب إلى فرعون: (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) (طه: ٢٤).

ولعل عبداً يكلمه رب السماوات والأرض أن يكون حرياً بالطاعة بلا تردد لحظة أن يسمع الأمر مهما تكن من عاقبة، ولكن موسى العبد لم يكن قد كمل إعداده بعد لساعة القمة، فدعا ربه طالباً العون: (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا) (طه: ٣٥)، فأجابه الله إلى ما سأل، وذكره بما كان من سابق تدبير ربه له مدة عمره حتى أتى به إلى موضعه هذا، ليطمئنه بما سيكون من لاحق حسن تدبيره له: (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ

---

[٥٣] أمره بخلع النعلين تخفيفاً ليشغله عن هول الموقف، مثلما سأله عن العصا تلطفاً –وهو الأعلم بما في يده–، وتأمله وقد انشغل بخلع النعلين والوقوف حافياً، وهو في خضم هول تكليم الله رب السماوات له!

سُؤْلَكَ يَا مُوسَى * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) (طه: ٤١)، وبعد أن حكى له ما كان من صنعه على عين الله ورعايته واختياره له، أبلغه وأخاه بنفس التكليف: (اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآَيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) (طه: ٤٤)، ومن العجيب أن العبدين المكرمين المتآزرين اشتركا في نفس الخوف: (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى) (طه: ٤٥)، فنهاهما ربهما عن ذلك الخوف: (قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى) (طه: ٤٨).

ثم كان بين موسى وفرعون ما كان من حوار، ثم كان التحدي يوم الزينة، ولقاء السحرة: (قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) (طه: ٦٦)، وعلى الرغم من أن موسى كان قد **تم إعداده لهذا الموقف من قبل وأراه ربه آية تحول العصا إلى حية تسعى، وأمره بأن لا يخاف منها ولا منهم لأن ربه معه يسمع ويرى،** ولكن لم يكن موسى قد اكتمل فيه بعد ما يربيه له ربه من كمال: (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى) (طه: ٦٩)، وإنما كان أكمل مواقفه عليه السلام في أشد ما تكون الفتنة

مشقة، إذ خرج مع الشرذمة من قومه، ولحق بهم جيش فرعون الكبير، حتى إذا أدركوا البحر حوصروا بين الجيش على مرأى منهم وبين ذلك البحر: (**فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**) (الشعراء: ٦١)، وهو موقف يعجز عن بيان هوله الوصف، لانقطاع كل سبب للنجاة، ويدخل معه اليأس إلى أقوى قلب، إلا قلب موسى الذي رباه ربه لموقف القمة هذا فقال: (**قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**) (الشعراء: ٦٢)، فاستجاب له ربه: (**فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**) (الشعراء: ٦٣)، واختصر مقام التوكل العظيم هذا لموسى العمر، وكانت تلك الساعة من خير ساعات كونه كما يحب منه ربه، وكانت قصة إعداد موسى لهذا الموقف مؤانسة لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وهو يعاني مشقة حمل الرسالة، وإشارة لما يكون من الله لكل عبد من صناعة وتربية على عينه، في الطريق إلى أكمل أحوال عبوديته لربه: (**كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً**) (طه: ٩٩).

وهذه طريقة تناول القرآن لأمثال هذه اللحظات للمصطفين عند الله من الخلق، حين يجعل موقفاً صادقاً واحداً في القمة يرقى بصاحبه إلى أعلى عليين، **بكلمة** يحبها الله أو **بموقف** يحبه الله، **يبدو معهما العمر السابق وكأنه كان كله إعداداً لهذه اللحظة أو لهذا الموقف**، فيتلى في كتاب الله إلى يوم الدين، وترى قصص القرآن تدور حول سرد حيثيات أمثال (مواقف القمة) هذه لدى الأنبياء وغيرهم من الصالحين، وليس عن مجرد سرد تفاصيل تاريخ وقائع حياة كل منهم، ثم إنه يجعل قياس جزائهم يوم القيامة -برحمة الله- مبنياً على خير ما قدموا: (**أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ**

الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) (الأحقاف: ١٦)، **فتأمل الفرصة القائمة في كل لحظة من العمر!.**

إنه لمن أعظم مقامات الفقه قدراً: **أن يعرف الإنسان في الوقت المعين وفي موضعه الخاص المتفرد ما يحبه الله منه من موقف ومقام في ذلك الوقت وذلك الموضع، وأن يفنى في إرادة أن يكون وفق ذلك الموقف في ذلك الوقت بالذات.**

وانظر الجمل التاليات من بعض كلام العارفين لعلها تعين على فهم المقصود:

((اجتهد لأن تعرف أين مقامك وما هو (حالك)، وذلك يكون بحسب ما تعرفه عن ما أودعه الله فيك فيما مضى من عمرك من (الاستعداد) وهو يربيك، ثم في مقامك الآن، بين ما خلقه لك وما خلقت لأجله، و(من علامات إقامة الحق لك في الشيء: إقامته إياك فيه مع حصول النتائج)، فاعتبر حالك، واجتهد لملء مقامك حيث أقامك بأكمل الاتقان، أباً أو إبناً، معلماً أو متعلماً، مريضاً أو طبيباً، و(إذا أردت أن تعرف قدرك عنده: فانظر فيم يقيمك)، وكيف عملك لملء مقامك، و(لا تطلب منه أن يخرجك من حال؛ ليستعملك فيما سواها، فلو أرادك: لاستعملك من غير إخراج)، فمقامك حيث أقامك[٥٤]))، و(لا تؤهل نفسك لشيء لم يؤهلك الله عز وجل له، ...، إذا أرادك لأمر هيأك له)[٥٥].

---

[٥٤] (فقه الهجرة إلى الله): ص٢٣.

[٥٥] الفتح الرباني والفيض الرحماني للشيخ عبد القادر الكيلاني، مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة، ص٩٦.

وإنك لتصل إلى هذا المقام بعد أن تتخذ القرار بأن تكون عبداً لربك الجميل، -لا رباً لنفسك، لأنك لم تخلق نفسك!-، ثم تبذل الوسع في أداء الأعمال التي يحبها الله منك **في وقتها الذي يحبه وفي هيئتها التي يحب**، ومن أحب الأعمال إلى الله -مثلاً- عند سماع القرآن الاصغاء ثم إفاضة الدمع مما يكون من نشوة اليقين بالحق: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ) (المائدة: ٨٣)، وخير مقام **عند قتال الظالمين الشدة**: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (التوبة: ١٢٣)، وخير مقام **عند الوالدين فيض الرحمة**: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً) (الإسراء: ٢٤)، وخير مقام في الليل قيامه لله: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (السجدة: ١٦)، وكذا فخير مقام حين الأذان للصلاة إقامتها في وقتها: (إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً) (النساء: ١٠٣)، وخير أداء لها حين يخشع القلب: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ) (المؤمنون: ٢)، وهذا واجب الوقت عند ذلك الأذان، ليعينك على أن تجتهد في طلب معرفة ما يحبه الله: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) (الفاتحة: ٦)، في عموم ما في الحياة من مقاماتك في كل وقت: مع الله، ومع الانسانية، ومع الأمة، ومع المهنة، ومع الأسرة، وفي سقيك للشجرة، أو إتقانك تذوق الثمرة، أو إيقاظ حسك للانتعاش وأنت تمر بجمال شمس مشرقة أو زهرة، أو إيقاظ خيالك وأنت تنظر إلى عجيب خلقة حشرة، وما سواها مما يتعدد بتعدد اللحظات، والتي أصلها: فقه مقامك الخاص، لتأخذ بأقصى الأسباب التي يسرها الله لك، لكي تضع نفسك وقدراتك رهن المراد المتعلق بموضع استخلافك الخاص في الارض: (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (يونس: ١٤)، على مستوى ما لا اختيار لك فيه، وعلى

مستوى ما اتخذته من اختيار لتكون (**أنت**) **نفسك!**، وذلك في موضع تكليفك الخاص محلاً ونطاقاً: (الواجب الكفائي المنوط بك)، وهو سبيلك الأعظم للارتقاء في تلك المقامات، وعلى قدر **نوع التغيير وحجمه الذي تحدثه باتجاه الأصلح والأعدل في ذلك الموضع، ولو في لحظة واحدة** (**هي لحظة الموقف القمة**)، **تكون درجتك من بين تلك الدرجات التي لا تنتهي يوم الحساب.**

إن الله (**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**) (السجدة: ٧)، **هو** (**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**) (الملك: ٢)، فالخالق الجميل الذي كان منه أعظم **الإحسان** في خلقك وخلق كل شيء، ابتلاك في فرصة وجودك هذه **لتؤدي أحسن ما يمكن أن يكون منك** من عمل -في كل وقت- فيما استخلفك فيه من شيء، وكان حقاً عليه أن لا يضيع من **إحسانك** شيئاً: (**إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً**) (الكهف: ٣٠).

إعلم أنك بمجموع ما أنت عليه: أكمل ما تكون في نفسك وفي مكانك الذي استخلفت فيه، وفي زمانك الذي خلقت فيه، فلقد خلقك الله في **أحسن** تقويم: (**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**) (التين: ٤)، وجعل ما على الارض مسخراً ومطوَّعاً لقدراتك ومزيناً بما يدفعك لإخراج خير ما فيك من **إحسان العمل** لتناله، وإن الخيار لك في تذكير نفسك للعلم بالحق، **وفقه مقامك،** ثم بجمع همتك وشد العزم للعمل بالحق، ولتصرف عنك ضعف النسيان أو تضعضع العزم عن إرادة أقصى الاحسان: (**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً**) (طه: ١١٥)، فإنك في كل لحظة تشكل بمجموعك أكمل استعداد ممكن لمواجهة تحديات تلك اللحظة وابتلاءاتها، ويكمن فيك أحسن إمكان لكي تؤدي الأداء الأحسن الذي

يحبه ربك منك، وفيه لك أعظم الخير، وتأمل: إنك في كل لحظة يمكنك أن تكون أكثر إحساناً مما كنت عليه في ما مضى من لحظة، تتسابق فيها مع أداء أقرانك وأداء من سبقك في إحسان عملك مع خالقك ومع مخلوقاته: (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) (المطففين: ٢٦)، لتنال إحساناً أعظم في الدنيا والآخرة من رب شكور، وإنما جزاءُ الاحسانِ الاحسانُ: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) (الرحمن: ٦٠).

على طريق إعادة تشكيل الوعي

(القسم الأول)

(طبــق الحيـــاة)

الباب الثاني

-إشارات في فـــن الحيـــاة-[٥٦]

الفصل الأول: في فن الحياة

الفصل الثاني: حب الحياة

الفصل الثالث: تنمية القدرات

الفصل الرابع: الحياة في سبيل الله

الأزمة في الفكر والفعل الحضاري الاسلامي منذ أن: (همشنا الحياة فهمشتنا الحياة!)

[٥٦] تمثل السنة النبوية الصحيحة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام خير منهج للحياة التي يحبها الله: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) (الأحزاب: ٢١)، وفي موسوعات الحديث الصحيح حشد ضخم من الآثار المبينة لمنهج الحياة الأعلى، تفصيلاً وشرحاً وتكميلاً، وإنما نحن هنا نشير فقط إلى بعض ملامح المفهوم القرآني لذلك المنهج من خلال استقراء الآيات المتعلقة بالموضوع، بما يتكامل مع ما سبق طرحه من حقائق في ما سبق من فصول الكتاب.

الفصل الأول

-في فـــن الحيـــاة-

> إن الاحتفاء بالحياة وحسن تقدير ذاتك الانسانية يقودانك إلى التوازن في (الحاضر) وحسن التعامل مع ما هو (كائن)، بما تستحقه منك الحياة من عمل صالح وتمتع صادق، وإن حسن الظن بالله سبيلك إلى الثبات ودفع القلق من (المستقبل) وعما (سيكون)، وإن الرضا بالقضاء وحسن التأقلم مع التغيرات يدفع عنك الضعف والحزن على (الماضي) وما (كان)، ويعينك على التعامل بحكمة مع الواقع، والرضا بما يكون.

إذا كان (**فقه المقام**) دليلك للفعل الأكمل الذي يحبه منك الله في موضع معين ووقت معين، فإن (**فن الحياة**) يتمثل في استجماع قدرتك لصناعة ذلك الفعل، والأداء الواقعي لذلك (العمل الأحسن) الذي يرقى بقيمة وجودك دنيا وآخرة، ويقربك إلى ربك: (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل: ٩٧).

- **قدسية الحيـــاة:**

وأول (فن الحياة) وعي **بقدسيتها**، لأنها لا تكون إلا بنفخة روح قدسية من لدن الله: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) (الحِجْر: ٢٩)، وسر هذه الروح من أمر الله وحده: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) (الإسراء: ٨٥)، ولقدسيتها وجب صون حرمتها: (مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً) (المائدة: ٣٢)، وهذه القدسية كائنة في كل لحظة من العمر، يجازى فيها العبد على مثقال الذرة من الفعل في تلك اللحظة: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

شَرّاً يَرَهُ) (الزلزلة: ٨)، وبهذا التقديس لوقت الحياة يحرص على استثمارها بأصلح العمل وأطيب القول استعداداً للقاء الله: **(يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ)** (آل عمران: ١١٤).

• جـمال الحيـاة:

لقد بث الله سر الجمال في خلقة كل ما استودعه الأرض –مهد الحياة– من شيء: (إِنَّا جَعَلْنَا **مَا عَلَى الْأَرْضِ** زِينَةً لَهَا) (الكهف: ٧)، وهذا الجمال قائم فيما هو **مشهود** في ظاهر عناصر الحياة، وفي **العلاقات** بين الخلق فيها، بل هو قائم في وصف **ما غاب عن الحس** من المخلوقات –كالملائكة– التي جعل لها الله أدواراً مرتبطة بوجودك في الحياة.

وقد مر بك في معرض التعريف بالرب الجميل من آثاره في ما خلق –أول هذا الكتاب– مثال واضح للجمال المبثوث في الحياة، والمشهود في: إحسان الله صورتك لتكون (جميلاً) بذاتك: **(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ)** (التغابن: ٣)، وفي ملبسك ذي الرياش (الجميل) الذي أنزله إليك: **(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً)** (الأعراف: ٢٦)، وطعامك المنوع (الجميل): **(وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ)** (الأنعام: ٩٩)، ومركوبك: **(وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)** (النحل: ٦)، وفي موضع قضاء فرصة الحياة الجميل، حيث تحتويك أرض (بهيجة) بنباتها تحتك: **(وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ)** **(النمل: ٦٠)، وسماء مزينة (جميلة) فوقك: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)** (الصافات: ٦).

ومثلما بث الجمال في ظاهر خلقة المشهود من الأشياء، فإن الجمال كامن في ما ينشأ –في ظل طاعة الله– من العلاقات بين الناس أنفسهم أو بينهم وبين المخلوقات، وإن مثالاً واحداً لصورة العلاقة التي يحبها الله بين الرجل والمرأة في نظام الزواج الذي يباركه الله تكفي للدلالة على طبيعة هذا النوع من الجمال ومستواه، إذ يصور القرآن **الزواج بأنه**: ميثاق غليظ بين اثنين بشهادة الله، يلتقي فيه رجل وامرأة قد خُلقا (**لبعضهما**)، (**من** بعضهما)، ليتكاملا (**أزواجاً**) كتكامل الليل والنهار، ويكون الواحد منهما (**سكناً**) للآخر يلجأ إليه ويطمئن به، ويعيش معه نعمة الحب و(**المودة**)، التي تنمو فتثمر نعمة (**رحمة**) وعطاء من شريكه؛ لا ينتظر الجزاء: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الروم: ٢١)، وبهذا الحب والمودة **يلتقي جسداهما** حتى (يتلابسا) في حلال طيب أحله الله: (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) (البقرة: ١٨٧)، وبالسكن وبالرحمة **تسرح** روح كل منهما بحرية في **فضاء** روح الآخر: (وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) (النساء: ٢١)، وتأمل: أي جمال للرباط بين مخلوقين بثها الله في هذه العلاقة –إن أحسن المخلوق أداء حقها–، ومثله جمال الأسرة ورباط العائلة: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً) (النحل: ٧٢)، وعلاقة الأبوة والبنوة والأخوة، أو ما سواها من العلاقات من مثل علاقة الانتماء للعقيدة أو للوطن أو رباط الجماعة والفريق، أو علاقة الصانع المبدع بقطعته، أو الرياضي بتفوقه، وغيرها من العلاقات الانسانية مع بقية الكائنات.

إن الجمال مبثوث في الحياة حتى في ما غاب عن حواسنا من خلق من عالم الغيب غير المنظور، إذ يحكي القرآن عن صورة الملائكة: (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (فاطر: ١)، وهي بأجنحتها تسبح في الكون: (وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً) (النازعات: ٣)، أو تصُفُّ بها بنظام جميل: (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ) (الصافات: ١٦٥)، طاعة لأمر الله: (لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (التحريم: ٦)، وهم جزء من نظام الحفظ الإلهي للحياة: (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) (الطارق: ٤)، يحوطونك بإذن الله: (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) (الرعد: ١١)، ويحفظون عليك ما يكون منك من قول أو عمل: (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ* كِرَاماً كَاتِبِينَ* يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) (الانفطار: ١٢).

ومثلما بث الله الجمال في ما خلق في الحياة، فهو يحب منك تذوق الجمال، وصناعة الجمال فيها، وقد جعل من كمال ملك نبي من أنبيائه صناعة الجمال: (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) (سبأ: ١٣)[٥٧]، وشَرَّف كل جمال في الدنيا بنسبته إلى نفسه عز وجل: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (الأعراف: ٣٢)، فالزينة (زينة الله) ربنا الجميل، وهي في عرف القرآن مخلوقة لي ولك في هذه الحياة لتكون آية دالة على خالقها، ترقق القلوب القاسية وتحيي فيها موهبة الحب، وتهذب النفوس وتعمق فيها إرادة العدل والإصلاح، وتهيؤك لخير أداء في (فن الحياة).

---

[٥٧] وكان أحد قصور ذلك النبي آية من آيات زمانه في دقة الصنعة وجمالها وتفوقها التقني: (قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ) (النمل: ٤٤).

• ثلاث قواعـــد لحيـــاة أجمـــل:

وإذا كانت الحياة: فرصة **الانسان** لمعرفة **الله** والعمل -وفق مقادير الله- **لتغيير** النفس والآفاق التي استخلفه فيها وإصلاحها رجاء يوم لقاء الله: **(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)** (المائدة: ٦٩)، فإن **مقومات** (**فن الحياة**) الأساسية ثلاثة: (الانسان)، (الله)، (أقدار التغيير)، ومثلما كان **الوعي** بخصائص أركان وجودك ودائرة علاقاتك بمن سواك والنظام الحاكم لهذه العلاقات مقدمات لفقه مقامك الخاص، فإن لكل واحد من مقومات فن الحياة قاعدة في السلوك يمكن باتباعها –بعد فقه المقام- جعل حياتك أجمل، وخلاصة هذه القواعد تتمثل بـــ(الاحتفاء بالحياة) وحسن تقدير قيمة نفسك أولاً، وبـــ(إحسان الظن بالله) في ما سيكون من تدبيره لشأنك ثانياً، وبـــ(الرضا بالقضاء) وحسن التأقلم مع التغيرات ثالثاً، ودونك بعض تفصيلها:

القاعدة الأولى: الاحتـــفاء بالحياة:

> إن الاحتفاء بالحياة –بقدسيتها وجمالها– وحسن تقدير قيمة نفسك، هما الباب لتعطي هذا اليوم الذي أشرقت فيه عليك شمس الدنيا حقه، وتعيش (حاضرك) بخير ما يعطي دافعاً لنفسك لتكون أكمل ما تكون على ما يحبه منك ربك في مقامك الذي فيه أقامك.

يشكل التعاقب المعدود لليل والنهار مجمل قصة حياتك: **(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً)** (الإسراء: ١٢)، **وإن كل يوم من أيام الحياة بـــ(ليله ونهاره) ولادة جديدة لك: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)** (الزمر: ٤٢)، وفي كل منهما لك نعمة: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً* وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً) (النبأ: ١١)، فعش لتستحق هذا اليوم، واعمل لقضائه بأحسن ما يكون، فهذا سر دورة التغيير المستمر في الليل والنهار بدوران الأرض وشروق يوم جديد عليها في كل لحظة: **(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ)** (الزمر: ٥)، لتُعطى في كل يوم بداية جديدة وخبرة جديدة وفرصة جديدة، فاليوم (حياة) جديدة، وقيمة هذه الحياة في أن نحياها في كل لحظة منها أو ساعة، لأن لكل فعل في كل لحظة منها جزاء: **(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)** (الزلزلة: ٨)، وهو وعد ربك لك بحياة طيبة –ما دمت عاملاً بما يحب– في هذه الدنيا: **(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)** (النحل: ٩٧)، وطيب الحياة: بالتوفيق لصالح الأعمال **والتمتع** بالحلال: **(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)** (المؤمنون: ٥١)، وهذه الحاجة **للتمتع** أمر فطرك ربك عليه: **(رَبِّ**

إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) (القصص: ٢٤)، وهي سر عبوديتك المطلقة لربك الغني: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (فاطر: ١٥)، فتحيا في ظل التنعم الصادق برزق الله الغني، شاكراً له عظيم فضله: (كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) (سبأ: ١٥)، وفي ظل هذا الرب الغفور (تحتفي بالحياة الطيبة)، وأنت تعلم أن حياتك هنا مؤقتة: (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) (البقرة: ٣٦)، ترجو بعدها –بتقوى الله– حياة أعلى: (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً) (مريم: ٦٣)، وتطلب من ربك في كل حياة خير ما فيها: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (البقرة: ٢٠١).

ويعينك على الاحتفاء بالحياة **حسن تقديرك لنعمة الوجود، ولقيمة كونك (أنت) كما أنت**، فـــ(أنت) –بالنسبة إليك– العنصر الأهم في معادلة الحياة، ولقد خُلقت نسيج وحدك –كما علمته عن خصوصيتك وتفردك عند الحديث عن (خصائص أركان الوجود الانساني)–، بنفخة من روح الله مثلما خُلق أبوك آدم من قبل: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) (الحِجْر: ٢٩)، وبهذه النفخة الإلهية علا قدرك على كثير ممن سواك من المخلوقات: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) (الإسراء: ٧٠)، وجُعلت خليفة في موضعك من الأرض: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (البقرة: ٣٠)، لأنك مخلوق في خير خلقة: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) (التين: ٤)، **ولقد أتيت وحدك من الغيب** إلى هذه الحياة وسترحل إليه وحدك: (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) (الأنعام: ٩٤)، حتى تصل إلى موضعك الخاص المتفرد الذي رشحت له: (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) (الأحقاف:

١٩)، فكن على سجيتك، واعرف قدر نفسك، وكن كما خلقك الله ولا تتعمد أن تكون نسخة من غيرك، فأنت لست بأقل من أحد ممن سواك من الناس في أصل مجموع خلقتك، فالكل في أحسن تقويم، وأنت فقير –كفقر غيرك– فقط إلى ربك، والكل متساوون في الموت القادم: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) (الزمر: ٣٠)، فكن نفسك، فهذه فرصتك أنت لتقول كلمتك لا فرصة غيرك، في ظل عبوديتك لله وحبك له: (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) (البقرة: ١٤٨)، واعلم أن طريق التفوق في العمر يكمن في معرفة قيمة ما أنت عليه فعلاً، وتحقيق الانسجام بين ما أنت عليه وبين ما تفعله، و(فقه مقامك) لتمارس عملاً خلقت له وتحبه، ويزداد معه حسن تقديرك لنفسك ونعمة وجودك.

ويُكمِل استعدادك للاحتفاء بالحياة –بعد حسن تقديرك لنفسك–: الاحتفاء بالانسانية عموماً، فلقد علمت أن كل إنسان –بمجموع ما هو عليه–: أكمل ما يكون في نفسه وفي مكانه الذي استخلف فيه، وفي زمانه الذي خلق فيه، وأنه يشكل بمجموعه أكمل استعداد ممكن لمواجهة التحديات والابتلاءات الخاصة به، ويكمن فيه أحسن إمكان لكي يؤدي الأداء الأحسن الذي يحبه ربه منه، وفيه له أعظم الخير، ومن ثَمَّ فالأصل احترام الجنس الانساني: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: ١٣)، والاحتفاء بالانسان كما هو عقلاً وقلباً وجسماً: بعقله الجميل المتفكر: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (آل عمران: ١٩١)، وعواطفه وقلبه الحي بمعرفة ربه: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد: ٢٨)، وغرائزه الدافعة للانجاز: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ)

(آل عمران: ١٤)، فهو احتفاء بالانسان كما خلقه ربه بقوته وبضعفه ونقصه: بعقله وقلبه، وعواطفه وعضلاته، ومعدته وحاجته الفطرية لتحقيق شهواته، التي بها يتكامل ويعمل ليستحق وجوده: بعقل ذكي وخيال مبدع نشط، وبقلب ذي عاطفة حية يعرف فن بذل الحب، وبروح شجاعة تبذل الوسع بشغف لتغير وجه الحياة، وتدرك النقص الانساني وتواجه الواقع كما هو: فلا تحزن ولا تضعف لفوات شيء بعد ما فات وهي تواجه الأقدار: (وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران: ١٣٩)، وإنما تلوم نفسها –فحسب– على التقصير الذي يزعزع درجة التقوى إن حصل منها: (وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) (القيامة: ٢)، لأنها لا تخاف سوى معصية الله: (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران: ١٧٥).

وفي كل موضع في الأرض دعوة للاحتفاء بالحياة وللتمتع الصادق بها في ظل العبودية للخالق، تحجبك عنها بلادة الألفة وجمود الحس، ولعلك تذوقها لو أيقظت الحواس لتـــنتشي بروح الوعد بالحياة التي يوحي بها مرأى السحاب وومض برقه: (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) (الرعد: ١٢)، أو نزول الغيث الذي به الحياة: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) (الحِجْر: ٢٢)، ومعه متعة خاصة في حب موضع الحياة: (أمك الارض)، التي تكفتك كأم حياً على ظهرها وتغذيك من خيراتها، وتكفتك ميتاً في بطنها: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً* أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً) (المرسلات: ٢٦)، وتستوعب بسعتها أحلامك ما دمت فيها: (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) (العنكبوت: ٥٦)، وتدعوك للسير والسفر في واسع مناكبها: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) (الملك: ١٥)، وللتمتع بما أنبت الله فيها: (وَفِي

الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الرعد: ٤) ، وبما ذرأ فيها من الحيوانات: (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) (النحل: ٦)، ويُزاد على ذلك كله شهود الصراع الإنساني على خيرات هذه الأرض، وتجلي سنة الله في مداولة الأيام بين الناس فيها بحكمته: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) (عمران: ١٤٠)، ومع هذه المداولة تذوق النفس نعمة شهود حسن تدبير الله لعباده، ونشوة انتصار الحق: (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (الصف: ١٣)، وانكسار الباطل: (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) (التوبة: ١٤).

إن الاحتفاء بالحياة دافعك لمعرفة قيمة ما رزقك ربك، والتفكر فيه وأداء شكره: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (البقرة: ١٧٢) ومن ثَمَّ التمتع الفعلي –بلغة مبسطة– بالحياة، والتوافق معها لا الثورة عليها، فهي نعمة قائدة إلى نعمة، يتقلب فيها العبد ما دام سالكاً صراط ربه المستقيم: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) (الفاتحة: ٦)[٥٨]، ويشمل هذا التمتع الصادق كل تفاصيل الحياة، كالتمتع بحياة الأسرة: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً) (النحل: ٧٢)، والالتفات إلى بسمة الطفل أو لثغته وهو يغني: (الْمَالُ

---

[٥٨] ولعل هذا –والله أعلم– سر ورود صيغة وصف أهل الصراط المستقيم بــ(الفعل) –أنعمت–: الدالة على التجدد والحدوث، دون صيغة الاسم الذي وصف به من سوى أهل هذا الصراط –المغضوب عليهم والضالين–، وفيه إشارة إلى تقلب أهل الحق في النعم، من نعمة إلى نعمة إلى نعمة، في الدنيا وفي الآخرة من بعدها، ويوم لقاء الله ربهم العظيم.

وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الكهف: ٤٦)، أو التمتع بدفء الرفقة والصداقة والحوار، وهي نعمة حتى على الأنبياء المقربين من الله: (ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) (التوبة:٤٠)، ففي الصحبة دفء يعين على نوائب الحياة: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً) (الفرقان: ٣٥)، أو التمتع بالقراءة والبحث وتأمل جمال الحقيقة: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) (العلق: ١)، وكتاب الله كله آية من آيات الجمال في بيانه وفي أمثاله وفي إيقاع أصوات كلماته، يدعوك لتذوقه وتذوق جمال القرآن المنظور من بعده: في خلق الله بأنواعه، وفي الفنون التي أبدعها الانسان الذي خلقه الله، ليحيي في القلب فقه روح الحب الإلهي، والقدرة على صناعة الحب بمحاكاة هذا الجمال في كل فعله في الحياة، وهو مغمور بسعادة الشعور بالوجود بعد العدم: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً) (الإنسان: ١).

إن الاحتفاء بالحياة –بقدسيتها وجمالها– وحسن تقدير قيمة نفسك، هما الباب لتعطي هذا اليوم الذي أشرقت فيه عليك شمس الدنيا حقه، وتعيش (حاضرك) بخير ما يعطي دافعاً لنفسك لتكون أكمل ما تكون على ما يحبه منك ربك في مقامك الذي فيه أقامك.

القاعدة الثانية: إحســـان الظـــن بالله[٥٩]:

إن إحسان الظن بالله تعالى يفضي إلى طمأنينة العبد بأن الله لا يدبر له إلا خير ما يصلحه ويصلح له، فلا ينتابه (القلق) مما سيكون، ويحتفي بالحياة بيقين ثابت بخصوصية علاقته بخالقه وتميزها؛ -بما عرفه عنه من سابق حسن تدبيره له-، مع تفاؤل واطمئنان وظنٍّ جازم بالخير يليق بالله وبما تقتضيه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا؛ في شأن ما يكون في حياته في كل قدر يقدره الله عليه في المستقبل.

يعيش المسلم حياته في كنف رب عالم بأدق شأنه: (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الملك: ١٤)، وهو معه -بعلمه- حيثما كان: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) (الحديد: ٤)، بل هو أقرب إليه من نفسه: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) (ق: ١٦)، وهو رحيم به وودود يحبه: (إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) (هود: ٩٠)، وبهذه الرحمة والحب يربيه **بلطفه** وتدبيره -**بما قد تخفى عنه حكمته من مقاديره**- ليوصله إلى أقصى ما يمكن له من الخير: (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (يوسف: ١٠٠)، وإن رباً بهذا الوصف حري أن يُحسَن به الظن في كل ما سيكون منه لعبده من تدبير، **وكلما زادت معرفة الانسان بربه زاد إحسان ظنه به،** وإن إعادة قراءة تاريخك الشخصي الماضي -بما فيه من عجيب التدابير-؛ تكفي وحدها ليستقر في قلبك اطمئنان لحسن تدبيره؛ يدفع عنك

[٥٩] وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: (والذي لا إله غيره **ما أُعطي عبد مؤمن شيئاً خير من حسن الظن بالله عز وجل،** والذي لا إله غيره لا يحسن عبد بالله عز وجل الظن إلا أعطاه الله عز وجل ظنه؛ ذلك بأن الخير في يده).

كل هواجس القلق وأنت تحتفي بالحياة، ويورثك السكينة بدل الخوف من المستقبل[٦٠].

وإنما تحجب العبد عن حسن الظن بربه: معاصيه وجهله بالله، فمن المعلوم أنه من سنة الله في الحياة أنها لا تصفو لأحد: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ) (البلد: ٤)، وأن ما يصيب الانسان مما لا يحبه في الدنيا هو غيض يسير من فيض تقصيره في جنب ربه: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى: ٣٠)، الهدف منه تربيته وليس مجرد تعذيبه: (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً) (النساء: ١٤٧)، ولكن العبد الجاهل بالله تختلط عنده المفاهيم بما أضاعه من نور قلبه بجهله وعصيانه: (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) (ق: ٥)، وبهذا الاختلاط وظلمة القلب يتشكك بفيض رحمة الله أو بوعده بنصرة الحق؛ فيصيبه من الأقدار في الدنيا ما يصيب أمثاله بحسب ما ظنوا بربهم: (الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) (الفتح: ٦)، ثم ليكون ذلك الظن السيء سبباً لخسرانهم في الآخرة: (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (فصلت: ٢٣)، **وإن كل من فقد إحسانه الظن بربه تراه يضيق صدره بما يتملكه من القلق وهواجس الهلع من المستقبل**: (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً) **(المعارج: ١٩)، وحالة الهلع وضيق الصدر هذه تجعله حبيس الوساوس؛ فيبقى المسكين أسيراً لأنواع لا تنتهي من التوتر والهواجس؛ تحول دون احتفائه بالحياة، ويضيع بهذا القلق يومه وغده.**

---

[٦٠] يقول ابن عطاء الله رحمه الله: (إن لم تحسن ظنك به لأجل حسن وصفه، فحَسِّن ظنك به لأجل معاملته معك، فهل عوَّدك إلا حسناً؟، وهل أسدى إليك إلا مننا؟)، الحكمة: ٤٠.

ومعلوم أن الله يلقي في قلب العبد إحسان الظن به على قدر ما يكون من العبد من إحسان في عبوديته لربه -إخلاصاً له وعدلاً مع خلقه وإصلاحاً للحياة، كما قد مر بك عند بيان (**دائرة العلاقات الانسانية**) في الباب الأول من فقه الحياة- ، وهذا الفيض من الظن الحسن في القلب نصيب معجل مما تقرره سنة الله في أنه يجازي العبد بخير يحبه على ما يكون منه من فعل يحبه ربه: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ) (الطلاق: ٣)، وهذا الظن الحسن الذي يلقيه الله في قلب العبد باب للتحقق بالتوكل الذي يحبه الله[٦١]: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران: ١٥٩)، الذي به يكفي الله العبد شأنه كله: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) (الطلاق: ٣)، وهذه الكفاية شأن ثابت لا يتخلف: (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (يوسف: ٢١).

وإن من أوسع أبواب ما يُفتح به على قلبك نور إحسان الظن بالله: معرفتك بقرب الله منك، وهذا القرب هو جواب الله لكل من **يسأل عن الله**: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) (البقرة: ١٨٦)، ولهذا القرب وببيان إجابة الله دعاء الداعي؛ أمر الله الخلق بإخلاص الدعاء له وحده: (هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) (غافر: ٦٥)، وجعل علامة إجابته للدعاء مجرد إطلاقه قلب العبد ولسانه لدعوته[٦٢]: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي

---

[٦١] إن (التوكل) يتكامل مع (التسبب) والأخذ بأقصى ما تتيحه الأسباب من قوة، فلا عبادة بلا استعانة: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة: ٥)، ولا توكل بلا أخذ بأقصى الأسباب والتوجه بالعزم –الذي هو استجماع القدرات كلها على الفعل- : (**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**) (آل عمران: ١٥٩).

[٦٢] يقول ابن عطاء الله رحمه الله: (متى أطلق لسانك بالطلب: فاعلم أنه يريد أن يعطيك)، الحكمة: ١٠٢.

أَسْتَجِبْ لَكُمْ) (غافر: ٦٠)، وهذا القرب عرف الانبياء -عليهم السلام- رهم بأنه لا يرد سائلاً دعاه، فقال صالح: (إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) (هود: ٦١)، ومثله عرفه إبراهيم: (إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ) (إبراهيم: ٣٩)، وكان من شأن زكريا وهو يدعو ربه -بعد أن وصف ضعفه الظاهر في شيبه، وما بطن من ضعفه في وهن عظمه- أن بين أنه لم يعهد من ربه إلا إجابة الدعاء: (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً) (مريم: ٤)، وبفقه هذا الأثر الحاسم للدعاء يتقلب العبد -في كل أحواله- في ما يشهده من حسن رعاية ربه له، وتأمل تقلب أحوال موسى -عليه السلام- مع ربه، وهو يدعوه لإصلاح شأنه وقد **اخطأ:** (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (القصص: ١٦)، ثم وهو يدعوه **خائفاً** من كيد القوم: (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (القصص: ٢١)، ثم وهو في الطريق يخشى **التيه:** (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ) (القصص: ٢٢) ثم وهو محتاج إلى ما يسد **جوعه** وحاجته: (فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) (القصص: ٢٤)، فهو في كل أحواله –خاطئاً وخائفاً وتائهاً وجائعاً- في قرب من ربه، وحسن ظن بثمرة دعائه وحتمية إجابته بما فيه خيره، وهذا القرب وهذه الإجابة شأن الله مع كل العباد: (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ)

(إبراهيم: ٣٤)[٦٣]!، لعل شأن عباده معه أن يكون بما يستحقه -سبحانه- من إحسان الظن به[٦٤].

إن إحسان الظن بالله تعالى يفضي إلى طمأنينة العبد بأن الله لا يدبر له إلا خير ما يصلحه ويصلح له، فلا ينتابه القلق مما سيكون، ويحتفي بالحياة بيقين ثابت بخصوصية علاقته بخالقه وتميزها؛ -بما عرفه عنه من سابق حسن تدبيره له-، مع تفاؤل واطمئنان وظنٍّ جازم بالخير يليق بالله وبما تقتضيه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا؛ في شأن ما يكون في حياته في كل قدر يقدره الله عليه في المستقبل.

في الوقت الذي تريد)، الحكمة: ٦، فاطمئن بأن الله مجيبك بخير ما يصلح لك.

[٦٤] يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل: (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني)، رواه الإمام مسلم.

القاعدة الثالثة: الرضـــا بالقضـــاء وحسن التأقـــلم مع التغيـــرات:

وطّن نفسك على حسن التأقلم مع (التغيير) وشهود تجلي صفة الله (الحي) فيما خلق، وقراءة باطن الحكمة فيما يقع، فإن الوجود كله في تغير وحركة دؤوب لا تفتر: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) (إبراهيم: ٣٣)، وعلامة الحياة تغير مستمر، لا توقفه دموعك ولا تستبطئه أمانيك.

تتجدد التحديات مع التغير المصاحب لروح الحياة، وحالك ما دمت فيها لا ينفك يتغير، حيث تتعاقب أطوار النمو عليك بلا توقف بمجرد ولادتك: **(ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً)** (الحج: ٥)[٦٥]، وعليك النظر بحكمة، وتفهم حتمية التغيير، والتمتع بجمال هذا الوزن والإيقاع في الحياة، فلكل يوم صباحه وظهره ومغيبه، وللسنة فصولها الأربعة، وعلينا أن نعيشها على ضوء فصولها، وتوطين النفس على الترحيب بكل فصل جديد، يحمل معه خبرات جديدة تضاف إلى رصيد حصاد الفصول السابقات، وترشحنا لأداء أفضل في الفصل الذي نحن فيه اليوم من العمر، مع عيش كل طور بتفاصيله وميزاته، ليختم بالقناعة بالانسحاب الهادىء بعد انتهاء الفرصة وشهود تجربة جيلين أو ثلاثة: **(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)** (فاطر: ٣٧)، وإن مدة العمر التي قدرت لكل منا كافية، **لتَعَلُّم** فن التعامل مع طبيعة التغييرات بحكمة تمنع من التطرف إلى حد (الجزع) عند حصول ما يحزنه، أو التطرف إلى حد (الاختيال) عند الفرح بما يسره، وهو يعلم أنها جميعاً محطات قدرها ربه له لـــ(يربيه) –كما تم بيانه عند التعريف بنظام القدر-: **(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ**

---

[٦٥] يموت في جسمك مابين ٦٠ الى ١٢٥ مليون خلية في الثانية، أي بمعدل يزيد عن ثلاثة مليارات خلية في الدقيقة، ويتم تعويضها بخلايا جديدة، فتأمل سلطان التغيير!.

نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ* لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) (الحديد: ٢٣)، وهذا الفهم يرسخ في القلب (القناعة) العاقلة في التعامل مع **ما كان** من أقدار: صبراً على ما لا يحب، وشكراً على ما يحب، مع الرضا بما سبق في قضاء الله من أمر، ومن دون هذه (القناعة) في التعامل مع الماضي تتعرض النفس لانتكاسة عند (المصيبة)، حينما يسيطر عليها **الحزن على ما مضى**، وما يورثه من جزع يشل النفس ويجمد القدرات ويفسد القدرة على الاحتفاء -في حدود الحاضر- بالحياة، مثلما يفسدها **القلق مما سيكون في المستقبل**.

أحـــوال الناس عنـــد المصـــائب[٦٦]:

لقد مضت سنة الله الكونية العامة في الخلق: أن كل واحد منهم محفوظ حفظاً كونياً عاماً عن أن يصيبه ما لا يريده له ربه مطلقاً: (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) (الطارق: ٤)، مثلما مضى قضاؤه في فتنة كل من ادعى الايمان واختباره[٦٧]:

---

٦٦ يفتن العبد بالمصائب ويبتلى بها، ويؤلمه **بؤس الفقر بنقص المال؛ والضر بالعافية وحلول المرض بالبدن؛ وفقدان الأمن بالخوف والقلق**؛ وهذه هي **مواطن الابتلاء الثلاثة** التي يفتن فيها -أو في بعضها- العبد، وقد مدح الله عباده الصابرين على ما يقدره عليهم في كل منها: (وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ) (البقرة: ١٧٧)، وإلى هذه المواطن يشير حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (**من أصبح آمنا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**) -رواه الترمذي في سننه والبيهقي في الترغيب والترهيب-.

٦٧ قد علمت مما مر في بيان أنواع السنن القدرية التفريق بين (القضاء الديني) الواجب على العبد الرضا به واتباعه: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) (الاسراء: ٢٣) أي أمر، وبين (القضاء الكوني) الذي هو من السنن الإلهية الكونية العامة: (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ) (العنكبوت: ٢)، حتى إذا أراد الله لهذا (**القضاء**) السابق بالفتنة أن يظهر أثره بالأمر (**المقضي**) ليقع على الناس بإذن الله: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) (التغابن: ١١)، صارت **أحوال مدعي الإيمان من الناس على أنواع ثلاثة بحسب موقفهم من (القضاء) ومن (المقضي)**:

الحال الأول: السخـــط على (القضـــاء)٦٨: وهو حال مرضى القلوب من مدعي الإيمان بالله، وفيهم من النفاق بحسب قوة ذلك المرض أو ضعفه، فيغلب على الواحد منهم الجزع عند حصول المصيبة –وهو شدة الحزن الذي يقطع صاحبه

يَوْمَيْنِ) (فصلت: ١٢)، وهذا النوع من القضاء ينقسم إلى قسمين: (الأول): ما كان موافقاً لما يحبه العبد مما يوافق حاجته ومراده وشهوته، كالصحة والغنى والعافية واللذة وهو أمر لازم بمقتضى الطبيعة، و(الثاني) : ما جاء على خلاف مراد العبد ومحابه، ولا يدخل تحت اختياره، وهذا هو القسم المقصود بيانه هنا.

٦٨ فرق الإمام القرافي بين القضاء والمقضي، وبيَّن أن (المقضي) و(المقدور) أثر (القضاء) و(القدر) فـــ (إذا ابتلي الإنسان بمرض فتألم من المرض بمقتضى طبعه فهذا ليس عدم رضا بـــ(القضاء) بل عدم رضا بـــ(المقضي)، وإن قال: (أي شيء عملت حتى أصابني مثل هذا؟)، و(ما ذنبي وما كنت أستأهل هذا؟)، فهذا عدم رضا بالقضاء **ونحن مأمورون بالرضا بالقضاء**، ولا نتعرض لجهة ربنا إلا بالإجلال والتعظيم، ولا نعترض عليه في ملكه، وأما أنا أمرنا بأن تطيب لنا البلايا والرزايا ومؤلمات الحوادث فليس كذلك، ولم ترد الشريعة بتكليف أحد بما ليس في طبعه، ولم يؤمر الأرمد باستطابة الرمد المؤلم ولا غيره من المرض، بل ذم الله قوما لا يتألمون ولا يجدون للبأساء وقعا فذمهم بقوله تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) (المؤمنون: ٧٦)، فمن لم يسكن ولم يذل للمؤلمات ويظهر الجزع منها ويسأل ربه إقالة العثرة منها فهو جبار عنيد بعيد عن طرق الخير)، أنوار البروق في أنواع الفروق: ٢٢٩/٤– أحمد بن إدريس القرافي– عالم الكتب– بيروت.

عن الصبر وعن احتمال ما حصل من الأمر المؤلم-، مثلما يغلب عليه منع البذل والعطاء وقلة الشكر عندما يصيبه الخير: (إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً) (المعارج: ٢١)، فيصيبه **اليأس** عند المصيبة وشدة التحسر على الماضي، مثلما يكون حاله الإعراض عن ربه عند النعمة: (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً) (الإسراء: ٨٣)، وبمرض القلب هذا تغيب المقاييس الصحيحة لقرب العبد من الرب عنده: (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ* كَلَّا)[٦٩] (الفجر: ١٧)، ويكون حاله **السخط على** (**القضاء**) الإلهي إن كان فيه ما لا يحب: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) (الحج: ١١)، وهو حال المنافقين المتحيرين بين السير على هدى نور الحق وبين الوقوف عن ذلك السير عند ورودهم أثقال تكاليف الإيمان: (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا) (البقرة: ٢٠).

الحال الثاني: الرضا بـــ(القضاء) والصبـــر على (المقضي): وهذا حال أهل الإيمان، الذين صدقوا بما كان من سابق القضاء الإلهي، واطمأنوا إلى حسن تدبير الله وتربيته لهم بما يشاء، وأيقنوا بحفظ الله لهم عن ما لم يسبق فيه القضاء: (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (التوبة: ٥١)، ويتجنبون بحسن الطاعة البلاء: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ

---

[٦٩] كلا: ردع وزجر وإبطال لقول القائل، وذلك نقيض (إي) في الاثبات، وانظر مفردات الراغب الأصفهاني: مادة (كلا).

أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى: ٣٠)، وهم يعلمون أن الأمر بيد الله وحده: (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الأنعام: ١٧)، فيحسنون اللجوء إليه وحده بالدعاء: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ) (النمل: ٦٢)، وهم موقنون بأن لا يأس من فرج الله مهما اشتد البلاء: (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) (يوسف: ١١٠)، ثم انهم يرجعون الأمر المقضي كله إلى ربهم كما كان منه بدء القضاء: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (البقرة: ١٥٦)، وبهذا الإيمان والتسليم فيما لا قدرة لهم على معرفة حكمته ودفعه من (القضاء) يثني عليهم ربهم ويرحمهم: (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) (البقرة: ١٥٧)، ويلهمهم الله ويهديهم إلى ما يحبه من الصبر[٧٠] على (المقضي): (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (التغابن: ١١)، ويوفقهم إلى الصبر على الاجتهاد في دفع ما يقدرون على منازعة تأثيراته بعد وقوعه، بالإصلاح وإعادة بناء ما تهدم بالمصيبة من الأشياء والعلاقات: (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ) (هود: ٨٨)، وهم يصبرون صبراً أشد في دفع ما يسخط الله من الظلم والفسوق والعصيان: (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً) (الأحزاب: ٢٢)، ويثبتهم على هذا الصبر في سبيل دين الله

---

[٧٠] الصبر: هو حبس النفس على ما تكره؛ ابتغاء مرضاة الله، والصبر نوعان، الأول: صبر على (التسليم) فيما لا قدرة على دفعه –كالموت–، والثاني: صبر على (دفع) ما يقدر على مدافعته –كالمرض–.

سنن إلهية اختصها ربهم بمن يحبه من العباد: (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً* وَأَكِيدُ كَيْداً) (الطارق: ١٦)، وفوق هذا المدد الإلهي يثيبهم الله بما صبروا أعظم الثواب: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (الزمر: ١٠).

الحال الثالث: الرضـــا بـــ(الله): وهذا حال خاص يشرف الله به من يختاره من العباد الذين هاجروا بقلوبهم إلى الله، وارتقوا في درجات شدة الحب: (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ) (البقرة: ١٦٥)، حتى يفنوا بحب ربهم وذكره عن كل ما سواه، فيذهلهم الحب عن حظوظ نفوسهم، وينسيهم الألم، مثلما حصل مع النسوة اللائي رأين يوسف وقطعن أيديهن: (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) (يوسف: ٣١)، وهذا إن حصل في حب عبد فهو في حب الله حاصل بطريق الأولى، فالعبد حين يحب الله هذا الحب يأنس قلبه بربه، ويستغرقه الرضا بما يكون من اللذة والألم من المحبوب، فيرضى بالله وبما يكون من الله: (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) (النساء: ٧٨)، وهذا حال مراد إن لم يعطل صاحبه – بذهوله- عن العدل والاصلاح الذي يحبه الله من عباده، فالأصل فناء العبد في تحقيق ما يحبه الله، وفناء مراده في مراد الله، فباب الحب الحق: (اتباع الحق): (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (آل عمران: ٣١)، وهو اتباع لا يخشى معه محب الخالق أذى الخلق: (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ) (المائدة: ٥٤).

إعلم: ان الله تعالى قد نهى عن الحزن: (وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران: ١٣٩)، لأنه لا يدفع ضرراً ولا يجلب

نفعاً[71]، ولا فائدة من البكاء على الأطلال، وإنما الأولى رفع الحطام والشروع بالبناء من جديد، وأنت تعلم أن ربك حكيم عليم، وقد يخفى عنك من لطائف حكمة تقديره ما لو عرفته لأبدلك حزنك فرحاً بما قضاه لك: (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) (البقرة: ٢١٦)، وفي حال موسى مع العبد الصالح لنا عبرة –في المواقف الثلاثة التي خفيت فيها عليه حكمة التقدير–، وهو حالنا في قلة الصبر على ما لا نعلم حكمته: (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً) (الكهف: ٦٨)، ثم إن المصيبة مهما عظمت فإنها من شؤون الدنيا التي تؤول إلى نهاية، **ولا خلود فيها**: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ) (الأعراف: ٣٤)، ومهما كان الضرر كبيراً فإنه يمكن تحمله **حين تقيسه بمقياس الخلود**: (فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) (طه: ٧٢)، ومهما عظمت المصيبة في وقت؛ فإن من رحمة الله بنا أن تكون أحوال الرخاء في الحياة أكثر من أحوال البلاء، وأن البلاء يكون بـــ(**شيء**) من مواطن النعم: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) (البقرة: ١٥٥)، وأن دوام النعم –وهو الأصل–

---

[71] قال ابن تيمية رحمه الله: (وأما (**الحزن**) فلم يأمر الله به ولا رسوله بل قد **نهى عنه في مواضع وإن تعلق بأمر الدين** كقوله تعالى: (وَلا تَهِنُوا **وَلا تَحْزَنُوا** وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران: ١٣٩) وقوله: (**وَلا تَحْزَنْ** عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) (النحل: ١٢٧) وقوله: (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ **لا تَحْزَنْ** إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) (التوبة: ٤٠)، وقوله: (**وَلا يَحْزُنْكَ** قَوْلُهُمْ) (يونس: ٦٥)، وقوله: (**لِكَيْلا تَأْسَوْا** عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) (الحديد: ٢٣)، وأمثال ذلك كثير، **وذلك لأنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به**)، مجموع الفتاوى: ١٠/١٦.

مرهون بالثبات على الحق: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٥٣)، وأن الله عفو رحيم: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠).

وإذا كان **الحزن** على المصيبة **في الشر** يضعف الهمم، فإن **عدم القناعة** بما سبق فيه القضاء **في الخير** من قسمة الأرزاق يورث الاحباط والتحاسد، والعبد المفلح يستقر في قلبه الإيمان بالرزاق الواحد لكل الكائنات، الذي لا ينسى أحداً: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (هود: ٦)، ويعلم أنه قد سبق منه القضاء –في السنن الإلهية الكونية العامة– في نسبة ما يكون لكل عبد من الرزق في أرض الابتلاء: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: ٣٢)، وأن هذا القسم مترل بقدر يتناسب وما يصلح العباد: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (الشورى: ٢٧)، وبه يكون لك قسمك المناسب من الثراء أو الشهرة أو السلطان أو العلم أو العافية وما سواها؛ بالقدر الذي يصلحك ويصلح لك، وربك هو الخبير بدقائق شأنك البصير بما يكون منك، وهو الأعلم بما ينفعك من مقادير يقدرها عليك تعريفاً لك به وسعياً بك إليه، والأولى بك القناعة بما آتاك –بعد سعيك بكل ما أوتيت– وهذا حد تكليفك: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (النساء: ٣٢)، وأنها مشيئة الله الذي بيده وحده ومنه وحده الفضل كله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الجمعة: ٤).

لقد أخبر الله نبيه صلى الله عليه سلم أنه من **سنة الله الثابتة في البلاء: رفع البلاء**: (أَلَمْ[72] نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ* وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ* الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) (الشرح: ٣)، وبذلك فإن البلاء مهما اشتد –بعد وقوعه– فهو حتماً مرفوع، وهذه سنة قائمة في الحياة لا تتخلف -إلا أن ينتهي العمر بأجل الموت-، ثم إنه من كمال رحمة الله بعبده أن **يحيطه بألطاف لا تنتهي** وهو في خضم البلاء: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً) (الشرح: ٦)، ولو تأملت حالك وأنت تعيش ظرف أي بلاء لعددت ألواناً من تلك التيسيرات والألطاف، تحس معها بمعية ربك الرحيم وهو يبتليك ليُرَقِّيك، وإنما مقصود البلاء تربية العبد على استجماع نفسه –عند البلاء كما عند الرخاء– ليرغب بكله إلى الله وحده، ربه ورب البلاء ورب الرخاء: (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ* وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) (الشرح: ٨).

إن البلاء يهدف إلى تذكيرك بما في الحياة من نقص، وبما تؤول إليه من الزوال، وإن الرضا بالقضاء ومدافعة الحزن عند حصول ما لا تحب، مع ترسيخ القناعة بما أوتيته مما تحب، يعينك على تجنب الفشل في فهم سير الأحداث فيها، وينمي فيك فنون تجاوز الخسائر الآنية، وأنت موقن بأن لا ضمان لبقاء حال في الدنيا، وإنما الحال الوحيد الثابت هو حال معية الله لك في الدنيا وبعد الدنيا: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) (النحل: ١٢٨).

وبين الأمل بفضل الله الذي يورثه (إحسان الظن بالله)، وبين التقدير الواقعي لمعطيات حياتك الذي يورثه (الرضا بالقضاء)، تترسخ في القلب قناعة سمحة بما

---

[72] أي: قد شرحنا الصدر ورفعنا الوزر من قبل، وسنشرح كما شرحنا، ونرفع الوزر كما رفعنا، فهذه دعوة للاعتبار.

يواجهك من مقادير، تعينك على أن تصنع من المحن منحاً، وأن تحول خسائرك إلى مكاسب، إذ إن قيمة الفتنة ومواقف الألم تكمن في كونها تستفزك وتقدح الطاقات لترقيك إلى مراتب في العلم والعمل لم تكن لترقى إليها من دون هكذا استفزاز لقدراتك، ترتقي به كل الحياة[٧٣].

وطِّن نفسك على حسن التأقلم مع (التغيير) وشهود تجلي صفة الله (الحي) فيما خلق، وقراءة باطن الحكمة فيما يقع، فإن الوجود كله في تغير وحركة دؤوب لا تفتر: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) (إبراهيم: ٣٣)، وعلامة الحياة تغير مستمر، لا توقفه دموعك ولا تستبطئه أمانيك،

---

[٧٣] ومن محاسن زماننا أننا نعيش في عهد تطورت فيه علوم الإدارة وتنظيم الجهد الإنساني، ومعها نضجت فنون مواجهة المشكلات، بخطوات عملية محددة، تضمن أفضل أداء ممكن لمواجهة **حل مشكلة قائمة، أو التعامل مع مشكلة طارئة، أوالقلق من مشكلة محتملة**، وكمثال على هذه الخطوات:

- في حالة التعامل مع مشكلة **قائمة** فإن أفضل السبل للوصول إلى حلها تتمثل بأربع خطوات بسيطة: ١- تعريف المشكلة بدقة، ٢- تحديد أسبابها، ٣- استعراض كافة الحلول الممكنة، ٤- اختيار الحل الأفضل.

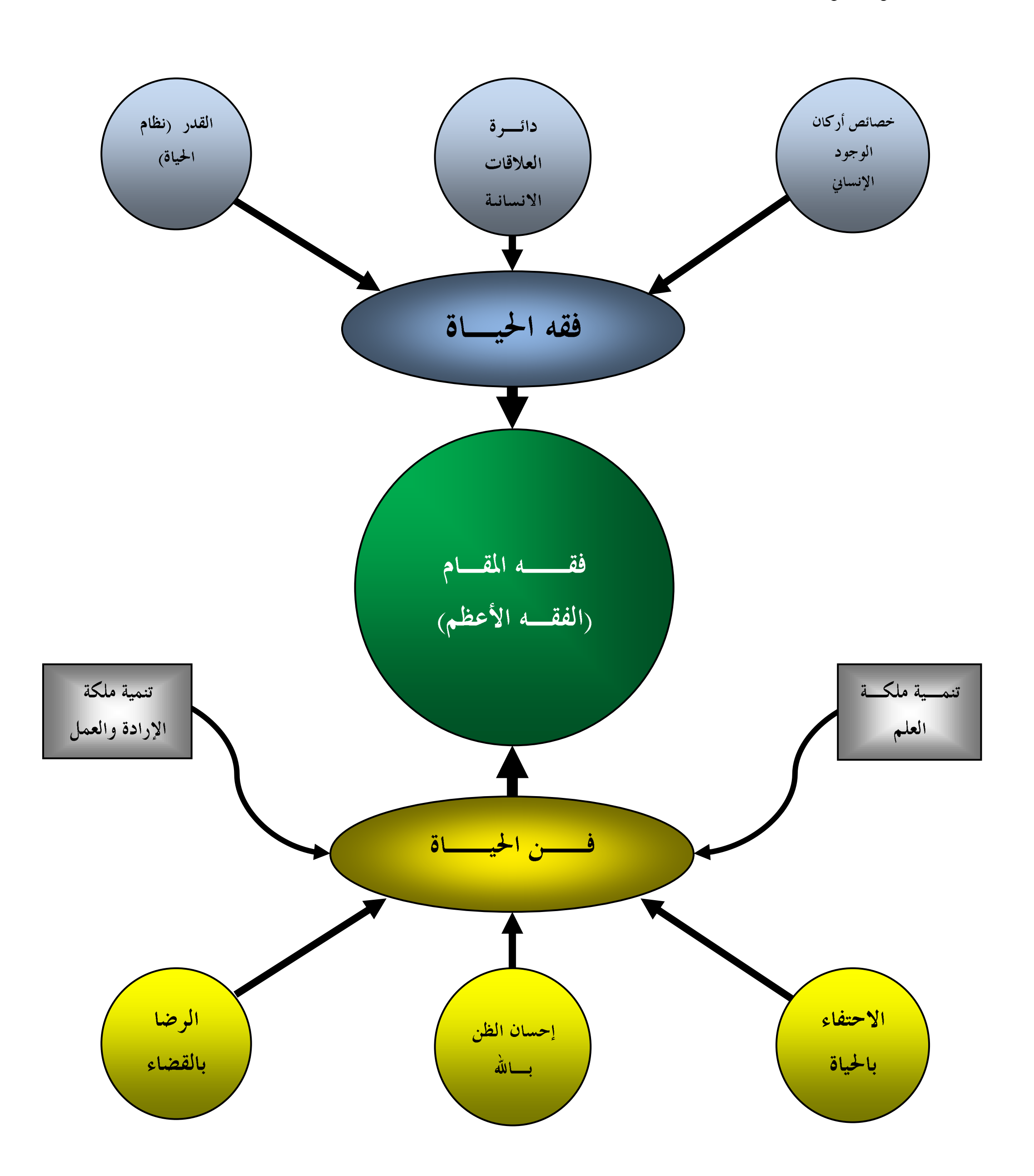
-وأما عند التعامل مع بلاء ومشكلة **طارئة**، فالموقف يقتضي أربع خطوات تتمثل بـــ: ١-وصف الأضرار بدقة، ٢- تقدير الحد الأقصى للخسارة، ٣- تقدير التأثيرات الجانبية أسوأ ما يكون، ٤- إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

-وأما عند مواجهة **القلق** من احتمال حصول أمر معين أو عدم حصوله، فالخطوات الأربع تتمثل بـــ: ١- تعريف الوقائع المتعلقة بالأمر بدقة، ٢- تحليل الحقائق والفصل بين الحقائق والعواطف ٣- الاستعانة بالاحصائيات لتقدير إحتمال حصول الأمر المقلق، ٤-اتخاذ قرار حاسم بالتدابير اللازمة مع العمل به.

فلا تضيع الوقت بالتباكي والحزن على ما فات، ولا بالتذمر وعدم القناعة بما قسم، وإنما اصرف الجهد في إصلاح ما انكسر وتعويضه، والارتقاء بما أوتيت وتنميته، بحركة دؤوب تغير ما فيك ليتغير ما فيك.

إن (فن الحياة) وفق هذه القواعد الثلاث يثمر: (الاحتفاء بالحياة) بلغة سهلة يفهمها المخلوق الصغير وهو يتمتع بما آتاه ربه الكبير؛ و(إحسان الظن بالله) بقلب نقي يعرف معنى الحب، ويشهد حب الله لمخلوقه الجميل، في كل ما أسبغه عليه من نعم ظاهرة وباطنة، و(الرضا بالقضاء) بعقل واسع يعرف قدر نفسه ومعنى فقره المطلق إلى الله؛ ويعرف ربه العظيم وغناه المطلق عنه؛ ويعلم أن شأنه كله من الله بدأ وإليه ينتهي، فيرجع إلى الله تدبير كل شأنه، ويرضى بالله وبما يكون من الله اللطيف الخبير.

إن الاحتفاء بالحياة وحسن تقدير ذاتك الانسانية يقودانك إلى التوازن في (الحاضر) وحسن التعامل مع ما هو (كائن)، بما تستحقه منك الحياة من عمل صالح وتمتع صادق، وإن حسن الظن بالله سبيلك إلى الثبات ودفع القلق من (المستقبل) وعما (سيكون)، وإن الرضا بالقضاء وحسن التأقلم مع التغيرات يدفع عنك الضعف والحزن على (الماضي) وما (كان)، ويعينك على التعامل بحكمة مع الواقع، والرضا بما يكون.



القدر (نظام الحياة)
دائــرة العلاقات الانسانة
خصائص أركان الوجود الإنساني
فقه الحيــاة
فقـــه المقــام
(الفقــه الأعظم)
تنمية ملكة الإرادة والعمل
تنمــية ملكــة العلم
فـــن الحيــاة
الرضا بالقضاء
إحسان الظن بــالله
الاحتفاء بالحياة

الفصل الثاني

-حـــب الحيـــاة-

> **إن حب الحياة –من حيث كونها طبقاً من أطباق وجودنا– هو حب لفرصتنا الأولى في الوجود، وحب لهذا الوجود الجميل بحب خالقه الجميل، وهذا الحب فطرة أصلها شهود القلب لتجلي صفات ربنا الجميل.**

(إن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة)[٧٤]، (فبالمحبة وللمحبة وجدت الأرض والسماوات، وعليها فطرت المخلوقات، ولها تحركت الافلاك الدائرات، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها، واتصلت بداياتها بنهاياتها)[٧٥].

فالحب: الميل الدافع لكل حركة في الوجود، و**القلب**: محل الحب، وهو موضع توجه النية وفق هذا الحب، حيث يميل الحب بالقلب إلى مراد معين، فتنجذب النفس بهذا الميل وتتوجه إلى حيث يدفعها، ومع تقلب القلب في ميله تتقلب النفس بين مختلف المرادات، وأعظم الحب حب الله: **(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ)** (البقرة: ١٦٥)، وأعظم ما يميل إليه القلب (نور ربه): **(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)** (النور: ٣٥)، ومثلما أن العبد مفتقر في وجوده إبتداءاً إلى مدد الله الكوني، فإن فطرته وهويته فقيرة بالطبع إلى مدد نوره وحبه: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)**

---

[٧٤] مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٤٩/١٠.

[٧٥] ابن قيم الجوزية، روضة المحبين: ٧.

(فاطر: ١٥)، **وهذا المدد رهن بدرجة معرفة الله، ومعرفة مراده، وبإرادة الكون على مراد خالقه وحب ما يحبه**، ومعها تتنوع أحوال صحة القلوب ومرضها:

فالقلب السليم: يميل إلى حيث يحب الله، ويخشع ويستقر في التوجه إلى كل مراد لله، وتتفتح بصيرته بتلقي النور بمدد يزداد باستقامة القلب ولزومه مراد الله: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ (الحديد: ٢٨).

والقلب المريض: يميل ويزيغ عن ما يحبه الله، ويتقلب في زيغه في ما سوى مراد الله، ويزداد مرضه كلما ازداد ذلك الزيغ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصف: ٥)، ويثمر هذا الميل عمى في بصيرة القلب بانقطاع مدد النور، وفراغاً ووحشة في النفس تموت معهما كل معاني الأشياء، فلا يعود لشئ قيمة، وتفقد النفس معه حتى قيمة نفسها عند نفسها: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور: ٤٠).

فأعظم غايات الحب أن يكون دافعاً لأن يكون العبد على مراد الله: يجتهد لمعرفة هذا المراد، ويضع نفسه حيث يريد ربه، كما يريد ربه، حين يريد ربه، متحققا بذلّ أن الكل من عند ربه.

- **حب الحيـــاة:**

إن الوجود نعمة عظيمة مَنَّ الله بها على كل موجود، والحياة هي مرحلة طيبة من مراحل وجود كل منا، امتن الله تعالى علينا بما وهبه لنا فيها من خيرات وجعل علامة الإيمان النظر في عجيب خلقتها وشكر المنعم: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ٩٩)، وإن كل ما في الأرض مخلوق لنا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (البقرة: ٢٩)، وهو جزء مما بثه ربنا من خيرات كلها مسخرات لبني آدم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) (الجاثية: ١٣)، تحوطنا معها النعم من حولنا من كل جانب: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (النحل: ١٨)، والتعرف على هذه النعم دافع أصيل لمعرفة الخالق (الجميل) الذي ظهرت تجليات جماله في مخلوقاته، ومعرفة الواهب (الكريم) التي ظهر عطاؤه في عظيم ما أسدى من نعمائه.

إن حب الحياة –من حيث كونها طبقاً من أطباق وجودنا– هو حب لفرصتنا الأولى في الوجود، وحب لهذا الوجود الجميل بحب خالقه الجميل، وهذا الحب فطرة أصلها شهود القلب لتجلي صفات ربنا الجميل (**ذي الجلال**) في ما خلق فيها من زينة وجمال، فنحبها بحبنا وشوقنا لله الذي خلقها وخلق هذا الجمال، ويكمله حب أصله الامتنان للنعم التي صنعها لنا ربنا (**ذو الإكرام**) فيها، وما بث فيها من مظاهر رحمته، وفي هذا الحب للحياة وللنعم التي فيها إظهار للعبودية وللفقر إلى الله الذي فلقنا بسر نوره من ظلمة العدم: (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً) (مريم: ٩)، ويحفظ كل موجود في كل لحظة بما يمده للبقاء في هذا الوجود: (إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) (هود: ٥٧)، وهو حفظ هين على الله الحي القيوم: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا) (البقرة: ٢٥٥)، وبهذا الشهود للجلال وللجمال تتفتح بصيرة القلب لتلقي أطيب نفحات الحب.

وهو حب لا يغفل طبيعتها من حيث كونها مستقراً مؤقتاً: (قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) (الأعراف: ٢٤)، وحتمية نهايتها بالموت: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (العنكبوت: ٥٧)، فقد جعل الله لهذا العمر أمداً محدداً، نحن نعلم أننا سنموت بعده حتماً، وأن لكل منا موتاً واحداً لا يتكرر، يذهب إليه وحيداً بلا أي شئ مما امتلكه

في الحياة، وذلك في أَجَل قد يحين في أي لحظة، ومن ثَمَّ **فنحن حتماً سنغادر حياتنا (الجميلة) يوماً ما إلى حيث موتنا (الجميل)**، وهذه الحقيقة يريد لها القرآن أن تستقر في الوعي: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً) (الكهف: ٤٥)، فمهما تزينت الحياة فهي إلى اندثار: (كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً) (الحديد: ٢٠)[٧٦]، وثمرات ما فيها محدودة: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ) (الحديد: ٢٠)، وحالها لا يدوم مهما بلغ فيها التمكين: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (يونس: ٢٤)، وهذا كله واضح في بيان حتمية انتهاء الفرصة الممنوحة لنا فيها، ومن ثَمَّ فهي إلى نهاية، وهي قائدة إلى بداية جديدة عند الموت، ولكن ذلك لا ينفي مشروعية إعطائها قدرها وحبها وحب ما فيها ما دمنا فيها، كما أننا سنحب فرصة وجودنا المؤقت في البرزخ ما دمنا فيه، فنغادر الحياة بهدوء مطمئن إلى سعة رحمة الله وحسن تدبيره لكل شؤون العباد، **فحب الدنيا وحب الموت وحب الآخرة مجموعاً هو فطرة ورحمة وخير إذ يقودنا التمتع في كل فرصة منها إلى شكر المنعم وحبه تبارك وتعالى، ومثلما كان الكل من عند الله؛ فإن المسلم يجعله كله لله بهذا الشكر:**

[٧٦] يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)، رواه الترمذي.

(قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (**الأنعام: ١٦٢**).

• ضوابـــط في حب الحيـــاة:

إن القرآن لم يدعُ قط إلى بغض الحياة، وإنما قصد إلى ضبط حبها بضابطين، **الأول أن يكون حباً مقترناً بمعرفة قدر الحياة**؛ وكونها –مع جمالها– فرصة وعي وإعداد مؤقتة، فهي ليست نهاية المطاف ولا يجوز الرضا والاطمئنان إليها وحدها، **والثاني أن يتكامل هذا الحب مع حب ما بعدها من أطباق الوجود**، ولا يتناقض معه فيفضلها عليها، ومن ثَمَّ فقد حذر من اعتبارها الموضع النهائي والوحيد للوجود الإنساني، وبين بجلاء أنها حلقة من سلسلة أطباق وأحوال تتتابع وتتجه نحو كمالات أعظم وأعظم في المراحل التي تليها من (أطباق) وجودنا، كما كانت هي أعظم من التي سبقتها، في ظل العبودية الصادقة لخالقها: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً) (النساء: ١٣٤).

ومثلما تكتمل عند بلوغ الانسان من النعم ما لم يدركه طفلاً –مع كل ما في الطفولة من جمال–، تتدرج نعم الله التي لا تنتهي في ورودها على العبد، في هذا الحياة وبعدها، وهذا وعد الله لمن أصلح: (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل: ٩٧)، فهو وعد الجزاء في الدنيا قبل الآخرة: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (النحل: ٤١)، وقد كان جزاء خليل الله إبراهيم من قبل: (وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) (النحل: ١٢٢)، وقد

أعلمك ربك بأن لك في الدنيا نصيباً لا ينقص منه نصيبك في ما بعدها: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) (القصص: ٧٧)، فهما نصيبان متكاملان أمرك معهما بسؤال أن تكون لك الحسنى في الدارين: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً) (البقرة: ٢٠١).

إن القرآن ينهى عن الرضا والاطمئنان بالحياة وحدها وتناسي الآخرة: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ* وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ) (القيامة:٢١)، أي أنه حذر من أحوال الراضين بها دون ما بعدها: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (الجاثية: ٢٤)، وهذه من سذاجة عقولهم وقصورها، وغفلتها عن عالم غيبي منه قدمت وإليه تعود: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) (الروم: ٧)، وهي عودة في يوم قادم أكيد: (وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) (الانعام: ٣٠)، وإنما هم قد استنفدوا نصيبهم في حياة نسوا فيها ما بعد الحياة: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) (الأحقاف:٢٠)، وإن من سنة الله في خلقه أن يؤتي العباد ثمرات أعمالهم على قدر أعمالهم ونياتهم: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (هود: ١٦)، وهؤلاء هم أشد الخلق خسراناً: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ وَزْنًا) (الكهف: ١٠٥)، وقد توعدهم رهم بيوم ثقيل بما غفلوا: (إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا) (الانسان: ٢٧)، وبما اطمأنوا لدنيا علموا يقيناً أها مؤقتة: (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ* أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (يونس: ٨)، وفي ذلك اليوم الثقيل ينسون الحياة الأولى، فلا حياة إلا حياة الآخرة: (يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) (الفجر: ٢٤)، حيث يوفي الله مريد الدنيا لذاها نصيبه من عمله في الدنيا وينقطع بعدها نصيبه بما نسي ربه وآيات ربه: (قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) (طه: ١٢٦).

ومثلما نهى عن الرضا بالدنيا وحدها، فقد حذر من استحباها على الاخرة:[٧٧] (وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) (إبراهيم: ٣)، أو تفضيلها عليها: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ* وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ) (القيامة: ٢١)، بعد أن بين وزن الحياة النسبي ومحدودية مدها إلى ما سيأتي من وجود جميل٧٨: (وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا

---

[٧٧] وحذر من الجمع بين حبها وكراهية الموت الذي يلحقها، الوارد في تعريف النبي صلى الله عليه وسلم للضعف والوهن حين ينخر في جسم الأمة بأنه: (حب الدنيا وكراهية الموت)- جزء من حديث رواه أبو داود-، وأما حبهما مجموعاً فلا يدخل في هذا التحذير.

[٧٨] وهو ما يبينه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع؟)- رواه الإمام مسلم في صحيحه، والترمذي، واللفظ للترمذي - ، ومثله ما ورد في بيان أن قدرها هين عند خالقها -كما هو قدر الوجود كله مع موجده من

مَتَاعٌ) (الرعد: ٢٦)، فلا يقاس المستقر بالذي ليس فيه قرار: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآَخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) (غافر: ٣٩)، وإن طبق الوجود الأخير أبقى وأكثر دواماً من طبق هذه الحياة: (وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) (الأعلى: ١٧)، ذلك أنه لا يمكن وضعهما في ميزان واحد، إذ إن كل جمال الحياة الدنيا وحبها يجب أن لا يطغى على نصيب الحياة الآخرة، ويضيعه من خلال الظلم والافساد في الأرض، لاسيما أن وزن هذه الدنيا بكل جمالها لا يقاس إلى كثافة جمال وجودنا النهائي: (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت: ٦٤)، وإذا كانت (زينة الله) التي أخرجها للناس في هذه الدنيا بكل هذا الجمال (متاعاً قليلاً) بالقياس إلى زينة الآخرة: (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً) (النساء: ٧٧) فكيف بزينة ما بعدها: (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) (آل عمران: ١٥).

ومع هذين الضابطين لحب الحياة، لا يغفل المسلم ما في الدنيا من الألم والمرض والقسوة والظلم وسائر الشرور، ومن المحن التي تصقل روح العبد، ويربيه بها ربه كما تربيه المنح واللذات، والتي جعل الله فيها من العبر ما يلهم القلب معرفة القدر الذي يضبط به نفسه من حبها، وإنما هذا كله من طبيعة التحدي القائم فيها، الذي يحفز طاقات إرادة الخير والاصلاح في النفس، فالمسلم إنسان فقه مقامه في الوجود فعَبَّدَ نفسه لربه، وباع نفسه وماله لله: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ) (التوبة: ١١١)، ولن يتردد لحظة في بذلهما في سبيل

عدم- في قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء)، رواه الترمذي .

تحقيق ما يحبه الله من الخير والرحمة والعدل والاصلاح، لأننا نحب الحياة لا لذاتها، ولكن لكونها مظهراً من مظاهر تجليات صفات خالقها، وحبنا له أعظم من حبنا لها، فنبذل حياتنا وما فيها بكل حب تحقيقاً لما يحبه هو منا، فهو حب لا يتردد معه المحب بالتضحية بحياته وما فيها في سبيل من أحب الحياة لأجله.

إن حياتنا هنا مع كل ما فيها من لذة وخير وسعادة؛ تعد سجناً بالقياس إلى ما سيأتي من نعيم قادم: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)[٧٩]، فهي سجن للمؤمن بالقياس إلى ما سيراه بعدها من لذة في البرزخ وعند لقاء الله، وهي جنة للكافر بالقياس إلى ما سيراه بعدها من ندم وألم في البرزخ، ثم في يوم يحجب عن الله، **ولكنها في كل الأحوال سجن مزين جميل، أودع فيه من نعم الله ما لا يحصى**، وفيها من إمكانات التعرف على الله الحق، وعلى طيب بعض أرواح الخلق، ومن فرص إحقاق الحق وإقامة العدل وتطوير البر والبحر وصناعة الجمال؛ وما لا ينتهي من الخيارات: ما يجعلها تستحق الحب منا، ويجعلنا نستحق منها أن نبتهج فيها: (**فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ**) (النمل: ٦٠)، ونشكر ربنا الجميل على خلقنا فيها.

- **التمتــع بنــعم الحيــاة:**

لقد كان من شأن آدم عليه السلام إذ أسكنه الله الجنة -مثلما استخلفني واستخلفك إلى حين في الأرض- **أن أباح له ما في الجنة ونهاه عن شجرة واحدة منها**: (**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**) (البقرة: ٣٥)، وقد كان من كمال عبودية آدم لربه أن يأكل فيها وزوجه حيث يشاء -سوى ما حرمه عليه-، فقد خلقه ربُّه مفتقراً إلى نعمة ربِّه، وإن تناول النعمة: امتثال لأصل خلقته وإقرار

---

[٧٩] رواه الإمام مسلم في صحيحه، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

بافتقاره إلى ربه، ولو أنه داوم على التنعم بما فيها حيث يشاء وانتهى عن الشجرة المحرمة لكان من أعبد ما يكون، وما أخرجه ربه من الجنة، وإنما كانت معصية آدم عليه السلام أن أكل -بما أغواه الشيطان- من الشجرة المحرمة الوحيدة: (فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) (طه: ١٢١)، وقد كان كل ما في الجنة مباحاً له، وإن امتثاله للنهي عن قرب تلك الشجرة الوحيدة قد كان يعني استحقاقه سكنى الجنة إلى الأبد.

ولقد خلق الله للناس الأرض وبث فيها من كل شئ: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً) (البقرة: ٢٩)، ثم قضى الله بنــزول آدم وبنيه إلى الأرض وجعلها مستقراً مؤقتاً لهم وأنزل لهم هداهم: (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة: ٣٨)، فأمرهم ونهاهم: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (البقرة: ١٦٨)، واتباع خطوات الشيطان متمثل بفعل ما نهى الله عنه: (وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) (النور: ٢١)، وهو أمر يستحق عليه فاعله العقوبة -بما أخطأ كما أخطأ أبوه آدم من قبل إذ لم يمتثل للنهي-، وفي نفس الوقت: **فإن المسلم إذ يتناول غير المحرم من المباح -من كل نعم الحياة- فإن فعله متضمن للامتثال للنهي عن تناول المحرم**، ومثلما أنه يُعاقَب على عصيان النهي، فإن امتثاله للنهي طاعة يُثاب عليها، وإن المسلم بهذا مختلف عمن سواه من الكافرين عند تناول ما خلق الله من النعم، لأنهم: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ) (محمد: ١٢)، إذ لا يَعتبر الكافر في أفعاله أمراً ولا نهياً من الخالق، وأما من أسلم وجهه لله فإن من عظيم رحمة الله به أن جعل له أبواب نيل رضا الله ممتدة إلى أخذ العبد مما خلق الله له في الأرض جميعاً سوى ما حرمه عليه.

وبهذا الأصل دعا رب العباد عباده إلى تناول ما أحل لهم من النعم مما في الأرض جميعاً وشكرها: (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (النحل: ١١٤)، ونوع لهم ألوانها وطعومها: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (الأنعام: ١٤١)، وذلل لهم الوصول إليها والحصول عليها: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) (الملك: ١٥)، ونهاهم عن تحريم ما أحل لهم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (المائدة: ٨٧)، لأن به دوام الحياة وفيه كمال عبوديتهم، ولأن حب النعم طريق لحب الحياة وحب المنعم، وبهذا الحب، وبهذا الفقر والفاقة الفطرية إلى النعم ناشد الأنبياء ربهم توسيع الأرزاق: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ) (البقرة: ١٢٦).

وقد جعل الرب الكريم وفرة النعم جزاءاً لمن وفى بعهد شكر الله وطاعته: (نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ) (القمر: ٣٥)، ووصف أطيب أحوال المجتمعات بوفرتها: (كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) (سبأ: ١٥)، وأمر القرية التي تتوفر فيها النعم بعبادة رب النعم: (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) (قريش: ٤)، وتوعدها بزوال النعم إن كفرت ربها: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (النحل: ١١٢)، ووعد أهل القرية

الجاحدة إن استغفرت ربها بالزيادة في النعم: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا) (نوح: ١٢)، بل بفتح بركات من السماء والأرض: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الأعراف: ٩٦)، وكذلك جعل ثمرة اتباع الأمة كتابه في الدنيا: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ) (المائدة: ٦٦)، وهذا كله من فضل رب كريم جعل (النعم) دافعاً أصيلاً لمعرفته وشكره، وشرفها بنسبتها إلى نفسه: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا) (النحل: ١٨)، فهي دالة عليه.

وبهذا المفهوم جعل الله لون فاكهة زاهٍ جميل (**آية للإيمان**)، **والنظر** إلى جمال صفرها أو حمرها عبادة و(**آية على الايمان**): (انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأنعام: ٩٩)، **وأكلها والتلذذ بها**: (**عمل صالح**)، لأنه إجراء للحكمة التي خلقت لأجلها ووضع لها في موضعها الصحيح الذي خلقت له، مادام المأكول حلالاً في ذاته ومن مال حلال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (البقرة: ١٧٢)، ثم إن في **التسمية قبل أكلها** توجهاً بالنية إلى الله واستعانة بالله **ترفعك إلى درجة الإيمان**، -مع ما فيها من بركة زائدة ونماء وإصلاح للنفس وإسهام في مهمة الحياة-،

وشكر الله بعد هذا الأكل وصول الى **درجة الاحسان** و(**الرضا**) عند الله![80]، بالتحقق في فقرك المطلق إليه وغناه عنك: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (فاطر: ١٥).

إن معرفة ربك ومعرفة نفسك، والتحقق بعبوديتك لله، وبذل الوسع للكون على مراده في استثمار مواهبك إلى أقصى حد في استكشاف قوى الأرض والسماء التي خلقها لك وتطويرها: مقصد من مقاصد وجودك في الحياة، وإن الاستزادة من هذه القوى خير ونعمة من الله وعلامة رضى من الله عن المؤمن: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) (إبراهيم: ٧)، ولو لم تكن الزيادة خيراً محضاً لما كانت جزاءاً على الشكر، ولذلك فإن الخروج عن طلب النعمة أو التقليل من قدرها إنكار للحكمة التي خلقت لأجلها، وتعطيل لدافع من دوافع شكر الواهب وحبه، ونكول عن الكون في المقام الذي أراده الله لك، ومن ثَمَّ فهو تعد على مراد الله من خلقها: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)؟؟ (الأعراف: ٣٢)، وهذا استفهام استنكاري على من حرم مجرد (**الزينة**)، **وقد شرفها الله بإضافتها الى نفسه!!**، لأنها في عرف القرآن نعمة مخلوقة لك، يبينها قوله تعالى: (قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الأعراف: ٣٢)، ومن الخطأ من ثَمَّ تعطيلها -بدعوى الزهادة- تحت وطأة الهزيمة والضعف عن تحصيلها، فضلاً عن ما سوى الزينة من طاقات في البحر والبر والسماء والنجوم والذرات!، قد جعلها القرآن عطية طيبة من ربنا الطيب في الحياة الدنيا لعباده الصالحين المصلحين: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) (الأعراف:

---

[80] وذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله **ليرضى** عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها) (رواه الإمام مسلم).

٩٦)، فحياة أي مجتمع قوامها تكوين قوة مادية تديم هذه الحياة، وإن تنظيم غريزة الامتلاك الطبيعية -كما يرضاه الله-، وجعل إرادة (التنمية) -بلا حدود- واجباً شرعياً مقدساً؛ هو السبيل للتمكين، وهو ضامن لنعمة أن تفتح بركات السماء والأرض، كما يضمن بقدر ما يُحدِث من إصلاح في الدنيا درجات أعلى في (عليين).

- **ضوابـــط التمتـــع بالنـــعم:**

مع إعلان التوحيد تدور حياة المسلم بين **شعائر واجبة التعظيم**: **(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)** (الحج: ٣٢) تصلحه وتلهمه التقوى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)** (البقرة: ١٨٣)، ليكون القرآن له هادياً إلى سبيل الله: **(ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ)** (البقرة: ٢)، وبين **أفعال** –في ما سوى أوقات أداء الشعائر– **مصلحة للحياة تنظمها شرائع الله**، وكل أفعال المكلف التي يؤديها إصلاحاً لنفسه ولما سواه مما استخلفه الله فيه هي أعمال يثاب عليها، **وإن فعل تناول النعم في وقته وفي إطار نية الأخذ بالحلال الذي أحله الله: (عبادة)**[٨١] **يثاب فاعلها**[٨٢]، وليس

---

[٨١] يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يبين كثرة طرق الخير: (**وفي بضع أحدكم أجر**)، قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر) (رواه الإمام مسلم)، **وهذا يبين أن مجرد تناول الحلال عمل صالح**، للإنسان فيه ثواب استثمار النعمة وعدم تعطيل الحكمة من خلقها، مادام قد وفى بأصل الالتزام التكليفي، **وان مجرد الإمساك عن الشر –وهو فعل سلبي– صدقة**، كما في حديث فضائل الاعمال الذي رواه الإمام مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم: (قلت يا رسول الله أرأيت ان ضعفت عن بعض العمل؟، قال: **تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك**).

[٨٢] مع أن تارك المباح أو فاعله –في الأصل– لا يعاقَب ديناً، إلا أن ما نراه الأصوب في حكمه أنه يختلف باختلاف المكلفين، فمن تصدى لشؤون الدين فالأكمل في حقه ترك المباح، ومن تصدى لشأن من شؤون الدنيا وفرض من فروض كفاياتها فالأكمل في حقه الاستزادة منه، وأداء حقوقه، وإلا فإن سنة الله قضت بتخلفه عن فرص التمكين في الأرض، لتقصيره في إصلاحها وإعمارها الذي يحبه الله، والله أعلم.

هناك فعل إنساني في الحياة بلا حساب عند الله، أو يقع بين اللاثواب واللاعقاب، لاسيما أن دائرة هذا الفعل هي دائرة الحياة الكبرى، في ظل العلم أن: (الأصل في الأشياء الاباحة)، وإن في عده هامشياً تهميشاً لمعظم تفاصيل الحياة، -إن لم يكن للحياة برمتها-، كان من ثمراته تقصيرنا عن استثمار العمر في التوغل العميق في تفاصيل طاقات الكون، أو في التفوق في ميادين الاستكشاف، فكان الحصاد في زماننا **أن همشتنا الحياة بعد أن همشنا روحها وغايتها**، ولم يعد لنا موضع بين الأمم التي لم تضيع الوقت والجهد من أجل التفوق في فن الحياة والانتفاع بمكنوناتها وبناء القوة والثروة فيها، فهزمتنا، وضاعت مع الهزيمة فرصتنا لقيادة الناس إلى الحق الجميل، لأن المهزوم لا يمكن له أن يقود المنتصر.

نحن لا نغير الحياة لأننا سنعيش فيها إلى الأبد، إذ إننا لن نعيش فيها إلى الأبد، ولكننا **نغيرها وننجز فيها لنستحق وجودنا الحالي، وما بعد طبق وجودنا الحالي من آخرة نعيش فيها أبداً**، وإن حب الحياة واشتهاء طيباتها حافز ودافع مشروع لتحقيق ذلك التغيير والانجاز فيها، ومن ثَمَّ فهو بذاته (عبادة) في وقته، كما أن إقامة الصلاة في وقتها عبادة، وإن اختراعاً يحسن حياة الناس، أو إقامة عدل أو تعاون في إقامة النظام، أو صناعة للجمال، أو العناية بمطعم جميل أو مركب جميل أو ملبس جميل، أو اسكتشاف لأرض أو لمخلوقات جديدة، لا يقل -في وقته- ثواباً عن ثواب الصيام والصلاة -في وقتها-، ما دامت فيه **لمسة إصلاح منضبطة بشرائع الله** ولا تبغي الفساد في الأرض: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (القصص: ٧٧).

ودونك بعض أهم ضوابط التعامل مع الطيبات من نعم الله في الحياة:

١. **أن تكون النعمة حلالاً في أصلها ومن مال حلال:** (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً) (البقرة: ١٦٨)، والأصل فيه ما أحله الله وحده أو حرمه: (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) (النحل: ١١٦)، فلا يتعدى حدود الله فيما يأخذ ويذر من الدنيا: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (البقرة: ٢٢٩)، ولا يأخذ مالاً بغير حق: (وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) (البقرة: ١٨٨)، ومن شر هذا المال ما يأتي من أكل الدنيا بالدين: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) (البقرة: ٧٩)، كما لا يزيد على حقه عندما يستوفيه من الخلق ولا ينقص من حق عندما يؤديه: (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) (المطففين: ٣)، ولا ينتقص من تقدير حقوقهم: (وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) (الأعراف: ٨٥).

٢. **أداء الحق الذي أوجبه الله في النعم:** (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) (الذاريات: ١٩)، مثلما يريده الله: (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (البقرة: ١١٠)، فالمال مال الله: (وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) (الحديد: ٧)، ومن أدب شكر النعمة الإنفاق منها ابتغاء رضاه: (وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ) (البقرة: ٢٧٢)، وهو يحب من

عبده أن ينفق من خير ما يحبه: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٩٢)، من دون منٍّ على الناس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ (البقرة: ٢٦٤)، **وقد وعد** بأن يخلف المنفق خيراً في الدنيا: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سبأ: ٣٩)، ويضاعفه في الآخرة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١)، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ (التوبة: ١١١).

٣. **أن تنسب النعمة إلى المنعم:** ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (النحل: ٥٣)، ولا ترى النعمة من غيره: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ (النجم: ٤٨)، ولا تنسبها إلى نفسك: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٤٩)، كما فعل قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: ٧٨)، وأنت تعلم بأن النعمة —زادت أو نقصت– فهي بتقدير من المنعم وحده: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (الحِجْر: ٢١).

٤. **أن لا تجعل ثقتك بالنعمة وتغفل المنعم:** ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾ (الكهف: ٣٥)، أو تظن بزيادة المال الأمان في الدنيا: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ* يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾

(الهمزة: ٣) أو تطغى به على الخلق -إذ تظن به استغناءك عن المنعم-: (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى) (العلق: ٨)، وأن لا تتعلق بالنعمة وتجحد المنعم: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ* وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ* وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) (العاديات: ٨).

٥. **أن تعلم أنها ليست مقياس الكرامة عند الخالق**[٨٣]: (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ* قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ* وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى) (سبأ: ٣٧)، وإنما هذا ظن من في قلبه مرض: (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ* كَلَّا) (الفجر: ١٧)، والحق أن كرامة الخلق تقاس عند ربهم بمقياس واحد: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات: ١٣).

٦. **أن لا تجعلها مقياساً لمنازل الخلق عندك**، فلا تقيس عظمة الناس بأموالهم: (وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (الزخرف: ٣١)، وإنما بحياة قلوبهم بذكر الله واتباعهم مراده: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) (الكهف: ٢٨).

---

[٨٣] يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)، رواه الترمذي، والبيهقي في شعب الإيمان.

٧. **أن تقنع وترضى -بعد السعي بكل ما أوتيت- بما آتاك:** (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (الزخرف: ٣٢)[٨٤]، ولا تستقل النعمة فتنظر بحسرة إلى ما ليس عندك: (وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) (طه: ١٣١).

٨. **تعلم أصول فن الانفاق:** (وَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا* إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا* وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا* وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) (الإسراء: ٢٩)، لأن كل النعم مسؤولية: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) (التكاثر: ٨)، والواجب التوازن في الانفاق: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) (الفرقان: ٦٧)، بلا بخل: (وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ* الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ) (الحديد: ٢٤)، وبلا سرف وتجاوز للحد: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (الأعراف: ٣١)[٨٥]، وبلا استعانة بالنعمة على المعصية

---

[٨٤] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما أتاه)، رواه مسلم والترمذي وأبن ماجة.

[٨٥] معلوم أن السرف نسبي يختلف باختلاف الحال والأزمان، فقد يكون إنفاق ما سرفاً بالنسبة لإنسان بمستوى معيشي معين، ولا يكون سرفاً بالنسبة لآخر في مستوى معيشي أعلى منه.

تبطراً: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) (القصص: ٥٨).

٩. **أن لا يلهي تحصيل النعمة عن ذكر المنعم**[٨٦]: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (المنافقون: ٩)، فلا يقدم أي تحصيل للنعمة على أداء الصلاة: (رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ) (النور: ٣٧)، ويستجيب للنداء مهما كان شغله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (الجمعة: ٩).

١٠. **العلم بما في النعمة من فتنة** يمكن أن يستدرجه بها الشيطان إلى ما لا يحبه الله —إن لم يأخذها بحقها ويؤدِّ حقها-: (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) (التغابن: ١٥)، وإن الله تعالى قد فاوت بين الأرزاق، وجعلها لكل من الفقير أو الغني موضع ابتلاء يرى فيه ما يكون من العبد: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (الأنعام: ١٦٥)، فالنعم كلها مسؤولية: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) (التكاثر: ٨)، والمفلح من أحسن الأداء: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) (الكهف: ٧)، وحسن

---

[٨٦] ذكر الله في غير أوقات الصلاة هو طاعته، فما دام العبد متحرياً لما أحل الله ومنتهياً عما حرمه فهو في حال ذكر لربه، حتى وهو يتناول الطيبات.

الأداء يكون بمراقبة الله والابتعاد عن فتن الشيطان ودعوته إلى ما حرم الله، مع حسن تعلق القلب بالله شكراً عند حصول النعمة، وصبراً عند فقدانها.

إعلم بأن الأكمل في حق من تصدى لشؤون الإمامة في الدين أن يتقلل من المباح ومن الدنيا، ويزهد فيها[٨٧]، وله في إمام الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم أسوة[٨٨]: (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى* وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) (طه: ١٣٢)، وليكون أقرب إلى الناس جميعاً وسوادهم وأكثرهم الفقراء —وهم الأرق قلوباً- وأقلهم الأغنياء: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) (الكهف: ٢٨)، وليكون أقرب إلى خفض جناح التواضع والتواصل مع الجميع: (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) (الحجر: ٨٨)، فيُسَنّ له الزهد بالدنيا ليكون ذلك أدعى لثقة الناس به[٨٩]، وهذا من فقه مقامه وهو يتصدى

---

[٨٧] نقل الشيخ عبد القادر الكيلاني عن الحسن البصري قوله: (**إذا لم يكن العالم زاهداً كان عقوبة على أهل زمانه**)، ص٣١٢، وقال الشيخ عبد القادر الكيلاني: (**من صح زهده في الخلق صحت رغبتهم فيه وانتفعوا بكلامه والنظر إليه**) ص٢٩٠، الفتح الرباني- دار الحديث- القاهرة.

[٨٨] روى البخاري ومسلم أنه كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً**)- وفي رواية كفافاً-، ورويا عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض).

[٨٩] قال الشيخ عبد القادر الكيلاني: (ليس من الدنيا بيت يكنك ولباس يسترك وخبز يشبعك وزوجة تسكن إليها، الحياة الدنيا الاقبال على الخلق والادبار عن الحق) ص٣٤٤، الفتح الرباني- دار الحديث- القاهرة.

لتبليغ مراد الله من العباد، وليأمنه الناس على شأن دين الله وعامة شؤونهم: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)** (التوبة: ٣٤).

وأما من تصدى لشأن من شؤون الدنيا وفرض من فروض كفاياتها، فالأكمل في حقه الاستزادة منها –بما أحل الله– ما استطاع، وأداء حقوقها، وإلا فإن سنة الله قضت بتخلفه عن فرص التمكين في الأرض، لتقصيره في إصلاحها وإعمارها الذي يحبه الله –والله أعلم–، فالأولى له السعي بحب في مقامه الذي أقامه الله فيه، زراعة أو صناعة أو تجارة، أو في مهنته التي وفقه الله إليها طبيباً أو مهندساً أو محامياً أو ما سواها، وتحري التفوق والاتقان والاحسان للاستزادة من فضل الله بحقه، وأداء حقه: **(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)** (القصص: ٧٧)، فالمال (خير) كما سماه الله: **(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)** (العاديات: ٨)، وإن إرادة المال والنعم –بما علمت من الضوابط– حافز لتكوين القوة التي يحبها الله في كل ميدان، فالحياة نسيج متكامل، يقوم كل فرد فيها بأكمل أداء ممكن يرقى بالحياة، وهذا من عبادته في (مقامه) الذي أقامه إياه ربه.

إعلــم: وأنت تستزيد مما خلقه الله لك في الأرض، ملتزماً بما عرفته من ضوابط، وغير مضيع عهدك مع الله بإقامة العدل من أجل حرص زائد على ما ليس من حقك– عند التنافس والاستزادة منها–، **أن عليك أن لا تضيع عهدك مع ربك بالتقاعس والكسل، حين لا تكون على عهد تفوقك الذي يحبه ربك منك، لتبلغ أعلى الدرجات في الدنيا وبعدها في آخرتك،** لأن من حقك –بل من واجبك– أن تبلغ

في الدنيا أقصى ما يمكن من طموحاتك في كل ميدان[٩٠]، وإن ما ورد –مثلاً– عن دخول الفقراء الجنة قبل الاغنياء[٩١] لا يعني أن أهل الغنى أقل درجة من الفقراء، وإنما هذا لكثرة ما سيحاسب عليه الأغنياء، وليس لمجرد فضل الفقراء، وإن كل إنسان سيسأله ربه بحسب ما أوتي من قدرة في العلم أو المال أو السلطان أو الذكاء أو غير ذلك، **وكلما ازداد نصيبه من النعمة ازداد حسابه، دون أن ينفي ذلك استحقاقه لدرجة أعلى في الجنة ضمن درجات لا تنتهي بحسب ما أحسن**، وإن الغني الشاكر بهذا خير من الفقير الصابر –على ما في الصبر من أجر بغير حساب!–، ذلك أنه بشكره قد يكون قد غير الحياة نحو الأفضل ووفر فرص عمل للناس وتصدق وأصلح العالم[٩٢]، وبقيت آثاره من بعده، ومثله كل من عمر الحياة بالاصلاح والتغيير والابداع الذي يحبه الله، بما يجعله أجدر بالدرجات العلى ممن تجنب التحدي ولم تنتفع الدنيا بقدومه ولم تتضرر برحيله، و(**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**) (الحديد: ٢١).

---

[٩٠] ما لم يكن المكلف ممن تصدى لإمامة الناس في الدين، حيث الأكمل في حقه التقلل من الدنيا كما تم بيانه.

[٩١] روى الترمذي وابن حبان في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام) وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

[٩٢] قال الإمام الغزالي: (**المال لا يذم لذاته بل ينبغي أن يمدح**، لانه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا، وقد سماه الله تعالى خيراً: (**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**) (العاديات: ٨)، وقال: (إعلم ان المال لا يذم لذاته، بل يقع الذم لمعنى من الآدمي، وذلك المعنى إما شدة حرصه، أو تناوله من غير حله، أو حبسه عن حقه، أو اخراجه في غير وجهه، أو المفاخرة به))، مختصر منهاج القاصدين:٢١٥، دار الحديث– القاهرة– بتحقيق سيد ابراهيم–٢٠٠٥.

الفصل الثالث

-تنميـــة القـــدرات-

• مفهـــوم (العلـــم والإرادة)

> بينما يهدف تهذيب ملكة العلم إلى تنمية مواهب الإبداع الانساني -الذي يحبه الرب الواهب من عبده الموهوب-، تضمن أجواء الحرية تحقق هذا الابداع، ومثلها يضمن العدل البيئة الصالحة التي تنمو فيها ملكة الإرادة والعمل بعد تهذيبها، لتصنع آفاق حياة تترقى وتتطور بلا حدود.

عندما حكى القرآن **قصة خلق الانسان** في الموضع الأول الذي وردت فيه -في الآيات (٣٠-٣٩) من السورة التي تذكر فيها البقرة- قسمها إلى قسمين، يبدأ كل واحد منهما بـــ**(إذ)** -الظرفية- التي تكررت في القصة مرتين، وذكر في كل قسم واحدة من القدرات الأهم التي اختص بها الله الإنسان، فبين في القسم الأول أن الله تعالى قد آتى الإنسان القدرة على أن **يعلم**: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) (البقرة:٣١)، وبين في القسم الثاني أن الله تعالى قد آتى الإنسان القدرة على أن يختار **ويريد** -إذ أمره ونهاه-: (وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) (البقرة: ٣٥)، وهاتان القدرتان هما أعظم ما يختص به الإنسان، وبهما يمكن له **تغيير** الأرض بإذن ربه، لأن ما في الأرض مسخر له من ربه: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) (الجاثية: ١٣)، وانظر القصة كما وردت في السورة:

((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ

لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)).

((وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) (البقرة: ٣٠- ٣٩)).

وعلى هذا، فإنه على قدر اجتهاد الإنسان في فرصة العمر ومكابدته في استثمار ما خصه ربه به من قدرة على أن **(يعلم)** فيبذل أقصى وسعه في طلب العلم بالحق، وقدرة على أن (يختار) و**(يعمل)** بما علم من الحق: يكون من المفلحين[٩٣]، وإن كل فعل إنساني في الأرض، يقاس صلاحه بمدى صلاحية فاعله **علماً وعملاً**، وإن المستثنى من (مطلق خسران) الناس يوم القيامة هم فقط من علم الحق وآمن به، وعمل صالحاً بما علم: (وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) (العصر: ٢)، وإن ضعف الصالحين كامن في إمكان **نسيان الحق بعد العلم**، أو **تضعضع العزم عن العمل:** (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) (طه: ١١٥)، فيستثنى من (الخسران مطلقاً) من أكمل قدرته **العلمية**

---

[٩٣] يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله: (كمال الانسان في: **همة** ترقيه و**علم** يبصره ويهديه)، مفتاح دار السعادة —دار ابن عقان- الرياض-١٩٩٦: ٢١٤/١.

بالتواصي بالحق دفعاً لكل نسيان، وأكمل قدرته **العملية بالصبر** على مشقة العمل بالحق دفعاً لتضعضع العزم: (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (العصر: ٣)، وبهذا الصبر وبهذا الثبات تنال أعلى المقامات: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) (السجدة: ٢٤)، ولهدايتك إليها أنزل الله كلمته التي انتظمت صدقاً وعدلاً: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (الأنعام: ١١٥)، و**صدقها** في الخبر المفيد **للعلم** بالحق، و**عدلها** في الحكم الفصل على الصالح والفاسد من **عمل** الخلق.

وإذا كانت هاتان القدرتان هما الأهم مما اختص به الانسانَ خالقُه، فإن الهدف من هذا الفصل بيان آداب وردت في كلام الله؛ ترقى بمستوى استثمار هاتين القدرتين، وتهيء لفن حياة أفضل، وللجدارة بحمل أمانة الهبة الربانية، ودونك هذه الآداب:

أ- عشرة آداب في تنميـــة ملكـــة (العلـــم):

إن العلم يسبق العمل، وهو شرط لصحته، وبهما كمال العبد: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) (محمد: ١٩)، إذ لا يستوي العالم والجاهل: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) (الزمر: ٩)، لأن العلم قائد إلى معرفة توطن القلب على خشية الله: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (فاطر: ٢٨)، وهذه الخشية هي أصل التقوى التي بها ينال العبد الكرامة عند الله: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات: ١٣)، وبهذه الكرامة التي أورثها العلم يرقى العبد: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) (المجادلة: ١١)، ومن ثَمَّ فإن تنمية قدرات (هبة العلم) ترشح الإنسان إلى كمالات ورفعة لا تنتهي في (مقامه) في الدنيا ويوم لقاء الله، ويمكن تحقيق تنمية عالية لهذه الهبة باتباع ما يأتي:

١. **<u>إيقاظ الحواس:</u>** والمراد بها إيقاظ شامل لما آتاك الله من حواس من مرض (بلادة الألفة) التي أورثها التعود على ما حولك، مما يقتضيك التنبه بعد الغفلة، **وفتح العين لتنظر بحدة أكبر والأذن لتسمع، والأنف ليشم واللسان ليذوق واليد لتلمس**، ولتحس **بالتنوع** الكبير في الأشياء والتفاصيل في كل ما حولك: (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) (النحل: ١٣)، وإن تعطيل الحواس وغفلتها موت قبل الموت: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف: ١٧٩)، وقد دعاك ربك للنظر: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة: ١٦٤)، وهذا النظر سبيل للمعرفة، واتخاذ القرار الصحيح في موقفك من الوجود: (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف: ١٨٥).

٢. **<u>الوعي بالتناقض والتكامل:</u>** وهو ثمرة إيقاظ الحواس، حينا يستفز العقل ما يراه من ظاهر (**التناقض**) بين **الليل والنهار**: (يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ) (النور: ٤٤)، وبين **الحياة والموت**:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) (الملك: ٢)، وبين **الخير والشر**: **(وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)** (الأنبياء: ٣٥)، وبين **الرجل والمرأة**: **(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)** (النجم: ٤٥)، وغيرها من جزئيات حياته، وهذا الاستفزاز سبيل العقل ليسلك سبيل البحث واكتشاف القوانين الضابطة للكون، التي تقوده إلى وعي (**التكامل**) بين كل ما خلق الله: **(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)** (الذاريات: ٤٩)، فالليل والنهار يتكاملان ويتعاوران كتكامل الذكر والأنثى: **(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)** (الليل: ٣)، وباكتشاف قوانين التكامل يضمن النوع الانساني درجة أكبر من فرص السيطرة على ما سخره الله له مما في الأرض.

٣. **إحياء روح الفضول والاستكشاف وشغف البحث عن الحقيقة**: إذ لم يأمر القرآن النبي صلى الله عليه وسلم بطلب الزيادة إلا في شيء واحد من النعم: **(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)** (طه: ١١٤)، وبهذا (الأمر) لطلب الاستزادة؛ تعرف قدر هذا الشغف لطلب العلم بالاستكشاف والريادة، **في أي مجال أقامك الله فيه**، علمي أو أدبي، فني أو عملي، فتبذل الجهد لتستزيد من العلم ليقودك في مختلف مجالات الحياة، في البحث التاريخي: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (الأنعام: ١١)، أو في عالم الفكر: **(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ)** (المؤمنون: ١١٥)، أو في الكون وفي نظام الكائنات: **(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)** (الأنعام: ٥٩)، وفي كل جزئية ممكنة في عالمك، يقودك العلم بعدها لتقول

بقلب صادق: **(رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ)** (آل عمران: ١٩١)، فجدد في قلبك روح العزم على التغيير والابداع العلمي والبحثي، ولا تقتل العمر بالسكون، وجدد قراءتك للكون —القرآن المنظور– وأصناف الحيوانات والحشرات والنباتات، واستكشاف الصحارى والكواكب والنجوم: **(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)** (الجاثية: ١٣)، واطلب الزيادة في العلم بلا حدود.

٤. **تحقيق معرفة الذات:** وغايتها معرفة نفسك وموقعك الخاص في الوجود — كما مر بك في فقه المقام–، بعد دراسة الكون والمخلوقات من حيث دلالتها على الله، وبها تدرك النفس تاريخها الموغل في العدم: **(أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً) (مريم: ٦٧)، وفقرها الأصيل لربها الغني: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)** (فاطر: ١٥).

٥. **إحياء الروح العلمية:** والمقصود بها اتباع سبيل المنهج العلمي البنّاء في سبيل الوصول إلى حقائق الأشياء، وهو منهج قائم على **طلب الدليل في الدعاوى: (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)** (النمل: ٦٤)، **وصحة السند في النقول: (ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)** (الأحقاف: ٤)، ونبذ التقليد: **(وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)** (الزخرف: ٢٣)، واحترام العقل في ما سوى ميادين الغيوب التي كفانا الله إياها فيما أوحاه إلى نبيه من خبر صادق في

العقائد، وبين معه ما يحبه من شعائر العبادات، وحدوده فيما وضع من نقد وتهذيب للمعاملات بين.

٦. **<u>الوعي بقيمة التخصص:</u>** وهذا يعني أن أشرف العلوم بحق المعين تختلف باختلاف اختصاصه، وتعمقه فيها قائد له إلى أعلى أنواع العلم بربه –والعلم بالله أشرف أنواع العلوم لذاته– فالأمر نسبي، وقد خلق الله لكلٍّ وجهة في الحياة من يتولى شأنها وهيأه لها: (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) (البقرة: ١٤٨)، ومثلما يختص أهل العلم بالدين دون أهل الجندية والقتال: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (التوبة: ١٢٢)، فإن لكل وجهة في الحياة (طائفة) تختص بها، وأشرف علم الطبيب –مثلاً– علم الطب، وأشرف علم الطب للاختصاصي: اختصاصه الدقيق، ومن الخطأ تضييع عمره فيما سواه، فالطب مقامه وحاله ومنه يفتح له باب خاص للعلم بمولاه، وهكذا مع كل اختصاص بوجهة في الحياة.

٧. **<u>الإعراض عن التوافه واستبعاد ما هو غير مجد:</u>** والمقصود به تحري العلم النافع وتجنب ما لا نفع له: (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) (المؤمنون: ٣)، وحسن استثمار العمر وتوجيه القدرات، بأن لا تعطيَ معنى للأشياء التي تزعجك، وتعظم نفسك بأن لا تثور للتوافه التي يستفزك به الجاهلون: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) (الأعراف: ١٩٩).

٨. **تذوق الجمال:** وهو فن الاحساس بالايقاع المتناغم المبثوث في الأصوات والأشكال، وغيرها فيما خلق الله من شيء، أو مكن مخلوقاته من صناعته، وبثه في كل ما على الأرض: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) (الكهف: ٧)، -كما مر بك عند ذكر جمال الحياة-، وهذا التذوق يحيي في القلب روح الحب للرب الجميل الذي بث في مخلوقاته هذا الجمال: (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) (النحل: ٦)، ويجعل النفس تواقة لوضع كل شيء في موضعه لتحقيق أعلى تناغم ممكن، وهو أصل إرادة العدل في النفس، ولذلك شرف الله الجمال وصناعته، ونسب (الزينة) التي في الوجود إلى نفسه: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ) (الأعراف: ٣٢).

٩. **إطلاق الخيال والإبداع:** وهذا من كمال فقهك لمقامك وتفردك، وخصوصية اللمسة التي تستودعها وجه الحياة، إذ تبدع في استكشاف الأرض، أو في التخطيط لأسباب النصر، أو في اقتراح العلاج للمشاكل أو الدواء للمرض، أو في فهم السر الدقيق لسؤال رياضي، وغيرها مما لا ينتهي من أحوال الابداع والتفوق التي تظهر فيها القوة المهمة للأحلام وإرادة الامتداد بأثر يبقى بعد الحياة: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ) (يس: ١٢)، حتى إذا آتاك الله من أسباب تحصيل الأشياء سبباً فأتبِع سبباً، ولا تتردد في ارتقاء القمم، وهذا حال الصالحين ممن رشحهم الله لقيادة الأمم —في كل ميدان علم أو عمل-، وآتاهم أسباباً في حدود ما مكنهم فيه: (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً*

فَأَتْبَعَ سَبَباً) (الكهف: ٨٥)، فهو يُتبع السبب السبب ولا يتوقف عن المضي الدؤوب من نهاية غاية إلى غاية: **(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً)** (الكهف: ٨٩)، وبهذا التجديد المستمر ترقى إلى حيث يحب لك الله.

١٠. **التركيز:** لقد علمت أن الواجبات تختلف باختلاف الأوقات، وأن المفلح من عرف ما يحبه الله منه في وقت معين، واجتهد ليكون كما يحبه الله في ذلك الوقت بالذات، وهذا يقتضي منك حسن التركيز على ما تفكر فيه، فالعقل يعمل شيئاً واحداً في وقت واحد: **(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)** (الأحزاب: ٤)، فانشغل في كل وقت من العمر بما تعرفه من واجب ذلك الوقت من العمر.

ب- عشرة آداب في تنمية ملكـــة (الإرادة والعمـــل):

إن للعمل الصالح شرطين: الأول: **تحري الاخلاص** في توجيه النية فيه لله: **(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)** (البينة: ٥)، **والثاني: تحري الصواب** في حسن اتباع المنهج الذي يريده الله: **(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)** (آل عمران: ٣١)، وذلك بالانضباط في حدود شريعته ونبذ مجرد الهوى: **(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)** (الجاثية: ١٨)، وليس هذا المقام في بيان تفصيل هذه الشريعة، وإنما هو في بيان بعض الآداب المهمة التي تعين على التفوق في الأداء، وتنمية **القدرة** على العمل التي وهبك الله، ودونك هذه الآداب:

١. **تحري الاتقان في الفعل:** وهذا شامل لكل ما تصنع، سواء على مستوى فن التنعم بالنعم، بالتقديم –مثلاً– قبل أكل الطعام بإعطاء فرصة للتلذذ بجمال شكل اللقمة ورائحتها قبل تذوقها ومضغها بما تحس به بمتعة طعمها، أو بالتقديم لشهوة النكاح: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (البقرة: ٢٢٣)، ومن باب أولى إتقان كل عمل يكون منك على مستوى مهنتك أو دراستك أو أسلوب قضائك حياتك وآدابك مع ما سخر الله لك، فتتحرى في كل فعل أكمل ما تستطيع من الاتقان، تخلقاً بخلق ربك العظيم في صنعه: (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) (النمل: ٨٨).

٢. **إطلاق الرحمة على الخلق:** والتأدب بالحب والشفقة مع كل مخلوق: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: ١٠٧)[٩٤]، وذلك من خلال عيش سعادة البذل وصناعة البسمة في وجوه الآخرين من دون انتظار الشكر أو المديح من الخلق –وهو طريق مجرب للصحة النفسية–: (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً) (الإنسان: ٩)، وأنت تعلم أن الشكور لفضل الخالق قليل، فكيف بالشاكر لفضل المخلوق: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) (سبأ: ١٣)، وبهذه الرحمة تتعرف على الخلق: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) (الحجرات: ١٣)، وتدرك الضعف الإنساني: (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً) (النساء: ٢٨)، فتجتهد لأن لا تغضب من إنسان ضعيف:

---

[٩٤] ومن جميل أقوال الصالحين: (الخير كله في كلمتين: التعظيم لأمر الخالق والاحسان إلى الخلق)، الفتح الرباني: ١٠٦.

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ) (آل عمران: ١٣٤)، ولا تحقد فالتسامح مريح أكثر من القصاص: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (النور: ٢٢)، ولا تكترث لنقد الجاهلين: (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً) (الفرقان: ٦٣)، وهكذا في كل وجه للتعامل مع مخلوق أو إنسان، تجتهد أن تكون (الرحمة) وجهك الذي تعرف به.

٣. **تحمل المسؤولية عن كل قرار:** وذلك مبناه أن لا تكلف نفسك ما لا تطيق: (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا) (الطلاق: ٧)، ولا تتخاذل عن تحمل ما تطيق: (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) (التغابن: ١٦)، وتوطن نفسك على تحمل تبعات أعمالك بنفسك: (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً* اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً) (الإسراء: ١٤).

٤. **تحري العمل بعلم، مع إدراك قيمة العمل الانساني:** لقد نهاك الله عن العمل بلا علم لأنك مسؤول: (**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ **كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**) (الإسراء: ٣٦)، ولأن للعمل الانساني قيمة كبيرة، -مهما كان ميدانه وتفصيله-، إذ تتزلزل الأرض: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا) (الزلزلة: ١)، وتزول النجوم والجبال: (وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ* وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ) (التكوير: ٣) ، وتبقى الصحائف تحكي عن الأعمال: (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً) (الكهف: ٤٩).

٥. **التكامل في الفعل:** بين الدنيا والآخرة، وبين النفس والآخرين: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ **الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (القصص: ٧٧)، وبين حاجات الانسانية وبقية الكائنات من خلال مراعاة (الميزان) الذي وضعه الله: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ* أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ* وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) (الرحمن: ٩)، وقد تم بيان ذلك عند الحديث عن (دائرة العلاقات الانسانية).

٦. **صناعة الجمال:** لقد علمت بعضاً من قدر (تذوق الجمال) الكامن في ما حولك عند الحديث عن آداب تنمية ملكة العلم، وأما المقصود هنا فهو العمل على بث الجمال في كل ما تؤديه: في كلمة تكتب، أو شجرة أو زهرة تزرع، أو جهاز يصنع، أو تعامل وتجارة تنفع، أو صلاة وركعة تركع، وهذا أمر شامل في كل عمل، حتى في هيئة خطوات تخطوها: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ **يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً**) (الفرقان: ٦٣) أو نبرة صوت تنطقه: (وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ) (لقمان: ١٩)، وإن لك في جمال ما خلق الله في النفس وفي الآفاق خير مثال يحدو بك لصنع الجمال، وقد جعل الله من كمال (ملك نبي) من أنبيائه حبه لصناعة الجمال: (يَعْمَلُونَ لَهُ **مَا يَشَاءُ** مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ) (سبأ: ١٣)، فاجتهد أن تجعل من صناعتك للجمال باباً للقرب من ربك الجميل، واعلم أن **باب هذا الجمال هو البساطة، ومفتاحه حب الحياة؛ وإرادة إيداع لمسة –بحب– تغير وجه الحياة.**

٧. **الاحتراف الدقيق:** وهذا الأصل يكمل ما عرفته من ضرورة (احترام الاختصاص العلمي)، إذ إن الاحتراف نهج أصيل علمه الله أنبياءه: (**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ** لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) (الأنبياء: ٨٠)، وأوجب فيه الاتقان: (أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ **وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ**) (سبأ: ١١)، وقس عليه الاحتراف في الزراعة والصناعة والتجارة والسياسة وغيرها من فنون الحياة، بحسب ما استخلفك ربك فيه من مقام: (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا) (البقرة: ١٤٨).

٨. **روح المنافسة العادلة:** تقتضي تنمية ملكة العمل بث روح المنافسة بين العاملين لإصلاح الحياة، وهو أمر يرضاه الله، ويشرع التنافس فيه مثلما حث الله على المسابقة لطلب مغفرته ورضاه: (**سَابِقُوا** إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) (الحديد: ٢١)، ومع هذا التنافس يقتضي الجميع التسليم بما يكون من نتيجة، وتهنئة المتفوق، ونسبة الفضل إلى الله الذي يؤتيه من يشاء: (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (الجمعة: ٤).

٩. **العزم والحيوية في الفعل:** وهو أمر ضروري للانجاز، فلا يتم الوصول إلى إنجاز ذي شأن من دون عزم واستجماع لكل القوى والمشاورة في التخطيط والتنفيذ من أجل الوصول إلى ذلك الانجاز –بعد التوكل على الله–: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ** عَلَى اللَّهِ) (سورة آل عمران: ١٥٩)، ويشتمل هذا العزم على إرادة للتغيير والتطوير بلا توقف، فقد جعل الله التغيير في أطوارك علامة على حياتك: (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً) (نوح: ١٤)، فلا تقتل العمر بالسكون، وقد بث ربك في الآفاق طاقات ضخمة في

أرضه الواسعة: (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) (العنكبوت: ٥٦) وأمرك بالسير فيها والانتفاع بما استودع فيها من خيرات: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) (الملك: ١٥)، وبهذه الحيوية والسير يتم التطوير.

١٠. <u>**تنظيم الجهد:**</u> لقد جعل الله في الحياة نظاماً للعمل، يبتغي فيه الناس معاشهم في النهار: (وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً) (النبأ: ١١)، ويجتهدون فيه في ابتغاء رزق الله: (وَجَعَلْنَا آيَةَ **النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً** مِنْ رَبِّكُمْ) (الإسراء: ١٢)، وجعل الليل لباساً يسترهم ويهيىء لنومهم: (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً* وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً) (النبأ: ١٠)، فالانسان يتعب ويحتاج إلى الراحة بعد التعب: (**فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ**) (القصص: ٢٤)، ومن الحكمة تنظيم الجهد الانساني بين العمل الجاد والراحة الضرورية، وأن تعلم نفسك الاسترخاء وقت الراحة مثلما تعودها المثابرة وقت العمل الجاد، وهذا النظام أدعى لحفظ طاقاتك في العمل بمستويات أعلى، قد لا تصل إليها نتيجة الإنهاك المستمر وإنكار حاجتك الفطرية إلى الراحة، وللابتسامة الصادقة والروح المرحة أثر حاسم في تجديد طاقاتك، وهاهو أعظم ملك نبي يبتسم ويضحك: (**فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً** مِنْ قَوْلِهَا) (النمل: ١٩)، وقد نسب الله نعمة الضحك إلى نفسه لعظم قدرها: (وَأَنَّهُ **هُوَ أَضْحَكَ** وَأَبْكَى) (النجم: ٤٣)، وإننا قد نتوقف عن الاحساس بالفرح والغبطة إذا منعنا أنفسنا من التعبير عنهما.

إن ما ذكرناه من آداب لتنمية ملكات العلم والعمل **لا يقصد منه الاستقصاء**، وإنما استعراض لما ورد من إشارات لهذه الآداب بعد استقراء آيات القرآن، وهي في مجموعها تعين في تنمية القدرات، وتؤهل للجدارة بحمل هذه الأمانة العظيمة، ويبقى تأثير البيئة الاجتماعية حاسماً في الوصول إلى ثمرات هذه التنمية، **وبينما يهدف تهذيب ملكة العلم إلى تنمية مواهب الإبداع الانساني –الذي يحبه الرب الواهب من عبده الموهوب–؛ تضمن أجواء الحرية تحقق هذا الابداع، ومثلها يضمن العدل البيئة الصالحة التي تنمو فيها ملكة الإرادة والعمل بعد تهذيبها، لتصنع آفاق حياة تترقى وتتطور بلا حدود**، وتهيىء لجدارة الاستخلاف الانساني، وهذا هو مفهوم (الحياة في سبيل الله).

الفصل الرابع

-الحيـــاة في سبـــيل الله-

> إن (فقه المقام) يقتضي إحسان تقدير نعمة الحياة وأدائها في سبيل الله مخلصاً لله، كما يريد الله، في ظل معية الله، راجياً المدد من الله، لأداء أرقى في الإبداع العلمي والاتقان العملي، يجعل حياتك فرصة للمسة تغير وجه الحياة.

تبدأ (الحياة في سبيل الله) إذ يطمئن القلب إلى الرضا بالله وحده **رباً** رازقاً لا رب غيره: (قُلْ **أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً** وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)؟ (الأنعام: ١٦٤)، و**إلهاً** معبوداً لا إله غيره: (قَالَ **أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً**)؟ (الأعراف: ١٤٠)، و**حاكماً** مطلقاً ولا حاكم غيره: (**أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً** وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً)؟ (الأنعام: ١١٤)، و**ولياً** ناصراً ولا ولي غيره: (قُلْ **أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً** فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)؟ (الأنعام: ١٤)، وبهذا الاطمئنان والرضا يبذل الوسع مدى العمر ليكون عبداً لهذا الإله، يحقق ما يريده مولاه في كل أقواله وأفعاله عدلاً وإصلاحاً، وهذا ضامن لهداية الله له إلى ما يحب: (وَالَّذِينَ **جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت: ٦٩)، وصناعته له ليكون كما يحبه أن يكون: (**وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**) (طه: ٣٩)، حتى إنه ليجعل له نوراً يهديه به في فعله وقوله: (وَيَجْعَلْ لَكُمْ **نُوراً تَمْشُونَ بِهِ**) (الحديد: ٢٨)، ويحفظه ليؤدي ما خلقه له: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ **وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**) (المائدة: ٦٧)، وينصره من بعد في الدنيا: (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا **نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**) (الصف: ١٣)، وفي الآخرة: (إِنَّا **لَنَنْصُرُ** رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا **وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**) (غافر: ٥١)، فيرقى بتلك الهداية والصناعة والنور والحفظ

والنصر -في مدارج القرب من إله الأرض والسماء- أقصى ما يمكن أن تعطيه فرصة العمر، لأن كل لحظة من العمر تكون له فرصة لأن يودع **لمسة** تغير الدنيا التي استخلفه فيها ربه، يبقى أثرها ممتداً نامياً كلما جعلها الله سبباً **للمسات** أخر يحدثها جيل من الناس من بعده مقتفين أثر لمسته: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ* **تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾ (إبراهيم: ٢٥).

وينظم الحياة في سبيل الله شعائر واجبة التعظيم والأداء في وقتها من اليوم أو العام أو العمر – كالصلاة أو الصيام أو الحج -: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً **مَوْقُوتاً**﴾ (النساء: ١٠٣)، تصل العبد بربه، وتعينه على ما استخلفه فيه من بعدها من واجبات في (مقامه)، -في كل وقت سوى أوقات هذه الشعائر-، وهي من الواجبات التي لا يمكن قضاؤها –كالشعائر- حين لا تؤدى في وقتها، إذ تضيع معها فرصة لإحداث لمسة تغيير في النفس وفي الآفاق لا يمكن تعويضها، كما يقول العارفون: (**حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها**)[٩٥]، إذ لكل لحظة ووقت من العمر مراد لله منك، قد يكون في وقت ما: تناولك للطيبات التي خلقها لك وخلقك محتاجاً إليها، وفي وقت آخر: إرهاقك نفسك لتنجز عملاً بوقت أقصر وإتقان أتم، تبتغي به وجه الله في جعل الحياة أفضل، وإن ربك يحب منك أن تأخذ من الدنيا نصيباً وافراً عادلاً، يتناسب وقدر التغيير الذي تحدثه في العالم ليكون أفضل، **ثم إنه يثيبك على ما أخذت وتمتعت به من ذلك النصيب،** لأنك توافق الحكمة من وجوده في حياتك، ثم إن مراده منك تفوق مطلق

[٩٥] الحكم العطائية، الحكمة رقم: ٢٠٨.

بأقصى ما تستطيع، في الموضع الذي أقامك فيه، أو الذي اخترته لتودع لمستك في فرصة العمر.

إن الحياة في سبيل الله مفهوم جليل، يقتضي إدراكاً واضحاً لقضية أن **التغيير علامة الحياة**، ومن الظلم العظيم تصور أن كوناً مثل الذي نعيش فيه فرصتنا في الحياة الدنيا، يتغير ويتمدد ويتكامل في كل لحظة، بدرجة أنه **لا يتكرر فيه حادث واحد مرتين في كل تاريخه!**، -ولا حتى دوران الأرض حول الشمس في نفس الموضع من الكون منذ خلق وإلى آخر لحظة من وجوده!-[٩٦]، في الوقت الذي نسمح فيه للتراخي أن يدب في أجسامنا، **ونعيد فيه نفس الأداء المتواضع في الحياة، ونتوهم إمكان الحصول على نتائج مختلفة يزهق فيها الباطل وينتصر الحق وتعلو الراية!، بينما نحن نغط في سبات يشل القدرات**، نمني النفس فيه بالآخرة التي لم نسع لها سعيها الحق الذي يجعلنا جديرين بها من خلال استثمار ما وهبنا الله من قدرة للعلم وللإرادة في فرصتنا هذه، لإصلاح الحياة وتغييرها إلى الحدود القصوى الممكنة، فـــ(المغبون من تساوى يوماه)، وكل ساعة من العمر هي **فرصة للارتقاء** في الجنة بالدرجات، أو ستكون **غصة بالانكفاء** في النار في الدركات، و**المغبون** هو كل من فاتته درجة أعلى، أو نزل دركاً أسفل يوم لقاء الله.

---

[٩٦] في الثانية الواحدة يتوسع الكون بكل الاتجاهات بسرعة الضوء (٣٠٠٠٠٠) كيلومتر/ثانية، وفي نفس الوقت تتخلق في جسمك (بين٦٠ إلى ١٢٥ مليون) خلية جديدة بالانقسام وتموت مثلها أو أقل منها، -أي بمعدل ٣٠٠٠ مليون خلية في الدقيقة الواحدة في الأقل-، وهذا (تغيير) مذهل بكل المقاييس، يساهم في تهيئة الفرصة لك لتقضي في الكون هذه الثانية أو الدقيقة من فرصة العمر.

إن التقصير في فهم طبيعة الحياة ونوع الأداء المطلوب فيها، أنتج نوع انفصام في الشخصية الاسلامية التقية، تخشى معه الإيغال والمبالغة في الإنجاز في الحياة الدنيا، **وتستحيي معه أن تقر بأن حب الحياة مركوز في فطرتها**، وكان ذلك نتيجة للفهم التجزيئي لكثير من النصوص التي وردت في الكتاب والسنة، -التي بينا دلالاتها الصحيحة فيما سبق-، واستعملت لتسويغ الهروب من الحياة، والدفع فقط باتجاه الموت المعنوي فيها بدعوى الزهادة، أو الموت المادي في سبيل الله، مع أن الحياة في سبيل الله -في موضعها- لا تقل قدراً عن الموت في سبيل الله -في موضعه-: (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي **وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ** رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الأنعام: ١٦٢)، بل قد تزيد عليه قدراً إن كانت هي ما يرتضيه الله من عبده في وقت معين، مثلما يزيد قدر الموت في سبيل الله على الحياة حين يكون مرضياً من الله في وقت، وقد جعل القرآن الصديقين في مرتبة عظيمة مع الشهداء: (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) (الحديد: ١٩)، مع العلم بأن الصديق: هو الموفي بعهد الله، العامل بكل ما يعلم من الحق، فيحيا في سبيل الله، والشهيد: هو الذي يموت في سبيل الله.

• القـــوة في الحياة نعمـــة، والضعـــف بـــلاء وفتنة.

لا رأي للحق الضعيف، ولا مكان تحت الشمس لمن لا يعرف قدر الحياة، **وإن القوة المادية والتفوق الحضاري نعمة**[٩٧]، **وإن الرضا بالضعف والتخلف الحضاري نقمة**، هي من عاقبة **الجهل** بالدور الانساني المطلوب في الحياة، أو هي عقوبة ربانية مسلطة بسبب **الظلم** والعصيان الجماعي لأمر الله، وانظر الى القرآن

[٩٧] يكفي أن تعلم -مثلاً- أن ستة من الصحابة العشرة المبشرين بالجنة كانوا من الأغنياء.

يحكي عن أنموذج حضاري من أشد ما يكون طغياناً وتسلطاً وتمكيناً في الأرض وكفراً، وهم قوم (عاد) بما زادهم الله من ضخامة وقوة في أجسامهم: (وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً) (الأعراف: ٦٩)، مما زادهم فخراً في أنفسهم: (وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) (فصلت: ١٥)، ومن ثَمَّ كان **نظامهم الاجتماعي** مبنياً على شعورهم بتفوقهم العرقي القومي على من سواهم، وكان **نظامهم السياسي** يمثل أنموذج التسلط الفئوي المطلق، من خلال تسخيرهم ما أوتوا من قوة وتفوق حضاري للعلو في الارض والطغيان على من سواهم: (الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ) (الفجر: ١١)، ومن خلال إرادة التجبر وفرض حق القوة في أن تفعل ما تشاء: (وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) (الشعراء: ١٣٠)، ومع كل هذا ترى نبيهم يعدهم ويرغب إليهم استغفار ربهم والتوبة إليه من طغيانهم ليديم عليهم **نعمه**: (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً **وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ** وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) (هود: ٥٢)، فالرسول يدعو قومه الى إدامة ما أوتوا من **قوة عظيمة** بالاستغفار، وهذه القوة تشمل كل تفاصيل التمكين ومقدماته، وكل الجهد البشري المطلوب للوصول إلى غاية الكمال الممكن في البناء الحضاري في فرصة العمر، ولو لم يكن في هذا التمكين والقوة خير -مع كل ضخامتهما النسبية فيهم بالقياس إلى زمانهم- لما حبب إليهم رسولهم طلب دوامهما بأداء حق ربهم واستغفاره.

إن ضعف الأداء في الحياة أضعف وزن الأمة بين الأمم، وقلل من فرص نشر دعوتها المباركة إلى الحق، **إذ ما قيمة أن ترفع أعلى الشعارات في الوقت الذي لا تقدم فيه لقومك ولليابانيين وللألمان ولبقية الشعوب أنموذجاً إنسانياً اجتماعياً صالحاً للحياة ومتفوقاً في إصلاح الحياة، يتمنى كل منهم أن يحذو حذوه وينتمي**

إليه بوصفه: (الأنموذج الأرقى المتبع لمراد الله في الاستخلاف، والعارف بالحقيقة النهائية للوجود، والعالم بقدر الحياة وبفن العيش فيها)، وهذا هو ما يضع الأمة ويضع الفرد منا في مقام عالٍ جدير بالاقتداء بين الأمم في الدنيا، ثم يوم القيامة، حين ينظر ربنا إلى ما عمل كل فرد، وما عملت كل أمة في تاريخها، كلٌّ في فرصة عمره الفردي والجماعي.

وبعد قرون من النكول عن قيادة زمام الحياة -رغم جدارته بها-، يقف العقل المسلم اليوم يواجه -في قلق- السباق الضخم بين الأمم للامساك بهذا الزمام، في ظل فهم مقصر في اعتداده بقيمة الحياة، وتفسير تجزيئي للنصوص التي تحكي عن طبيعة الحياة فتضرب الأمثال لمن يخطئ ويظن أنها موضعنا الأخير، وبين النصوص الكثيرة التي تحكي عن فرصة العمر وما بث ربنا فيه من خيرات في الأرض وفي السماء جميعاً منه، وكلها مسخرات لبني آدم: (**وَسَخَّرَ لَكُمْ** مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) (الجاثية: ١٣)، وتدعو للتمتع بالنعمة: (قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) (الأعراف: ٣٢)، وتنهى عن تحريم ما أحله الله منها: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا **لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ** مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (المائدة: ٨٧)، ذلك أنها مخلوقة لك ولي: (هُوَ الَّذِي **خَلَقَ لَكُمْ** مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً) (البقرة: ٢٩)، ولكن في ظل الرؤية التجزيئية، ضاع جمال الهبة الربانية، وضاعت الصورة التي يريد لها القرآن أن تبنى في حس المسلم عن الحياة، وانطمر في اللاوعي الاسلامي كثير من التناقضات التي أقعدته عن المنافسة الجادة مع من سواه من بني الأمم، أو حالت بينه وبين أن ينشد الاتقان أو الكمال، في ظل تقصيره عن تحصيل **الضروريات من تلك**

النعم في زماننا، التي قد تختلف في طبيعتها عن الضروريات الواجب تحصيلها في غيره من الأزمنة.

وفي ظل ما تقدم من مفهوم لحب الحياة، وفي زمان يشتد فيه تنافس الأمم، لا يجوز للعقل الاسلامي -وهو الأجدر بقيادة الخلق إلى الحق-، أن يعاني من التردد في فقه الحدود التي عليه أن لا يتخطاها وهو يصنع الحياة، وما مديات التوغل المسموح له بها التي تستحق إنفاق العمر في سبيلها، في استكشاف البحار والنجوم والأقمار وخلايا الجسم ودقائق تكوين الذرة واستثمارها، فهو يسمع بوضوح نداءات القرآن: (**إقرأ، سيروا، انظروا، أَوَ لم يتفكروا، فاعتبروا**)، وعليه الاستجابة الجدية لإملاءاتها وفق طبيعة هذا الفهم لحدود مهمته فيها، دون **خوف** من التعلق (**بحب الحياة**) لمجرد سرعة انقضائها، وعليه تجنب الوقوع في فخ الداعين إلى تهميش قدر العمر بوصفه (مجرد) أيام تمضي، الأمر فيها أعجل من أن نتفانى في إتقان ما نصنعه فيه![٩٨]، وتجنب

[٩٨] والحق أنه لا يجوز التقاعس عن إحداث أقصى الانجاز في الحياة، كما قد توحي به بعض المرويات، من مثل الأثر المروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: مر علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن نعالج خصاً لنا- الخص بيت من خشب وقصب، سمي خصاً لما فيه من الخصائص وهي الفرج والأثقاب، وقد وهى: أي ضعف وهم بالسقوط- فقال: (ماهذا؟) فقلنا: قد وهى، فنحن نصلحه، فقال: (ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك) (رواه أبو داود والترمذي)، ويرد عليه بأنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها**) (رواه البخاري في (الأدب المفرد) وصححه الألباني)، وإن الحديث المذكور قد يكون خاصاً بواقعة معينة اقتضت التنبيه إلى عدم الركون للدنيا، كما يرد عليه بأن الصحابي عمرو بن العاص -أبا راوي الحديث-

الوقوع في خطأ التركيز على قدسية شعائر العبادات في أوقاتها، دون تقديس عبادات الأوقات التي جعل الله لكل عبد واجباً فيها في الموضع الذي استخلفه فيه فيما سوى أوقات الشعائر، فمثلما أن الصلاة مطهرة للقلب ومعراج للصفاء والنور، ونظام موقوت في اليوم للتنبيه من الغفلة وإعادة الحيوية لروح العلاقة بالله: (وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي) (طه: ١٤)، فإن (فقه المقام) يقتضي –بعد الصلاة– إحسان تقدير نعمة الحياة وأدائها في سبيل الله مخلصاً لله، كما يريد الله، في ظل معية الله، راجياً المدد من الله، لأداء أرقى في الابداع العلمي والاتقان العملي، يجعل العمر فرصة للمسة تغير وجه الحياة.

لقد ساهم في تشكيل هذا الانفصام في الشخصية الإسلامية –بين فطرة حبها للحياة وبين تعاليم اعتبار ذلك الحب رأساً لكل خطيئة– عوامل متعددة، ضاع معها نمط فقه الحياة الذي يفهمه عامل البناء المتعب وهو يتصبب عرقاً من أجل قوت عياله، أو التاجر المهموم وهو يتشوق للربح، أو صانع الجمال الموهوب الذي يريد أن يودع كلمته الخاصة في صفحة الدنيا، ولعل من هذه العوامل أن كثيراً من أهل الصلاح والتربية انسلخوا من الحياة العامة وهجروا المجتمع بسبب اليأس من الاصلاح وظروف الاستبداد السياسي، مما أدى إلى نوع قصور –لدى المربين– في فهم الناس الذين أنزل القرآن ليعالج واقعهم، ويرقى بهم بكل ما هم عليه من طبيعة إنسانية، أدى إلى قتل روح المبادرة في الأمة، وشل الابداع، وتعطيل طاقات تغيير الأرض واستكشافها، فضلاً على أنه زرع روح الاهمال وضعف إرادة الاتقان في الشخصية المسلمة، رغم

خط مدينة كاملة في مصر وأسسها، ولم يصلح سقفاً مجرداً، فكيف يفعل ذلك وأمر الحياة لا يستحق أن يعالج سقفاً!.

تعاليم: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)[٩٩]، إذ إنك حين تنظر إلى الزهد المثالي من خلال تصور كونه: (تركاً لما لا ينفع في الدار الآخرة من المباحات)، ستفقد الكثير من إرادة التغيير مادام معظم ما في الحياة مباحاً!، وهو غير نافع في إطار تكريس نفسك لعبادة الله!، إذ لا فائدة ترجى من الإيغال في الاتقان لأن الحياة لا تستحق كل ذلك الجهد!، ومن ثَمَّ حصل تقاعس عام عن البحث الدائب والجاد في فقه نظام الكون والطبيعة على طريق استثمار طاقاتهما لصالح حياة أفضل.

ومع توافر ظواهر الانجاز الحضاري في تاريخنا، لكنها لم تكن قريبة إلى ما كانت ترشحه الكثير من مدارس التربية الاسلامية من معان للحياة، ومن أطر لطبيعة العلاقة بها جعلت: (حب الدنيا رأسا لكل خطيئة١٠٠)!، وأن الأصل في السعي للرزق هو أن لا يتعدى حدود الكفاف، (تركاً لما لا ينفع في الدار الآخرة)، -وهو تعريف الزهد المشروع[١٠١]-، **متناسين أن (حب نعمة الحياة) دافع لـــ(إرادة الحياة)، ولحب واهب الحياة، ولتغييرها في سبيل الله لتكون أصلح وأجمل وأعدل وأكثر نظاماً وأعمق استثماراً لمكنوناتها، وهو الطريق لتحصيل موضع أعلى في درجات الآخرة التي هي أكثر من درجات الدنيا وأكبر تفاوتاً:** (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ

---

[٩٩] حديث أخرجه الطبراني والبيهقي وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، وفي سنده كلام.

[١٠٠] وهذا حديث موضوع لا يصح رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

[١٠١] إن الزهد الحق: ضبط القلب لكي لا يكون من الفرحين -بما خوله ربه- بطراً وتكبراً كما كان شأن قارون إذ نصحه قومه: (لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) (القصص: ٧٦)، ولتكون مع هذا الزهد كل المنح أقرب إلى يده من قلبه، مع حبه لنعمة الحياة وإرادته للسعي بلا حدود لإصلاحها وتطويرها.

وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٢١)، ينالها العبد بقدر ما يحدث من تغيير في هذه الحياة، **وإن الزهد في إنجاز مثل هذا التغيير هو زهد في الحياة الآخرة نفسها!**

وليس الخطأ هنا في النصوص الصحيحة الصريحة، وليس هو أيضاً في فقهها العام الذي أنضجته أمم من الرجال الذين تفانوا في التأسيس لقواعد الفهم الصحيح عبر القرون، وإنما الخطأ في أن يوكل أمر **تنزيل** هذا الفهم على الحياة إلى من لا يحسن فقه الحياة وفقه كليات مقاصد الشريعة، فكان الذي حصدته الأمة أخطاءاً، وانفصاماً في شخصيتها، ضعفت معه إرادتها للحياة في سبيل الله، **وانساقت معه وراء القناعة بالبقاء على هامش الحياة بتهميش الحياة**، وتعلقت إلى حد الادمان بالتغني بالماضي وانتظار حتميات المستقبل، واستثمرت ذلك التعلق لتسويغ تقاعسها وجمودها وتخلفها عن غاية الحياة التي وجدت لأجلها كأمة.

إن كون الحياة دار فناء وليست بدار بقاء، لا ينفي إرادة استثمارها إلى الحدود القصوى، لأن الدنيا هي نهاية لمرحلة قبلها، وبداية لمرحلة أخرى حين نهايتها –البرزخ–، ولكل مرحلة خصائص وأدوار، ولكل مرحلة حكمة وغاية وجمال، ولكل منها حب من نوع خاص فطرنا ربنا عليه، وليس من العدل ولا من العلم التراخي عن أداء ما عليك فيها وأخذ الذي لك، لاسيما أن فعلك العالي فيها يرشحك إلى التنعم بما أودعه الله من نعم لا تنتهي في الحياة، إذ يقتضي العدل أن يعطى كل ذي حق حقه في التفاضل بين الناس، وفق ما يبذل من جهد لإعطاء الحياة وجهاً أفضل –كما يحب الله–، يتحقق فيه عمل يصلح وينفع ويدوم، ويستحق به فاعله مزايا أعلى ممن سواه، كما أنه يرشحه لاحقاً إلى درجة عالية من درجات لا

تنتهي في الجنة التي عرضها السماوات والأرض، ومن ثَمَّ فمن العبث التقوقع بدعوى الزهادة، ومن الجبن التخلف عن قيادتها والاحتماء في زوايا طقوس العبادة، أو التقعر العلمي في ميادين غير عملية أو واقعية، وترك الميدان خالياً يصول فيه ويجول من لا يعرف للحياة هدفاً، ولا للعدل والتوحيد تعريفاً.

وهذا خطأ شائع في الأدبيات الإسلامية ومناهج التربية التي تحط من قدر الحياة، يقودنا إلى خطيئة التخلف عن تحقيق ما يرضي الله، مما يجعل الحاجة ماسة لاستبدالها بأدبيات تعطي الحياة قدرها، لاتزيد عليه ولا تنقص منه[١٠٢]، وتبين جمال

---

[١٠٢] تجدر الإشارة إلى ما لهذه المدارس من فضل عظيم في تهذيب النفوس والسلوك بها في مدارج الوصول إلى الله، وتزكيتها وتطهيرها من أمراض القلوب التي تحجبها عن شهود الحق، ولكن منهجها فيما يتعلق بالتعالي عن نعم الله في الدنيا بغية الوصول إلى شهود شئ من عالم الملكوت، أو التطلع إلى فتح باب من أبواب الغيوب برياضة النفس على العزوف عن الشهوات الحلال، جعل هذه المناهج –المصلحة للنفوس– غير صالحة لإصلاح الحياة، رغم تأكيد كبار المربين فيها على حقيقة الهدف من السلوك في مناهجها، كما يقول ابن عطاء رحمه الله في حكمه: (تشوفك لمعرفة ما بطن فيك من العيوب، خير من تشوفك لمعرفة ما حجب عنك من الغيوب)، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن مثل هذا الشهود للملائكة وغيرها من معالم الغيب غير مراد لذاته، ولا يغني في إصلاح الحياة، كما روى الإمام مسلم في صحيحه عن حنظلة الأسدي، قال: ((دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله!، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وما ذاك؟)، قلت: يا رسول الله! نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيراً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده! إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، **لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم**، ولكن يا حنظلة! **ساعة وساعة**)، –ثلاث مرات–))، ولو كان مثل هذا الشهود –الممكن حصوله– مراداً لإصلاح الدنيا والآخرة لحثه النبي صلى

فرصة التغيير الممنوحة للانسان فيها، فإن الحياة ملأى بالجمال، وهي من خلق ربنا (الجميل)، (ذي الجلال والإكرام)، (نور السماوات والارض)، **ومن ثَمَّ فحب جمالها مشروع، وليس عيباً أن نحب الحياة مادام ذلك الحب لا يغفل طبيعتها وما يترتب عليها من حساب، ولا يتغافل عن نهايتها بالموت، بل ان حبها وإدراك جمالها طريق لحب خالقها وواهبها**، وهو شطر مهمتنا فيها، والشطر الثاني استثمارها وتطوير ما أودع فيها إلى الحدود القصوى تحقيقاً لمهمة الاستخلاف واستحقاق هبة العلم والإرادة، وهو الفهم الدقيق لمعنى (العمل الصالح)، وما سيترتب على وجودنا في الحياة من أثر هو طريقنا لاستحقاق الوجود الاخروي الذي جاءت الرسالة لتهيئنا له ولتدلنا على سبله، وهو وجود سيكون جماله الأعظم عند لقاء الخالق والوصول **إلى الدرجة التي خلقت لها أنت، وخلقت هي لك**، إذ لا حد لفرصة كل منا لأن يتدرج في المراتب التي يتجدد فيها جماله ويرتقي كماله: (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا) (الأنعام: ١٣٢).

وإن وصف (العلماء) الذين يخافون الله –وهم من أعلى الناس رتبة–، ورد في الآية التي ذكر فيها هذا الوصف بتعريفهم على أنهم أولئك الناظرون الباحثون في الخلق الانساني وخلق الكائنات والكون من حولهم: (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ **مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) (فاطر:

الله عليه وسلم على طلبه، مع العلم بأنه لابد أن يفهم أن هناك علوماً لا يحتمل معها حب الدنيا، ويشترط الزهد لتحصيلها، والتجرد التام في سلوك تحصيلها، وأن هناك علوماً لا يمكن تحصيلها من دون حب صادق للحياة، كما أن هناك علوماً لا تتحصل إلا من وحي النبوة، ولكل مقامه وأهله، ومن الخطأ إعداد الناس (للحياة) بإلزامهم بالزهد فيها، وإنما لكل علم يورثه الله عبداً نوع استعداد، ولكل حال في عبد نوع علم ومقال.

٢٨)، وهؤلاء العالمون بهذا العلم الجليل –مع اتباع الوحي– هم من أكثر الناس وعياً بعظمة الخالق، وأشدهم ومن ثَمَّ حباً له وخوفاً منه!، وحرصاً على الخلق.

إن **إخلاص** النية لله في إقامة **العدل** بين الناس **وإصلاح** الأرض، هو أصل الدين وأساس الشريعة من الأمر التي جعلنا الله عليها وأمرنا باتباعها[١٠٣]، وهذه الأصول هي أساس هداية الله للناس بالقرآن، وهو الذي: (مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ* الَّذِينَ **يَنْقُضُونَ** عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَ**يَقْطَعُونَ** مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ**يُفْسِدُونَ** فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (البقرة: ٢٧)، وان كل ما سوى ذلك من تفاصيل التكاليف الشرعية إنما تندرج تحت هذه الأصول، ثم إنها تــتدرج في أهميتها ومنــزلتها بحسب ما تحققه في الوقت والمكان والإنسان المعين من موجبات ذلك الأمر العظيم، وعلى قدر الفهوم والهمم يفتي أهل العلم بالشريعة للواقع بالقدر الذي يصلح الحياة، ويرضي الله عن العباد.

• في آفــاق الحيــاة:

لعل بعض ما تعلمته في الصفحات الماضيات عن طبيعة الحياة أعطاك فكرة عن قدرها وحجم (التحدي والاستجابة) المطلوبين فيها، حين شهدت تميز النوع الانساني في قدراته الموهوبة له في (العلم والإرادة)، ثم في غرائزه الدافعة (للبقاء وللامتداد)، التي يؤطر ميدان تأثيرها أركان الوجود الإنساني الخاص بكل منا ذاتاً ومكاناً وزماناً، وما تحويه –هذه الأركان– من عظمة في (تفردك الذاتي)، وفي (تنوع

---

[١٠٣] يقول تعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) (الجاثية: ١٨).

بلا حدود) في المكان من حولك، وفي (التغير المستمر) المصاحب للحركة في الزمان، ثم عرفت كيف يتحدد (مقامك) وموقعك الخاص في الوجود، في حدود أنواع العلاقات الإنسانية مع (من لا نظير له: الله)، ومع (نظرائك من الناس)، ومع (من ليس لك بنظير من المخلوقات)، وواجبك –ضمن هذه الأنواع من العلاقات– في الاخلاص والعدل والاصلاح، وكيف تتم الحركة الإنسانية من خلال واقع قوانين (الاختلاف) و(المدافعة) فـــ(المداولة) في نظام الحركة الحضارية الإنسانية، وفي طبيعة التحدي والتغيير اللذين سيواجههما الفرد والجماعة مدة العمر في الخير والشر، وكيف يعمل نظام القدر على تشكيلك مع تغير توجه نيتك، في ظل سنن إلهية تتدرج بك بذلك التقدير، وأنت كادح في طريقك إلى لقاء الله.

ولعلك قد تدبرت فقه أن بلادة الحس نحو قيمة الحياة –مهما رافقها من مظاهر ودعاوى وشكليات– فإنها لن تعدو أن تكون قشوراً تغطي ضعف قلوب طال عليها الأمد، **ولم تتذوق حلاوة حب ربها الجميل، منذ أن فقدت حلاوة حب الحياة التي وهبها ذلك الرب،** ذلك أن الحب يورث الحب، ومن ثَمَّ فإن النظر –من دون حب– في وجود الأنواع التي لا تنتهي من الطيبات والشهوات والزينة –مع ما فيها من فتنة هي من طبيعة الحياة–: يغفل أنها نعمة وأنها وسائل لمقاصد تمثل تحدياً وفرصة للانجاز، وينطوي على سوء فهم للحكمة من خلق التنوع، أدى الى قصور الأمة في زماننا عن الإيغال في (التفاصيل) والإتجاه عمقاً في علوم الحياة وفنها، –بينما كانت في أيام من تاريخها رائدة للأمم في الحضارة وصناعة الحياة–، **وقل لي بربك كم حشرة ساهمت الأمة الإسلامية اليوم في تصنيفها وتسميتها من عالم الحشرات الذي عد أعضاؤه بالملايين؟، أم كم نوع سمكة جديدة اكتشفنا وأي محيط منجمد وغير**

منجمد سبرنا غوره؟!، وكم من النجوم ننوي رصدها ورصد مساراها، أم هل نحن مشغوفون بتصوير عملية تغيير الصبغة الجينية مستقبلاً أم أننا أقل حماساً لها من تصوير الذرة؟!، وإلى أين نريد لهذه الأمة أن تسير!؟[١٠٤].

إن فقه حقيقة الحياة بشموليتها وجمال تفاصيلها وخصوصية تجربة كل فرد فيها، يقودك إلى العلم بأن **خير ما يحبه منك ربك: إرادتك أقصى التفوق والاتقان الممكن في الموضع الذي أقامك فيه**، أباً أو أماً أو ابناً أو عاملاً أو عالماً أو متعلماً أو مزارعاً، وفي كل موقف صغير أو كبير في عمرك، لأنك قد آمنت بالله: (وَأَنْتُمُ **الْأَعْلَوْنَ** إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران: ١٣٩)، ومن علامة إيمانك التعرف إلى ربك من آثاره في خلقه وترى: (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي **أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**) (النمل: ٨٨)، **فتعزم – إرضاءاً لربك– على التخلق بروح الإتقان وإرادة التفوق في كل فعلك بلا حد، لأنك ترجو درجات بلا عدد!**، وهذا من أكمل أحوال كونك (عبداً لله)، فتضع نفسك في الموضع الذي يحبه ربك، وتستثمر ما أودع فيك من قدرات، وتستغل كل

---

[١٠٤] يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: (التدين الجاهل يحسب التخلف في الدنيا أمارة على التقدم في الآخرة، وهذا فهم منكر، فإن الدخول إلى الايمان يكون من باب العلم الحاذق، لا من باب القصور البليد، وهذا ما شرحته الآيات في قصة داود، وما نلفت إليه أنظار الأمم الغفيرة التي انتمت إلى الإسلام، وعاشت تتسول الصناعات من خصومه فكانت عاراً على دينها: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ* أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (سبأ: ١١)، وداود جمع في سيرته بين عملين متباعدين، التغني بآلاء الله وأمجاده بصوت رخيم كانت الطيور ترجع صداه وتشارك في مزاميره، والمهارة في الصناعات العسكرية والمدنية التي تحول الحديد إلى سيوف ورماح ودروع وإلى أوانٍ شتى من جفانٍ وقدور، ...، إن الفقه في الدنيا جزء من العقل الذي يفقه الآخرة، ولن يستطيع نصرة الإيمان أبله ولا قاعد)، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: ص٣٣١.

فرصة لتطور ما في الدنيا من طاقات، دون أن تقنع بمجرد واجبات الشعائر ثم تتكاسل عن فعل ما يحبه الله منك في ما سوى أوقات تلك الشعائر من الواجبات، وتلك هي (واجبات الأوقات) القائمة في كل لحظة من العمر في الموضع الذي أنت فيه، التي لا يمكن قضاؤها إن فاتتك، لأنها محددة بساعتها الخاصة التي لن تعود، في الوقت الذي يمكنك –على سبيل المثال– قضاء صلاة فائتة أو إفطار بعذر إن فات وقتها.

إن أهل الحق والإيمان أحق الناس بالحياة، إذ هي دار استخلاف جميل كما أنها دار مسؤولية وابتلاء، نستغل فيها فرصتنا الأولى في الكون، ونجرب حظوظنا وأفعالنا في مختلف خياراتها الممكنة، مع تقلب قلوبنا فيها بين الصبر والشكر وهي تواجه فيها المحن والمنح التي يربينا بها ربنا، وليس (تجنب) الدنيا مراداً، ولأن تجرب فرصتك فيها وتفشل خير من أن تنسحب ولا تجرب أبداً بدعوى الزهد في النعمة، لأن الدنيا ميدان عمل لا يفتر لنكون جديرين بموت جميل، فآخرة أجمل، **من خلال إحداث أقصى تغيير في موضعنا الخاص في الوجود لنجعله أفضل، بكل ما نملك من قدرات، ولنستحق أن نرث موضعا أفضل في وجودنا القادم، ما دمنا نرتقي في كل يوم في وجودنا الحالي إلى كمال أعلى، ونغير الدنيا ونتغير بها**، مع التمتع بها وشكر ربنا وإعمارها، وهذا حتى آخر لحظة لنا فيها كما يقول سيد الخلق صلى الله عليه وسلم: (**إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها!**)[١٠٥]، **وتخيل يا أخي وقد بدأ نظام الكون كله بالانهيار، والنجوم في طريقها للتناثر!، والشمس لأن تنطفئ!، وبدأت السماء تنفطر والبحار تتفجر!، وأجسادنا تتهيأ للنشور مع تبعثر القبور!، وأنت تعيش ذلك، وتبذل**

---

[١٠٥] سبق تخريجه.

جهدك لغرس تلك الفسيلة!، أي تفاؤل وأمل وإرادة للحياة هذه!، وأي مستوى للانجاز يراد مني ومنك!؟.

إن خير ما تستقبل به يومك الجديد في الدنيا: **(تفاؤل) هو من حسن الظن بالله** وبما يكون من الله الرحيم الخبير الحكيم وهو يربيك بأقداره، **مع حب لنعمة هذا اليوم الجديد** الذي تقضيه في الحياة مخلصاً في إرادتك لإصلاحها وتطويرها، **مع الرضا بالقضاء والترحيب بالتغيـــير** الذي لا ينفك يطرأ في مقاديرها وتحدياتها، وفي قابلياتك للاستجابة لتلك التحديات، على طريق صناعة لمسات تترك آثاراً يحبها منك ربك وترقى بك في الدرجات، وإذا كان جمال كل منا كامناً في (تفرده)، فإنك ستكون أجمل ما تكون عند ربك إذ تصنع في الحياة هذه اللمسة (المتفردة) التي تليق بتفردك، وتُرِي فيها خالقك مخلوقه الحر مستحقاً لما أكرمه به، وهو يبدع نوعاً صالحاً جديداً من الفعل في ميدان ما، بكلمة أو بموقف أو بفعل، أو برعشة قلب ينبض بالحب لله ولما خلق الله، أو برجفة ذلك القلب وهو يتصدع لتجلي صفات الله.

إن الإيمان منة عظيمة: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ (الحجرات: ١٧)، فشد العزم يا من أسلم وجهه لله لتستحق هذه المنة، وشمر عن ذراعيك لبذل أقصى الجهد في تحصيل الاتقان والتفوق مدة عمرك، في الموضع الذي أقامك فيه ربك، فهذا واجب وقتك في سوى أوقات وجوب الصلاة، وسبيل لأثر صالح يورث أجراً لا ينقطع بالموت، واعط الحياة قدرها من الحب، لأنك إن لم تعطها الحب فلن تعطيك إمكان الارتقاء فيها وفي درجات الجنة من بعدها، ولن يتعلم قلبك كيف يشكر واهبها، وينطق لسانه بكل حب أن: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ واهب هذا الحب.

على طريق إعادة تشكيل الوعي

(القسم الثاني)

(طبـــق المـــوت)

الباب الأول

(فقـــه المـــوت)

إن تجربة الموت عميقة وصامتة، تختلف في روحها عن روح تجربة الحياة السطحية الصاخبة، فلا تقلق، فربك يتدرج بك لتصل في روح كل طبق أقصى كمالك الممكن، وهو في كل طبق حافظ نفسك: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾. (الطارق: ٤).

على طريق إعادة تشكيل الوعي

الباب الأول

فقــــه المـــــوت

-موت جميــــل خلقه رب جميــــل!-

- **مقدمــــة في خصائــــص الموت!**

ما من حقيقة في حياتي وحياتك أثقل من حقيقة موتنا القادم!، ولئن جحد الجاحدون أصلهم وربهم، أو جحدوا لقاءه ومصيرهم، فلا يمكن لأي أحد أن يجحد حتمية موته، وهو موت ذو خصائص ثابتة وطبيعية وشاملة لايسع أحداً إنكارها، ولا تستثني أحداً: مؤمناً كان أم كافراً، عالماً كان أم جاهلاً، وهل يمكن لأي واحد منا أن ينكر هذه الحقائق الثقيلة:

> **حين يخلو العمر من حقيقة تفسر قضية وجودنا في الحياة لن يبقى معنى للجري لامتلاك أي شيء ما دمت سأموت وحيداً وأتركه ورائي!، خاصة وأنه لا مفر من هذا الموت، الذي لست أدري موعده!**

١. أنه سيموت **وحيداً** تاركاً كل ما أفنى العمر يجمعه: (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا **فُرَادَى** كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ) (الانعام : ٩٤)، -مثلما أنه آتٍ ربه فرداً: (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً) (مريم: ٩٥)-

.

٢. وأن هذا الموت **سيأتي حتماً** لتذوقه كل نفس: (**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (الانبياء: ٣٥)، ولا يستثني أحداً ولو كان أكرم الخلق عند الله: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) (الزمر: ٣٠)، ولا مفر ولا مهرب منه: (**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ** وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) (النساء: ٧٨)، فلقاء الموت حتم لازم: (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ **فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ**) (الجمعة: ٨)، مهما طال وقت فرصة العمر أو تعمدت إغفال ذكر حقيقته: (**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ** بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ **تَحِيدُ**) (ق: ١٩).

٣. **وأن الموت سيأتي مرة واحدة** وليس أمام المرء سوى فرصة واحدة: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ **رَبِّ ارْجِعُونِ** * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ **كَلَّا** إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (المؤمنون:١٠٠)، وإنما هي موتة واحدة بعد هذه الحياة: (لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ **إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى** وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) (الدخان: ٥٦)، ولا رجعة إلى هذه الدنيا بعد خروج الروح: (**فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ*** وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ* وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ* فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ* تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الواقعة: ٨٧).

٤. **وأن موعد خروج الروح من هذا الجسد بالموت سيأتي في وقت غير معلوم –بالنسبة لك–**: (**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا** وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (لقمان:٣٤)، وهذا الوقت مقدر ومؤجل

بأجل عند من خلقك: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ **ثُمَّ قَضَى أَجَلاً** وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) (الأنعام: ٢)، ولن يتأخر الموت ساعة عن هذا الأجل: (**وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا** وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (المنافقون: ١١).

٥. بل ان هذا الموت يشبه الحياة، من حيث كونه أمراً **لا نملك حتى اختيار الانتقال إليه!**، فكما قدمنا إلى الحياة من دون اختيار منا، فلن ننتقل منها إلى الموت إلا بإذن ربنا: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ **إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** كِتَابًا مُؤَجَّلًا) (آل عمران: ١٤٥)، لأن الله جعل الموت بيده وحده: (إِنَّ **اللَّهَ** فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ** وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) (الأنعام: ٩٥).

هذه هي **خصائص الموت الخمس**، التي تنـــتزع المعنى والقيمة من أي أمر تفعله أو تملكه في العمر –حين يخلو العمر من حقيقة تفسر قضية وجودنا في الحياة–، فما معنى الجري لامتلاك أي شيء إن كنت سأموت **وحيداً** وأتركه ورائي؟، لاسيما أنه **لا مفر** من هذا الموت، الذي **لست أدري موعده**، إذ لا يمكن ضمان عيش اللحظة القادمة، ولعلها تكون هي التي أغادر بعدها **بلا رجعة!**، فالموت صدمة اليقين للعقل، إذ يستعيد الوعي بالحقيقة الصغيرة التي يتعمد تجاهلها، والمتضمنة لكون كل واحد منا قد قدم إلى الحياة من الغيب، وهو عائد منها إلى الغيب –شاء أم أبى–، وليتعظ وليشرع في الاجابة عن الاسئلة الخالدة: (من أنا؟)، و(من أين؟)، و(إلى أين؟)، وبذلك فإن **الموت نعمة** لأنه يدفعك للتعرف على أغلى ما يستحق أن تعرفه!

لقد قضى الله العظيم بالموت على كل نفس: (نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ) (الواقعة: ٦٠)، وهو وحده الحي الذي لا يموت: (وَتَوَكَّلْ عَلَى **الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ** وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ) (الفرقان: ٥٨)، وهذا من تمام قهره لخلقه -سبحانه-: (**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ) (الأنعام: ٦١)، إذ جعل شأن الحياة والموت وما بعد الموت بيده وحده: (**وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ**) (الحِجْر: ٢٣)، فيقضي بالموت أو بالحياة لمن يشاء: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الزمر: ٤٢)، وإليه مرجع الأرواح التي منه بدأت: (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ **ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**) (السجدة: ١١).

الفصل الأول

- بين الحيـــاة والمـــوت -

• قلـــق المـــوت!

(الكائن في الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون في محيطاته، ومحبوس في هيكل ذاته) (الحكم العطائية: ٢٤٧)

لكي يعيش الحياة؛ يضطر الوعي الانساني إلى طمر مخاوفه وتناسي المصير القادم وحقيقة موته الأكيد - بكل بساطتها وثبوتها-: ليتمكن من أن يستمر، ولكنه يواجه الحقيقة ويحيا مرارتها وشدة صدقها في كل مرة يشهد فيها موت أحد يعرفه، أو عزيز أو غالٍ لطالما تشارك وإياه لحظات ود، فيصعق الى حد الذهول، حين يرى كل تلك المعاني والاهتمامات المتمثلة بذلك الشخص العزيز تطمر تحت التراب، وهو لا يستطيع إلا أن يشارك في تغطيته!، ثم في دك التراب على جسد ذلك الحبيب بكل مايعنيه من تاريخ وأحلام وأفكار وعلوم ومشاعر وذكريات!، ثم يعيد النظر إلى نفسه، وكيف سيكون يوم أن يأتي الموعد الذي يواجه فيه المصير نفسه!

ويعود دافع القلق والرهبة من الموت في الوجدان الانساني إلى ما يعنيه ذلك الموت القادم من أمر (**مجهول**) ما من سبيل تجريـــبي إلى معرفة ما بعده، إضافة إلى كونه أمراً حتمياً ستواجهه وحيداً، ومن ثَمَّ يتشكل (خوف) طبيعي منه، قد يفقدك حتى معنى العيش في الحياة، حين ينـــزع منها ما فيها من (معنى لأي فعل)!، أو (قيمة لأي شئ)!، وترى أمثال هذا القلق والاضطراب في نداءات من يواجه الأزمة ويعاني المشكلة ويحاول تفسيرها دون الاستعانة بوحي السماء، ثم حين يعييه الأمر ينادي أن:

(**يا إلهي خذ حياتي لأني لست أفضل من آبائي**)[106]، إذ لا معنى لمواصلة ما يفعله وهو مستيقن بأنه تارك كل حصاده وراءه، فيستصغر الانجاز في الحياة لأنه بلا قيمة، مادام لن يغادر الدنيا معك أحد سواك!، حتى تصير الحياة عند بعضهم وكأنها: (**استعداد هائل لشئ لن يحدث قط!**)[107]، يصل به إلى أن يتخذ قراراً بإنهاء المعاناة وينتحر!، حين تفقد كل الأشياء عنده معناها، أو انه حين يتخذ القرار **بـــ(مواصلة العيش)، فإن ذلك سيكون وفق مفهوم (مواجهة الأمر الواقع) بجمع ما أمكن من القوة لقضاء ما يمكن من شهوة، وتناسي التفكير فيما سيأتي، مهما كان صادقاً وأكيداً!،** وهذا السلوك وأمثاله تجاه القضية تجده مبثوثاً في كتب الأدب والفلسفة الغربية التي تعالج الأمر، حين يشل الخوف والقلق من الموت الوعي الانساني، بعد أن يعجز عن تفهم حقيقته، على أن من المنصف ذكر أن الأدبيات الانسانية التي تتحدث بنوع من الشجاعة عن قضية الموت، تعرفه دوما على أنه تجربة (**صامتة وعميقة**) كالألم، مختلفة عن التجربة (**الصاخبة والسطحية**) التي تمتاز بها اللذة، ويشكل هذا الفهم خطوة طيبة نحو السير بثقة أكبر نحو المرحلة القادمة من دون تخوف من مجرد مغادرة ما ألفناه في فرصة الحياة.

إن الموت بخصائصه الثابتة، وبخاصية تشابهه مع ما قبل الحياة من حيث كونهما (غيباً) جئنا منه وإليه سنعود، **يشكل (دافعاً) رائعاً وعظيماً للسعي لإدراك طبيعة الوجود**، ويؤسس لإرادة (معرفة) حقيقة الخلق، ولولا هذا الدافع لما سعى الانسان لمعرفة حقيقة نفسه، ولبقي غافلاً وسائراً بلا غاية.

---

[106] سقوط الحضارة- كولن ويلسون- دار الآداب- بيروت، ص٢٢.

[107] المصدر السابق.

• طبيعـــة المـــوت!

إن خالق الكون (جميل)، وفي كل ما خلق فيض من جماله، وإن الذي خلق الحياة الجميلة هو نفسه الذي خلق الموت: (الَّذِي **خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ** لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) (الملك: ٢)، والموت بهذه الصفة طبق **مخلوق** كطبق الحياة المخلوق وليس عدماً، كما أنه ليس قبيحاً أو (مضاداً) لطبيعة الحياة وجمالها، ولكنه (إكمال) لقصتها، ونقلة حتمية إلى نوع من الوجود (أرقى)، يليق بما يصل إليه الوعي الانساني من تدرج خلال فرصة العمر، وبما يكتسبه من خبرات وما ينتجه من ابداعات ترشحه لنوع أعلى من أنواع الخلق الإلهي له، وكما خلق ربنا الولادة وخلق الحياة بعدها وخلقنا فيها، فانه خلق الموت وسيخلقك ويخلقني فيما وراءه، فليس الموت مقابلاً أو نقيضاً للحياة، وإنما هو مقابل للولادة، وهو مثل الولادة بالضبط في كونهما مجرد نقطة تحول أو طريقة انتقال، ومن ثَمَّ **فليس الموت دافعاً لبغض الحياة، وإنما هو إكمال لجمالها، وبداية جديدة لما كانت الحياة قد أعدتك له.**

إن سر القلق والرهبة من الموت -كما ذكر- سببه الجهل بحقيقته، وإن المعرفة به تجعله أمراً طبيعياً متقبلاً كغيره من أطباق الوجود التي ركبناها قبله!، أو سنركبها كما وعد ربنا: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ **أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ** ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (البقرة: ٢٨)، وننتقل من حال إلى حال كما في قوله: (**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ**) (الانشقاق: ١٩)، فنحن قد جئنا إلى هذه الحياة بعد مرحلة موت (سابق) كنا فيه التقينا الله قبل أن تودع أرواحنا هذه الأجساد: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا**

أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) (الأعراف: ١٧٢)، فكان (اللقاء) الأول بالله عند موتنا الأول قبل هذه الحياة، حين كنا في (الطبق) الأول من أطباق وجودنا!، ومنه انتقلنا إلى هذه الحياة بوصفها (طبقاً) ثانياً، ومنها إلى طبق ما بعد الموت القادم (اللاحق)، ثم إلى الطبق الذي بعده حيث الحياة الأرحب، بما تحمله من (اللقاء) القادم الجميل بالله، الذي ماكان العمر إلا مجرد فرصة للاستعداد له، بالسعي للكون على مراد الله بإقامة العدل وإصلاح الحياة، بعد فرصة التعرف على ربنا وعلى أنفسنا.

- **إشـــارات الغيـــب:**

يلح منكرو (وجودنا) بعد الموت بإصرار غريب على عدم وجود أدلة (مادية) كافية لإثبات حقيقة ذلك الوجود، وفي الحقيقة فان إثبات هذا الأمر ليس صعباً كما يتصور لأول وهلة، بل هو من السهولة بمكان، وإن دعوى وجود عالم (غيب) غير منظور ليست دعوى (غير علمية)، لاسيما أننا من الغيب جئنا، وإليه نعود، وقد جعل الله لنا إشارات في هذه الحياة تؤكد للوعي وجود ذلك العالم الذي لايملك العقل بمؤهلاته الحالية إمكان التعامل معها، ولكنه يستطيع ان يستيقن وجودها بآثارها، وهو ما يشير إليه العارفون بقولهم: (الكائن في الكون و لم تفتح له ميادين الغيوب مسجون في محيطاته، ومحبوس في هيكل ذاته[١٠٨]).

إن الغيب: (اسم لما غاب عن الحواس)، والتصديق المطمئن بوجوده باب ليكون القرآن هادياً لفقه حقيقة الوجود: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ **هُدىً لِلْمُتَّقِينَ*** **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (البقرة: ٣)، ونحن

[١٠٨] الحكم العطائية، الحكمة ٢٤٧.

المسلمين نؤمن بمخلوقات من الملائكة لا نراها، تحكي هي عن نفسها واصطفافها هيبة لربها: (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ* وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ) (الصافات: ١٦٦)، بأعدادها الضخمة: (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) (المدثر: ٣١)، وهي مسخرة في الكون لتنفيذ مراد الله: (لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (التحريم: ٦)، فتحفظ ما يريد الله: (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) (الرعد: ١١)، وتوثق وتراقب أفعال العباد: (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) (ق: ١٨)، إلى غير ذلك من الشؤون التي يكلفها بها ربها. كما نؤمن بمخلوقات من الجن لا نراها، تحكي في القرآن عن نفسها بعد أن سمعت القرآن: (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً) (الجن: ١)، وهي مخلوقات تمتلك القدرة على الاختيار: (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ) (الجن: ١٤)، وليس صعباً التعامل مع (عالمهم)، فهم أضعف منا، مع أنهم يختصون برؤيتنا دون أن نراهم: (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ) (الأعراف: ٢٧)، وهم في النور أضعف منهم في الظلام، ويمكن لأي واحد منا أن يتوصل إليهم –رغم أن ذلك غير مراد ولا محبوب وقد يؤدي الى فتنة ورهق لأنهم أكذب منا نحن الانس -: (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً) (الجن: ٦)، أو يرى آثارهم أو يتحدث إليهم، والظواهر المتعلقة بذلك معروفة ومشهورة، وكذلك ظاهرة السحر ومتعلقاته حين تجتمع إرادة الشر الإنسانية مع الشر الجني الممكن، ووفق طقوس معينة يتم إحداث الضرر أو الأمر المراد –بإذن الله تعالى–، وكذلك ظاهرة الحسد حين تنطلق من نفس الحاسد طاقة لإرادة زوال الخير عن المحسود، وكثير منا ذاق آثاره ولا يستطيع إنكاره.

إن كل هذه الظواهر (حقيقية)، ونحن غير مكلفين في العمر بالتعامل معها أو معالجتها إلا بأمر حاسم واحد: وهو الاستعاذة برب المخلوقات جميعاً: –رب الفلق رب العالمين– الذي فلقها من ظلمات العدم الى نور الوجود، ، من شرها ومما تكون سبباً له من شر، فينتهي إمكان تأثيرها، ولا يكون لنا معها علاقة مدى العمر، ولكنها تبقى فقط دليلاً على عالم الغيب، وما يحمله الموت من وجود حقيقي غائب قادم، ستكون فيه (روحك) التي قدمت من ذلك الغيب في (طبقها الوجودي الثالث)، ولكي تتفهم بعضاً من قدر هذه الروح التي بين جنبيك وتتحسس بعض طبيعتها، وتستيقن من طبيعة (استقلاليتها) وأصلها غير المادي، تأمل في الحقائق التالية:

١. ما (نفسك) التي بين جنبيك؟، من (أنت) على وجه التحقيق؟، هل أنت هذا الجسد؟ ما علاقتك بما حولك؟، وتأمل الآن: هل ترى الحروف التي تقرأ بها هذه الكلمات الآن؟، نعم إنك تراها، ومن ثَمَّ فإنك (تدركها)، واذا أدركتها صارت أمراً (منفصلاً) عنك، لأنك (مُدرِك) –بكسر الراء– وهذه الحروف (مُدرَك) –بفتح الراء–، وهكذا لو نظرت إلى أي شئ حولك ستعرف أن هذا الشئ هو (ليس إياك)!، لأنك ببساطة (تدركه)، والآن إذا نظرت إلى يدك، وتأملتها، –ولعلك الآن تنظر إليها–، فإنك (ستدركها)!، وما دمت تدركها فإن هذه اليد الخاصة بك هي (ليست إياك)!، وكذا مع كل جسمك، وإنما هو مجرد ثوب مؤقت تتقمصه الروح!، حسناً، فمن أنت بالتحديد؟، إنك مجرد ذلك الشئ الذي (لا يمكن أن تدركه)!،

إنه (أنت)!، أو الروح التي ستخرج من هذا الثوب وتغادر يوما هذا المكان!

٢. إن هذا الجزء العظيم فيك: (روحك) هو الجزء الأصيل الحقيقي من ذاتك، ولو نظرت الى حجم (التغيير) الذي تعرض له جسمك وعلمك في مراحل عمرك، وكم تغير طولك وشكلك وقوتك صعوداً أو نزولاً، ثم تأملت كيف أنك مازلت (أنت)!، أو أن القسم الأصيل من ذاتك التي تعرفها هو كما هو، لم يتغير، لعرفت أن هذه الروح التي نتحدث عنها والتي ستغادر الى الوجود القادم أكثر (حقيقية) من أي شئ من حولك، بل حتى من جسمك المتغير هذا!، إن روحك أمر (خارج الزمن) وخارج نطاق قدرات الوعي الانساني على التمييز، لأنها خارج الحدود المادية التي تقيد وجود الجسد وتحيط به!، فهل أدركت عظمة ما وهبك ربك؟، وأنك قد خلقت خلقة عجباً، بروح أصلها من عالم الغيب والملكوت، وجسم كائن في الكون من عالم الملك والشهود، و(جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته؛ ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته، وأنك جوهرة، تنطوي عليك أصداف مكَوَّناته[١٠٩])، ولذلك فـــ(إنما وسعك الكون من حيث جسمانيتك، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك[١١٠])، فروحك تنتمي إلى ذلك الملكوت لا إلى هذا الجسد وهذا الكون!

---

[١٠٩] الحكم العطائية، الحكمة: ٢٤٥.

[١١٠] الحكم العطائية، الحكمة: ٢٤٦.

الفصل الثاني

- ما بــعد المــوت -

• البــرزخ:

> تخرج الروح من عالم الملك والشهود هذا، راجعة إلى عالم منه جاءت، وعنه مدة الحياة غابت، وفي أول عهدها بعالم الملكوت والغيوب، تشهد ملامح المكان وجماله، وخلقه الجديد عليها.

إن طبق ما بعد الموت (وجود) ذو خصائص متفردة كما أن لوجودنا في الحياة خصائصه، وجمال الموت يأتي في تكامله مع هذه الحياة التي نعيشها قبله ومع الحياة التي سنكون فيها من بعده، وتسمى المدة التي سيقضيها الواحد منا وهو في موته القادم (البرزخ): (وَمِنْ وَرَائِهِمْ **بَرْزَخٌ** إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (المؤمنون: ١٠٠)، وتعني الحاجز الذي يفصل بين مرحلتين، وهما هنا هذه الحياة والحياة الأخرى التي خلقها لنا ربنا وخلقنا لها، وتختلف طبيعة وجودنا البرزخي عن طبيعة وجودنا في هذه الحياة، إذ نتمتع هنا بالقدرة على أن (نعلم)، ثم بالقدرة على أن (نريد ونعمل) ونغير موضع استخلافنا في الأرض، فهذه الحياة علامتها ما يحدث من (التغيير) في أنفسنا وفي العالم، وأما الموت والوجود البرزخي فلا يقع منك فيه (تغيير) يؤثر في عالم الشهود، إذ ليس هناك (أدوات) تمكن منه، ومن ثَمَّ فنوع علاقتنا بالزمن -من حيث كونه مقياساً للفعل أو الحركة- فيه مختلفة، وإن الوعي فيه أعمق من حيث إمكان (علم) الإنسان بالأشياء، ولكن دون القدرة على (الفعل) المادي الذي عهدناه فيها.

إن الإنسان يمتلك قدرة على (التغيير) في نفسه وفي الأرض في هذه الحياة استعداداً للقاء الله، فالتغيير هنا يشمل: تغييراً في (العلم) ثم في ثمرات العلم من (الإرادة

والعمل)، ونحن قد كنا في (موتنا السابق) قبل فرصة هذه الحياة نعرف الله ولا نملك التغيير أو إمكان الفعل، وكذلك فإنه سيكون في موتنا القادم أيضا معارف عظيمة جداً تضاف إلينا خاصة بعد الخبرة التي حصلنا عليها هنا، ولكن دون أي فرصة لإحداث (تغيير) في عالم الشهود، حتى يأتي بعد البرزخ طبقنا النهائي، حيث الوجود المملوء الموار بما لا ينتهي من إمكان التغيير والارتقاء، حين توضع في الموضع الذي خلقت له وخلق لك، من بين مواضع لا تنتهي، ولا ينفك كل شئ فيها (يتغير) بدرجات لا تنتهي، خلقها رب لا نهاية ولا حد لقدرته على الخلق: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) (الرحمن: ٢٩)، فتبارك الله رب العالمين.

• لحظــة الخــروج:

إن الانتقال إلى الوجود البرزخي أمر محتوم وطبيعي، ويحمل آلاماً شديدة، إذ ان خروج الروح مؤلم، وللموت سكرات، ولكن هذا لا يجعل الموت شبحاً مرعباً، وإنما هو حال يصاحبه (ألم) كغيره من الآلام التي تتعرض لها في الدنيا، ولكنه من أشدها، إذ تنــتزع من كل خلية من جسمك قدرتها على الحياة، حتى يكتمل نزع روحك بأجمعها من كل موضع في جسمك كانت تدب فيه، ثم تنتقل تماماً إلى العالم الأرحب الواسع، حيث يعود إليك الوعي بجمال ما حولك وتألف طبيعتك الجديدة، كما كان منك حين خرجت من رحم أمك خائفاً، ثم ألفت وجودك في هذا المكان الصاخب الجميل، و لم يعد يعجبك أبداً أن تتركه!

وإن خروج الروح هين ما دامت تعرف قدر هذا الانتقال، وأنه قدوم إلى طبق وجود جديد، مما يهون عليها لحظات الترع، فتغادر خلايا الجسد بنعومة ويسر،

كقطرة تنساب من قدح ماء، وأما روح الكافر المتشبثة بالدنيا، فيصاحب خروجها ألم شديد، لشدة تعلقها بكل خلية من الجسم، فتترع منها بخشونة نزعاً تذوق معه كل خلايا جسمه آلام ذلك الترع[111].

---

[111] وفي حديث حسن ثابت، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة، وانقطاع من الدنيا، نزلت إليه ملائكة بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحَنُوط من حنوط الجنة، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة ورضوان)، قال: (**فتخرج تسيل كما تسيل القَطْرَة من فِيِّ السِّقاء**، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط، فيخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض). قال: (فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟! فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه في الدنيا، فينتهون به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له). قال: (فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهوا بها إلى السماء السابعة. فيقول: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى). قال: (فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه). وذكر المسألة كما تقدم، قال: (ويأتيه رجل حسن الوجه، طيب الريح، فيقول له: أبشر بالذي يسرك، فهذا يومك الذي قد كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير؟ ! فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي). قال: (وإن العبد الكافر إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط اللّه وغضبه، فتفرق في أعضائه كلها، **فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول**، فتتقطع معها العروق والعصب) [السَّفُّود ــ بالفتح والضم مع التشديد: حديدة ذات شعب معقفة، يشوي بها اللحم]. قال: (فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين

إن تجربة الموت عميقة وصامتة، تختلف في روحها عن روح تجربة الحياة السطحية الصاخبة، وإن لذة ما ستعرفه في البرزخ لا تفوقها أي لذة ذقتها من قبل في هذه الحياة، فلا تقلق، فإنك في كل أطباق وجودك (**محفوظ**) بحفظ من رب حفظك من يوم خلق من العدم روحك، وحفظك جنيناً في بطن أمك حيث نفخت روحك في جسدك، وحفظك إنساناً في هذه الحياة، وسيحفظ روحك حين تقبض، وتنتشر من بعد في (برزخها)، ويعيدها محفوظة عند خلقك الجديد الأخير بعد البرزخ مصحوبة بكل لمسة أو فكرة كانت منها، **فلا تقلق، فربك يتدرج بك لتصل في كل**

حتى يأخذوها، فيجعلوها في تلك المسوح). قال: (فيخرج منها كأنتن ما يكون من جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا؛ حتى ينتهوا إلى السماء الدنيا، فيستفتحون لها فلا يفتح لها)، ثم قرأ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (**لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ**) (الأعراف:٤٠)، ثم يقول اللّه تعالى: (اكتبوا كتابه في سجين ـــ في الأرض السفلى) قال: (فتطرح روحه طرحًا). ثم قرأ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم:(**أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**) (الحج:٣١). قال: (فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري). وساق الحديث كما تقدم إلى أن قال: (ويأتيه رجل قبيح الوجه مُنْتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك؛ هذا عملك الذي قد كنت توعد ؛ فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي لا يأتي بالخير؟ قال: أنا عملك السوء. فيقول: رب، لا تقم الساعة)، ثلاث مرات. (رواه الإمام أحمد وغيره عن البراء بن عازب).

طبق إلى أقصى كمالك الممكن، وهو في كل طبق حافظ نفسك: (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) (الطارق: ٤).

• خيــر المــوت

خير ميتة هي تلك التي يكون حالك حين حصولها موافقاً لأمر ربك الذي خلقك: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ **وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**) (آل عمران: ١٠٢)، وهو منهج في التوحيد: (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ **وَمَمَاتِي لِلَّهِ** رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الأنعام: ١٦٢)، أمر به إبراهيم بنيه: (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ **فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**) (البقرة: ١٣٢)، ودعا به لنفسه –وهو سيد الموحدين–، أن يلحقه ربه عند موته بأهل هذا التوحيد: (رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً **وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**) (الشعراء: ٨٣)، وبمثله دعا من بعده حفيده يوسف لنفسه: (**تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**) (يوسف: ١٠١)، وكان غاية السحرة الذين آمنوا بموسى لما هددهم فرعون بالصلب: (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً **وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ**) (الأعراف: ١٢٦)، وأمرنا ربنا أن ندعو لأنفسنا بمثله: (رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا **وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ**) (آل عمران: ١٩٣).

• اللحظــة الأخيــرة

ماعَمَرَ العُمرَ أحدٌ بشئ مثلما عمره سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم بكل خير، ولكن مضت سنة الله أن ينتهي مكوثه في هذا العمر، و لم يستثنه ربه مما قضى به على الأولين والآخرين، فكان أن دخل سيدنا جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم وقال: (يا رسول الله؛ ملك الموت بالباب يستأذن أن يدخل

عليك، وما استأذن على أحد من قبلك)، فقال النبي: (ائذن له يا جبريل)، فدخل ملك الموت على النبي صلى الله عليه وسلم وقال: (السلام عليك يا رسول الله، أرسلني الله أخيرك بين البقاء في الدنيا وبين أن تلحق بالله؟)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى)، فوقف ملك الموت عند رأس النبي وقال: (**أيتها الروح الطيبة، روح محمد بن عبدالله، أخرجي إلى رضى من الله ورضوان، ورب راضٍ غير غضبان**)، **تقول السيدة عائشة**: (**فسقطت يد النبي وثقلت رأسه في صدري، فعرفت أنه قد: مات!**).

وهكذا مات سيد الناس يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع:

ما فقد الماضون مثل مـــحمد ولا مثله حتى القيامة يفقد

وهل عدلت يوما رزية هالك رزية يوم مات فيه محمد؟

إنه ببساطة أمر الموت القادم الذي لن يستثنيك ولن يستثنيني، فليكن لك العزاء في موته صلى الله عليه وسلم، -وهو سيد الخلق وأعظم من غَيَّر الدنيا-، وأنت تحزن على حبيب قريب أودعته التراب قبلك، أو وأنت تنتظر موتك الخاص وحدك.

- **الفتـــنة الأخيـــرة**

بعد الكدح مدة العمر في دار جعل الله ما فيها زينة لها ليبلونا أينا أحسن عملا، وبعد عمر نقضيه بتقدير الله وهو يربينا بما يدبره لنا من مقادير، نتعرض فيها لفتن ومحن تصقل القلوب وترقى بها استعداداً للقاء الله؛ تحين ساعة المغادرة، ويأتي قدر الموت، وندخل بوابة البرزخ، حيث تعرض لنا (فتنة الممات)، وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن والكافر، أول عهده بالغيب، فتقدم عليه الملائكة -التي طالما كانت تحوطه

في الدنيا وهو لا يراها- للفتنة والتمحيص واستخراج الخبث، في حال استجواب لايمكن للروح الكذب فيه، وهي (تفاجأ) بما تعيه في وجودها الجديد في عالم الغيب، وهذه الفتنة تمهد لموضع الروح في درجات البرزخ، وتضعها في أول الطريق الذي يقودها إلى حيث يمكن لها أن تصل من هذه الدرجات، بحسب ما اكتسبت من النور في الدنيا وهي ترتقي في طريق تربية ربها لها.

وهذه الفتنة تمضي يسيرة سهلة على القلب السليم الذاكر لربه، بما يورثه ذلك الذكر من اطمئنان: (**أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**) (الرعد: ٢٨)، ولما ذاقه ذلك القلب من حلاوة الإيمان ووقر فيه من برد اليقين، وقد تزودت روحه بنور العمل الصالح، فتنادى عند الخروج: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ **الْمُطْمَئِنَّةُ*** ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) (الفجر: ٢٨)، ويثبتها ربها بالكلمة الطيبة مع بشرى الملائكة: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ **طَيِّبِينَ** يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل: ٣٢)، وهكذا **فما ان تخرج الروح من عالم الملك والشهود هذا، راجعة إلى عالم منه جاءت، وعنه مدة الحياة غابت، وفي أول عهدها بعالم الملكوت والغيوب، وهي تشهد ملامح المكان وجماله، وخلقه الجديد عليها،** تقدم عليها الملائكة بالسؤال، كما حكى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تلا قوله تعالى: (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفِي الآخِرَةِ) (إبراهيم: ٢٧)، قالَ: (ذَاكَ إذَا قِيلَ فِي القَبْرِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَما دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللّهُ، وَدِينِي الإسْلامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلى اللّهُ عَلَيهِ وسلَّمَ، جاءَ بِالبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللّهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ **فَيُقالُ لَهُ: صَدَقْتَ**، على هَذَا عِشْتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ).

وأما القلب المريض فستكون هذه الفتنة الأخيرة له مصيبة كبرى، إذ كما أخرج الله أضغان القلوب المريضة في الدنيا مهما أخفت نياتها: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ) (محمد: ٢٩)، تلك القلوب التي بمرضها شككت في وعد الله: (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا **وَعَدَنَا** اللَّهُ وَرَسُولُهُ **إِلَّا غُرُوراً**) (الأحزاب: ١٢)، حتى يفجأها الموت ويقطع عليها الحجة: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ **فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**) (النحل: ٢٨) ، فيذوق أهلها الذل في سكرات الموت: (وَلَوْ تَرَى **إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ** وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ **الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ** بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) (الأنعام: ٩٣)، وتضربهم الملائكة ضرباً إذ تتوفى أرواحهم من أجسادهم: (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) (الأنفال: ٥٠)، وحق على هذه القلوب المريضة أن تفتن فتنة خاصة، بما قصرت في جنب الله، ونافقت وظلمت و لم تستحي من الملك الحق، فيحصل لها خوف وتردد عن أن تجيب عن سؤال الملائكة عند لقائها، -حتى لو توافر لها العلم-، في فتنة ستذوق فيها مرارة الحيرة، كما وصفها النبي صلى الله عليه وسلم: (فَـيَأْتِـيهِ مَلَكانِ شَدِيدَا الانْتِهارِ، فَـيُجْلِسانهِ فَـيَنْتَهِرَانه، فَـيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَـيَقُولُ: لا أدْرِي، قالَ: فَـيَقُولانِ لَهُ: ما دينك؟ فـيقول: لا أدري، قال: فـيقال له: ما هذَا النَّبِـيُّ الَّذِي بُعِثَ فِـيكُمْ؟ قال: فَـيَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ ذلكَ، لا أدْرِي، قال: فَـيَقُولانِ: لا دَرَيْتَ، قالَ: وذلكَ قولُ اللّهِ (وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِـمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ ما يَشاءُ) (إبراهيم: ٢٧))[١١٢].

---

[١١٢] أنظر هذه الآثار وغيرها في تفسير الطبري لسورة ابراهيم، وقوله تعالى: (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا

بـــالقَوْلِ الثَّابِتِ فِـــي الـــحَيَاةِ الدُّنـــيْا وفِـــي الآخِرَةِ)، وفي صحيح مسلم وغيره عن ابن عباس ــ رضي اللّه عنهما ــ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن: (اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات).

الفصل الثالث

- المــوت الجميـــل -

• على طريــق فــهم المــوت

> تأمل كيف سيكون لقاؤك مع كل من أحببته في فرصة العمر، سواء التقيته هنا أو كان قد مر طيفه قبلك من أجيال الصالحين والشهداء والعلماء والصديقين والأنبياء، أو قد يكون ممن سيأتون من بعدك، ويلتقون على حبك بهذا الحب الجميل بما قدمته أنت في هذه الحياة من حب!

إن الحياة جميلة، وتستحق منا الحب لأن نعيشها ونتذوق ما أودع فيها ربنا الطيب من طيبات: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (المائدة: ٨٧)، (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي **أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ** وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (الأعراف: ٣٢)، وليس حب الحياة -التي هي نعمة عظيمة- ذنباً أو معصية، وإنما اجتماع حبها والتعلق بها مع (كراهية) الموت هو الخطيئة، إذ يدل على قصور في فهم كلتا **المرحلتين الجميلتين**، من حيث طبيعتهما المختلفة، ونوع الوعي بالوجود في كل منهما ومستواه، ومن حيث عمق الشعور باللذة أو بالألم فيهما.

ولسنا هنا في صدد الحديث عن الموازنة بين الموت والحياة، ولكن هذا التقديم مفيد لدفع الظن عمن يتوهم أن الحديث عن الموت إنما يعني دعوة إلى نبذ الحياة، وإنما مقصودنا هنا: دعوة إلى إعطاء الحياة حقها الطبيعي في أن تعاش حتى آخر لحظة منها الى الحدود القصوى الطيبة، كما تقدم في حديث: (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم

فسيلة، فان استطاع ألا تقوم حتى يغرسها: فليغرسها!)، وكذلك فهو دعوة لإعطاء الموت قدره من خلال معرفة طبيعته وبعض خصائصه، **وتأمل بعض جماله**، ومن ثَمَّ نبذ الخوف والقلق منه!، **إنه دعوة لأن نحب حياتنا، و(نحياها) بحب ورضا، ودعوة لأن نحب موتنا، و(نموته) بحب ورضا!**

• المـــوت خيـــر للمؤمـــن وللكافـــر

إن أجل الموت المحتوم سيأتيك وقد فرغت من نصيبك في الحياة كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها)[١١٣]، وحين يأتي يكون الإنسان قد بلغ أقصى كماله الممكن تعرفاً على ربه ونفسه، وقد أخذ كامل فرصته ليستعد للقاء هذه النفس مع الله رب العالمين، وأياً كان ما أفنى فيه العمر، فإن الأجل يأتيه ويكون له (خيراً مطلقاً)، بحيث إنه لا يكون له أدنى نفع في لحظة زائدة واحدة في العمر، لأنه إن كان مؤمناً فإنه سيرحل إلى موضع ذي (درجات) خير من الذي هو فيه: (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ **خَيْرٌ** لِلْأَبْرَارِ) (آل عمران: ١٩٨) ، وإن كان كافراً فليوقف انحداره في (الدركات) عن كماله الذي قصر عنه بسوء عمله المستمر: (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ **لِيَزْدَادُوا إِثْماً**) (آل عمران: ١٧٨)، ومن ثَمَّ **فلتطمئن نفسك وأنت تهيل التراب على جسد حبيب في قبره، أو حين تعيد النظر إلى نفسك، وكيف سيكون يوم يأتي الموعد الذي يهيل التراب فيه عليك غيرك، ولتعلم أن هذا الأمر هو خير محض له في كل حاله، وسيكون لك كذلك بإذن الله.**

---

[١١٣] رواه ابن ماجه.

● الموت بشرى لكل من كان (الطيـب) جبلتـه

ليست هذه مبالغة في البشرى، فمعظم النفوس التي تقرأ هذه الكلمات، -مهما كانت مقصرة-؛ تحمل في داخلها حباً للخير وبغضاً للشر، وحلماً صادقاً بأن ينتصر الخير كله على الشر كله، وهذا (الطيب) النقي الفطري حين يكون من قلب عرف الله وأطاعه: ضامن لك أن يكون موتك خيراً بلا شك، وهذه بشرى يقينية من لدن ربك (الطيب)، وقد أشهدك علامة عليها واضحة، حين آتاك من العمر ما تذوق فيه من خيرات هذا الطيب مع أهل وأصحاب يغدقون الحب عليك، أو وأنت تتذوق نعماً ومنناً ملأت عمرك، -مهما كنت عنها غافلاً، أو معلقاً قلبك بسواها مما لا تملكه بينما تنسى عظمة ما تملكه فعلاً-، فإن هذا كان كله من نصيبك المقدم في الدنيا: (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل: ٩٧)، وسيعقبه نصيب من الطيب عند موتك: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ **طَيِّبِينَ** يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ) (النحل: ٣٢)، ثم النصيب الأعظم من الطيب الأعظم يوم لقاء ربك: (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ **طِبْتُمْ** فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) (الزمر: ٧٣)، في مواضع طيبة: (وَمَسَاكِنَ **طَيِّبَةً** فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (الصف: ١٢)، فأنت مغمور في الطيب من كل مكان في دار الطيب الكاملة: (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ **طُوبَى** لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) (الرعد: ٢٩).

• الموضـــع الجميـــل

عند الموت ستدخل عالماً فسيحاً، سعته (**المكانية**) النسبية إلى سعة هذه الدنيا، كالسعة النسبية للدنيا كلها بالقياس إلى ضيق الرحم الذي أودعت فيه قبل أن تخرج منه إلى هذه الحياة، وكذلك فان امتداده (**الزمني**) لا يقاس أبداً إلى عمرك القصير هنا، فهو ممتد إلى آجال متطاولة، تنعم فيها **روحك بنوع من اللذة مركز وعميق وطيب**، يشبه بعض ما تذوقه الروح في منام طيب جميل، ولكنه أكثر تركيزاً منه في لذته بما لا يقاس[١١٤]، مع ما يفتح لها من آفاق عالم الملكوت المذهلة، التي تذوق معها النفس رزق ربها بفرح مستبشرة، من مثل حال الشهداء: (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ **يُرْزَقُونَ*** **فَرِحِينَ** بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ **وَيَسْتَبْشِرُونَ** بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ) (آل عمران: ١٧٠)، -ولكل نصيب في مقامه ودرجته من هذا الفرح وهذا الاستبشار-، فتأمل رحمك الله أي آفاق رحبة تنتظرك

---

[١١٤] ((تظاهرت أدلة القرآن والسنة والآثار والاعتبار والعقل على أن الروح ذات قائمة بنفسها، تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجيء وتتحرك وتسكن)): ((الروح) لابن قيم الجوزية)، وتسمع **وتتألم**: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ **الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ**) (الأنعام: ٩٣)، وتتكلم وتندم: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (المؤمنون: ١٠٠)، وتنادى وتطمئن: (**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي**) (الفجر: ٣٠)، كما أنها تتعارف وتعرف بعضها بعضاً، كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها إئتلف وما تناكر منها اختلف)، ((رواه البخاري في (الأدب المفرد)، وصححه الألباني))، فهو وجود تام بكل خصوصيته وأحواله ومستوى الوعي فيه.

هناك -إن كنت من أهل حب الخير وإصلاح الحياة-، في **سعة المكان وامتداد الزمان وطبيعة وجود الذات!**

• المـــوت راحـــة

هكذا وصفه النبي صلى الله عليه وسلم حين مرت به جنازة لإنسان لم يعرفه، فقال: (مستريح ومستراح منه)[١١٥]، فالموت إما راحة للإنسان (الطيب) من الكدح في العمر وتحدياته ومسؤولياته وابتلاءاته، أو (إراحة) للناس من شر ذلك الإنسان إن كان من أهل الشر، وفي كل الأحوال فإن انتقال أرواح ذوي القلوب المحبة للخير إليه سهل مريح وهين، وخروجها من الجسد (كخروج قطرة الماء من فِيِّ السقاء) بوصف النبي صلى الله عيه وسلم –الذي تقدم-، ووجودها في البرزخ من بعد (راحة)، وأما أهل الفساد والشر، فموقمم (راحة) لمن بقي من بعدهم في الدنيا، ولكن لن يكون انتقالهم (راحة)، نتيجة لتشبث أرواحهم بكل خلية من أجسادهم -مع يقينهم بأنه قد آن وقت مغادرقما-، فتنتزع أرواحهم انتزاعاً لتغادر: (كما ينتزع السفود من الصوف المبلول –وقد مر بك الحديث-)، والأمر عائد إليك اليوم في أن تتجهز لتلك اللحظة القادمة غداً، فتلزم قلبك بحب وإرادة صادقة لكل خير وصلاح وعدل، مع تجنب وبغض صادق لكل شر وفساد وظلم، **ليكون موتك: (راحة)!**.

---

١١٥ رواه البخاري.

• الموت فــراق مؤقت لمن تركتــه وراءك، وفيه لقــاء الأحبــة الذيــن سبقــوك

إن الموت بداية وليس نهاية، وهو مجرد فراق مؤقت، بالنسبة لمن بقي بعد الميت، والكل مجموع إليه، وسيعقب العمر لقاء أكيد، بين من يموت وبين كل من فارقهم من قبل أو فارقوه من بعد، **والموت خير من الحياة من هذا الوجه، وهي التي لا تعدو أن تكون اجتماعاً قصيراً، الفراق بعده محتوم، بينما اللقاء القادم في البرزخ بعد الموت طويل الأمد،** فلا يغلبنك الشوق على فراق من تحب؛ فإنك ملاقيه، وهو ملاقيك، وإنما هي بقية أيامك في هذا العمر هنا تفصل بينكما، **فعش عمرك مع من تبقى من أحبابك واغمرهم بالحب،** لأنه سيأتي عليك يوم يفارقونك أو تفارقهم مرغماً، ولا تأس كثيراً على من ذهب، لأنك ملاقيه حتماً.

وقد كانت كلمة طيبة، أنطقها الله سيدنا بلالاً رضي الله عنه، (الطَيِّــب) الذي أختاره ربه ليكون مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عند احتضاره موقناً مستبشراً: (غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه)، ذلك أن: (المرء مع من أحب)[١١٦] كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه **(المعية) شاملة وعامة في هذه الدنيا، وفي البرزخ، ويوم القيامة** -كما يقول ابن القيم رحمه الله[١١٧]-، لا تنقض عراها

---

[١١٦] رواه البخاري.

[١١٧] (فتكون كل روح مع رفيقها الذي هو على مثل عملها، وروح نبينا محمد في الرفيق الأعلى قال الله تعالى: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً) (النساء: ٦٩)، وهذه المعية ثابتة في الدنيا وفي الدار

المسافات، وتختصر كل الأزمان، لأنها معية من ثمرات رباط في القلوب هو أقدس رباط في الأرض، ولا يكون إلا بتأليف من رب السماوات والأرض: (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ) (الأنفال: ٦٣)، وهو رباط الحب الصادق المتعالي على حواجز الزمان والمكان –بل الحياة والموت–، الذي لا يملك أن يصل إليه أو أن ينقضه إنسان: فـــ(ما جمعه الله لا يفرقه إنسان).

وتأمل كيف سيكون لقاؤك مع كل من أحببته في فرصة العمر، سواء التقيته هنا[١١٨]، أو كان قد مر طيفه قبلك من أجيال الصالحين والشهداء والعلماء والصديقين والأنبياء، أو قد يكون ممن سيأتون من بعدك، ويلتقون على حبك بهذا الحب الجميل بما قدمته أنت في هذه الحياة من حب!

البرزخ وفي دار الجزاء والمرء مع من أحب في هذه الدور الثلاثة)، انظر كتاب (الروح) لابن القيم: ٧٨.

[١١٨] تتلاقى الأرواح وتتزاور وتتذاكر ما كان منها في الدنيا وما يكون من أهل الدنيا من أول القدوم إلى البرزخ، حين تقدم بالروح الملائكة، كما ورد في حديث رواه النسائي والبزار ورواه مسلم مختصرًا عن أبي هريرة ـــ رضي اللّه عنه: (**فيأتون به أرواح المؤمنين، فَلَهُمْ أشد فرحًا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه، يسألونه:** (**ماذا فعل فلان؟**)، **فيقولون:** (**دعوه، فإنه في غم الدنيا**)، **فإذا قال:** (إنه أتاكم)، **قالوا:** (**ذهب إلى أمه الهاوية!**))

إن الأرواح في البرزخ في طبقات لا تعد، بينها درجات عالية مما يدرك أمثالها **الشهداء الذين ماتوا في سبيل الله**، وأرواحهم تحيا وترزق في أجساد طير خاصة[١١٩]، فرحة مستبشرة: (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) (آل عمران: ١٦٩)، وأما أهل الإصلاح **والصديقية الذين عاشوا في سبيل الله** فهم أعلى درجة، وأرقى نوع نعيم ممن سواهم، سوى الأنبياء والمرسلين، ودونهم جميعاً **الصالحون**، ولكل صنف نوع نعيم بعد الموت مختلف في طبيعته ودرجته.

ستكون أنت مع أحباب وأصحاب من طبقتك، تتزاور وتتحاور مع من أحببت منهم، ولكن الناس درجات كما علمت، ينـــزل منهم ذوو الدرجات العليا إلى ذوي الدرجات الدنيا، بينما لا يستطيع الأخيرون الصعود إلا حيث تسمح لهم طاقة النور الذي يعطونه بما قدموا من عمل طيب، أو بما يصل إليهم من آثار أعمال طيبة تركت بصمتها في الارض: (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا **وَآثَارَهُمْ**) (يس: ١٢)، بصدقة جارية صلحت بها الحياة، أو علم ينتفع به يقود لحياة أفضل وأصلح، أو ولد صالح يدعو له بصدق، فيزداد (نور) من يدعو له، ويرتقي، ويلتقي!

---

[١١٩] عن عبدالله بن مسعود أنه سئل عن قوله: (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) (آل عمران: ١٦٩)، فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فأخبرنا (أن أرواحهم في طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت)، الحديث، رواه الترمذي.

خاتــمة في جمـــال ما في الموت من وفـــاء!

- **المــوت: (وفــاء)!**

> سيتوفى الله روحك وروحي، ويخرجها الى حيث يشاء حين موتها، وهو أمر تستحقه روحك وتستحقه روحي، لترتقي بعده إلى مواضع وأطباق من وجودها لا حدود لكمالها وجمالها.

في لحظة ما (**سابقة**)، وفي موضع تحيط به (**ظلمات ثلاث**)، أودعت روحك المسكينة وروحي هذه الأجساد الضعيفة ونحن في أرحام أمهاتنا، بعد أن كانت أرواحنا قبل ذلك حرة طليقة، لاتعرف سوى أنها قد قدمت إلى الوجود بمشيئة الله بعد أن لم تكن (**شيئاً**) مذكوراً، وأنه ربها الذي عرفته ولم تعرف سواه، كما كان حين سألها مع كل أخواتها من أرواح بني آدم: (**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**)؟، فكانت ضمن من قالوا: (**بَلَى شَهِدْنَا**) (**الأعراف: ١٧٢**).

وبين ضيق إمكانات هذا الجسد الهزيل الذي تمكث فيه تلك الروح الآن، وما أحاطها به من شهوات وخيالات، ضاعت ذكرى ذلك المكان الفسيح الذي إليه انتمينا أول مرة، حين لبثت تلك الروح المسكينة هنا سنين طويلة منذ أن نفخت في نطفة ما، في رحم ما، في يوم ما، ثم هي الآن (**حبيسة**) ضيق هذه الارض، وهذا الجسد، الذي لا يليق بمثلها ولا بمثل ماضيها، لكونها قد التقت يوماً ما: (**الله**) رب العالمين!

وفي لحظة ما (**قادمة**)، سيعود لهذه الروح (**حقها**)، (**وفاءاً**) لماضيها، ويستوفيها الله ربها الكريم من هذا الجسد: (اللَّهُ **يَتَوَفَّى** الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) (**الزمر:**

٤٢)، ومن أعظم من الله استيفاءاً؟![120]، فتغادر هذا المكان الضيق، وهذا الجسد المكدود، إلى موضع فسيح هو خير لها، وأولى بها يوم تأتي تلك اللحظة، وفيه نعمة وراحة لمثلها، -إن كانت ممن يعلم!-، حيث تلتقي فيه أحبتها لقاءاً أكثر دواماً مما عهدته في لقاء الحياة المؤقت، وتشهد فيه جمال عالم الغيب والملكوت الذي خفي عنها مدة مكوثها في هذه الدنيا، وفيه البشرى الأكيدة بطيب المقام لكل من عاش طيباً، ومات على ذلك الطيب.

سيتوفى الله روحك وروحي، ويخرجها الى حيث يشاء حين موتها، وهو أمر تستحقه روحك وتستحقه روحي، لترتقي بعده إلى مواضع وأطباق من وجودها لا حدود لكمالها وجمالها.

وأجمل ما يكون (يوم الاستيفاء): حين يأتي وتكون أنت قد قضيت فترة الكدح مدة استخلافك في هذه الأرض بالاستعداد لذلك اليوم بلمسات حب تغير بها وجه الحياة: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً

---

[120] قال الراغب الأصفهاني في (معجم مفردات ألفاظ القرآن)، مادة (وفى): (الوافي: الذي بلغ التمام. يقال: درهم واف وكيل واف وأوفيت الكيل والوزن، (وفى) بعهده يفي وفاء، و(أوفى): إذا تمم العهد و لم ينقض حفظه، و(توفية) الشيء: بذله وافياً، و(استيفاؤه): تناوله وافياً. قال تعالى: (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ) (آل عمران:٢٥)، (وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ) (الأنفال: ٦٠)، وقد عبر عن الموت والنوم بالتوفي، قال تعالى: (ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلأَنفُسَ حِينَ مَوْتِـــهَا) (الزمر: ٤٢)) اهــ باختصار.

فَمُلاقِيهِ﴾ (الانشقاق: ٦)، فتكون لك بها شهادة جدارة بالارتقاء، بما يكتب لك من ما يترتب عليها من آثار إلى يوم القيامة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (يس: ١٢)، حين تلبي نداء الله وتأتيه وحدك كما خلقك أول مرة: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الأنعام: ٩٤)، ولعلك بما أعددت تكون جديراً بما قضى الله لك بعده من (لقاء) يجمعك وحدك مع (الله).

على طريق إعادة تشكيل الوعي

(القسم الثاني)

(طبــق المــوت)

الباب الثاني

(مختصر في فقه ما بين طبق البرزخ والطبق الأخير)

(القيــامـــــــة)

الفصل الأول: في شأن ما قبل الخلق، وشأن ما بعد البرزخ

الفصل الثاني: ما بعد البرزخ: يوم القيامة

الفصل الثالث: جهنم: دار الألم

إن الزمن تافه بين طبق الحياة المحدودة ثم طبق البرزخ الطويل المحدود، وبين طبق الخلود بعدهما الذي لا تحده حدود.

الباب الثاني

مختصر في فقه ما بين طبق البـــرزخ والطبق الأخيـــر

(القيـــــــامـــة)

الفصل الأول

-في شـــأن ما قبـــل الخلق، وشأن ما بعـــد البرزخ-

• قبـــل وجـــود أي شئ سوى الله:

قبل أن يخلق الله ما سواه: (**كان الله ولم يكن شئ**)، وقبل أن يخلق ربنا الوجود صدرت أعظم شهادة في الوجود: (**شَهِدَ اللَّهُ** أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) (آل عمران: ١٨)، **حيث شهد الله على نفسه وحده بالألوهية له وحده، قبل خلق أي شيء**، وقبل أن توجد مادة وذرات وماء وملائكة تسبح بحمده وتشهد، وقبل أن يوجد إنسان: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ **لَمْ يَكُنْ شَيْئاً** مَذْكُوراً) (الإنسان: ١)، حتى أتى حين من الدهر، إذ فلق رب الفلق مخلوقاته من ظلمة العدم إلى نور الوجود، وكانت (رتقاً) ففتقها لتشكل المكان والزمان: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ **كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا**) (الأنبياء: ٣٠)، فكان في الكون خلق

كما فتقت الأشياء في الكون بعد الرتق، حتى تفلكت أشكالها ومداراتها جسيمات كهربية تسبح حول الذرات، أو نجوماً كروية سابحة حول أفلاكها في المجرات، فانها ستطوى بتدوير معكوس، ويعود ما انفتق من قبل ليرتق كما كان: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) (الأنبياء: ١٠٤)

من كل شيء، يشهد أن لا إله إلا الله، ويسبح بحمد ربه ورب كل شيء: ﴿**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤).

• نهايـــة البـــرزخ:

وبهذا التسبيح صدحت وتصدح كل أرجاء الوجود، ما دام في أطباق الموت أو الحياة أو البرزخ موجود، حتى يأتي حين يصعق فيه كل شيء إلا من شاء الله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ **فَصَعِقَ** مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ (الزمر: ٦٨)، ويحدث الانقلاب الكوني، وينهار نظام الكون فتنفطر السماء: ﴿إِذَا السَّمَاءُ **انْفَطَرَتْ**﴾ (الانفطار:١)، حتى تنشق: ﴿إِذَا السَّمَاءُ **انْشَقَّتْ**﴾ (الانشقاق: ١)، وتُكَوَّر الشمس وتنكدر النجوم: ﴿إِذَا الشَّمْسُ **كُوِّرَتْ*** وَإِذَا النُّجُومُ **انْكَدَرَتْ**﴾ (التكوير: ٢)، وتتناثر الكواكب: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ **انْتَثَرَتْ**﴾ (الانفطار: ٢)، وكما فتقت الأشياء في الكون بعد الرتق، حتى تفلكت أشكالها ومداراتها جسيمات كهربية تسبح حول الذرات، أو نجوماً كروية سابحة حول أفلاكها في المجرات، فانها ستطوى بتدوير معكوس، ويعود ما انفتق من قبل ليرتق كما كان: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا** إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٤)، وتجتمع كتل النجوم والكواكب: ﴿**وَجُمِعَ** الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (القيامة: ٩)، حين ينتهي البرزخ ولما يبدأ البعث: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ **بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ (المؤمنون: ١٠٠)، ويبدأ اليوم الأخير الذي وعدت به أنبياء الله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا **الْيَوْمَ الْآخِرَ**﴾ (العنكبوت: ٣٦)، ويتغير شكل الوجود فلا يعود شئ بعدما صعق مسبحاً أو شاهداً، حين ينادي الله: ﴿**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ**﴾؟! (غافر: ١٦)، فتخشع الأصوات كلها، وقد توقف وعي الأشياء بنفسها، وقد سكنت الذرات والنجوم عن الدوران والتسبيح،

وسكنت الملائكة الصافات الدؤوب وحتى الأرواح عن التسبيح، فيكون الجواب شهادة لله من الله، أنه الواحد ما من سواه، القهار لكل ما سواه: (**لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**)! (غافر: ١٦)، **ويعود الكون حيث الشهادة الأولى لله وحده على الله وحده دون أي (شيء)**، كي لا يظن (شيء) –سوى الله– أن له من الأمر (شيئاً)، أو أن يظن (شئ) أن له على الله من حق في (شيء)!.

إنه إعلان بدء الجزء الأعظم من تاريخ زمان الخلق، وموعد نهاية الخلق بهيئته المعروفة، ومثلما قضى الله عليك بالموت بعد انتهاء فرصة استخلافك الفردي المؤقت في الوجود، وقضى على كل جيل من الأمم بالموت بعد استخلافهم المؤقت، فسيأتي يوم ينتهي فيه استخلاف كل أجيال بني آدم، وذلك مع زوال موضع الاستخلاف وما كان فيه من إعمار وإصلاح أو تخريب وإفساد، ليخلص الأمر كله لله، وليستقر اليقين في نفس المخلوق أن خالقه العظيم غني عنه وعن ما أنجزه مدة استخلافه واستخلاف جنسه، ليبدأ بعده الطبق الذي من أجله خلق الخلق: (**وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ** لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت: ٦٤)، ومعه يبدأ وجود النفس المتفردة في موضعها المتفرد الخاص الذي خلقت له وخلق لها، حين تنزل كل نفس منزلها الأخير في **موطنها الأول الحبيب**: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ **الْجَنَّةَ**) (البقرة: ٣٥).

الفصل الثاني

-ما بعـــد البــــرزخ: يــــوم القيـــامــــة!-

• اليـــوم العظيـــم:

بعد أن يُصعق ما في الوجود سوى خالقه، ويشهد رب الوجود الواحد القهار لنفسه وحده أن له الملك وحده، ينقر في ناقور القيامة، وينفخ في الصور نفخة أخرى ليقوم الناس للبعث الذي به ينتهي طبق البرزخ: (ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ **قِيَامٌ يَنْظُرُونَ**) (الزمر: ٦٨)، وذلك في يوم عظيم يقوم فيه الخلق للقاء رب الوجود: (أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ* لِيَوْمٍ عَظِيمٍ* **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**) (المطففين: ٦)، فيبرزون جميعاً للقاء الواحد القاهر لكل من سواه، في موضع جديد مناسب لطبق الوجود الجديد: (**يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ** وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) (إبراهيم: ٤٨).

يأزف اليوم الأخير فتقع الواقعة العظمى في تاريخ الوجود: (إِذَا وَقَعَتِ **الْوَاقِعَةُ**) (الواقعة: ١)، فيصخ الأسماع صوت شديد يخرس كل ما سواه من الأصوات: (فَإِذَا جَاءَتِ **الصَّاخَّةُ**) (عبس: ٣٣)، حين يقرع كل شئ بكل شئ: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا **الْقَارِعَةُ**) (القارعة: ٣)، وتعم الكون طامة تطم وتغطي ما سواها من المصائب: (فَإِذَا جَاءَتِ **الطَّامَّةُ** الْكُبْرَى) (النازعات: ٣٤)، وتغشى وتحيط بأهوالها كل الوجود الذي خلقه الله: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ **الْغَاشِيَةِ**) (الغاشية: ١)، ثم ينهض الناس حين حصولها دفعة واحدة حيث يجمعهم ربهم: (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ **ثُمَّ**

يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (الجاثية: ٢٦)، فيقومون لربهم: (يَوْمَ **يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**) (المطففين: ٦)، حين يسمعون جميعاً النداء ذلك اليوم: (يَوْمَ **التَّنَادِ**) (غافر: ٣٢)، ويبعثون بعد الموت: (يَوْمِ **الْبَعْثِ**) (الروم: ٥٦)، ويخرجون من القبور: (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ **يَوْمُ الْخُرُوجِ**) (ق: ٤٢)، ويجتمعون لِلِّقاء: (وَتُنْذِرَ **يَوْمَ الْجَمْعِ** لا رَيْبَ فِيهِ) (الشورى: ٧)، وهو يوم التلاقي الأعظم: (لِيُنْذِرَ **يَوْمَ التَّلاقِ**) (غافر: ١٥)، وتخصيصه بذلك لالتقاء من تقدم ومن تأخر، والتقاء أهل السماء والأرض، وملاقاة كل أحد بعمله الذي قدمه، كما أنه لقاء الخلق ربهم الله خالق الخلق: (وَاتَّقُوا اللَّهَ **وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ**) (البقرة: ٢٢٣)، وقد أبلغنا من قبل أن غاية الخلق اللقاء: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ **كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ**) (الانشقاق: ٦).

إنه يوم متجهم شديد: (يَوْماً **عَبُوساً قَمْطَرِيراً**) (الإنسان: ١٠)، تشخص فيه العيون من الرعب: (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ **تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ**) (إبراهيم: ٤٢)، سوى المؤمنين الذين يؤمنهم ربهم بما كان من إيمانهم وصالح عملهم: (وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ **آمِنُونَ**) (النمل: ٨٩)، فيتفرق الناس أصنافاً: (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ **كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ**) (القارعة: ٤)، ويفر كل منهم من الآخر لينجو بنفسه: (يَوْمَ **يَفِرُّ الْمَرْءُ** مِنْ أَخِيهِ) (عبس: ٣٤)، فلكل واحد شأن في نفسه لا يشغله سواه: (**لِكُلِّ امْرِئٍ** مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ **شَأْنٌ يُغْنِيهِ**) (عبس: ٣٧)، وليأتي كل واحد من الناس ربه فرداً: (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ **فَرْداً**) (مريم: ٩٥)، وحيداً بلا مال ولا ولد: (يَوْمَ لا يَنْفَعُ **مَالٌ وَلا بَنُونَ**) (الشعراء: ٨٨)، وقد تقطعت المعاملات والصلات: (يَوْمٌ **لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ**) (إبراهيم: ٣١)، في يوم صعب: (فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ **عَسِيرٌ**) (المدثر: ٩)، لا يرده راد

وقد قضى الله أمره: (اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ **لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ**) (الشورى: ٤٧)، وزال كل سلطان مؤقت لشئ على شئ إلا السلطان المطلق لله الواحد على كل شئ: (يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً **وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ**) (الانفطار: ١٩)، وله وحده سلطان حساب الخلق: (**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**) (الفاتحة: ٤).

• الوجــود: مسؤوليــة!

لقد أنذرنا واهب الوجود من قبل أنه سيسألنا عن هبة الوجود: (لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ **وَهُمْ يُسْأَلُونَ**) (الأنبياء: ٢٣) وأن مواهبنا مسؤولية: (ثُمَّ **لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**) (التكاثر: ٨)، وأن الوحي الذي أنزله مسؤولية: (وَإِنَّهُ **لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلونَ**) (الزخرف: ٤٤)،وأن أعمالنا مسؤولية: (**وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**) (النحل: ٩٣)، وأن وجودنا المؤقت هنا لن يكون سدى: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً)؟ (القيامة: ٣٦)، وأن مرجعنا إلى الله الذي خلقنا: (إِنَّ إِلَيْنَا **إِيَابَهُمْ**) (الغاشية: ٢٥)، وعليه حسابنا وسؤالنا: (ثُمَّ إِنَّ **عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**) (الغاشية: ٢٦)، وهو حساب دقيق لا يستثني أدق قول أو فعل: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ **مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا** وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) (الأنبياء: ٤٧)، يرى فيه المخلوق وزن الذرة مما عمل من خير أو شر: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) (الزلزلة: ٨)، ولا يستثني عرضاً لأدق خواطر المرء وسرائره: (يَوْمَ **تُبْلَى السَّرَائِرُ**) (الطارق: ٩)، ولا يملك أحد أن يخفي عن ربه من أمره شيئا: (**وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً**) (النساء: ٤٢)، وذلك: (يَوْمَ تَأْتِي **كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا** وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) (النحل: ١١١).

• حصـــاد العمـــر:

ويشهد العبد ذلك اليوم **أربعة أنواع من الجمع** عند الحساب:

الأول: جمع الأجساد وتزويجها الأرواح: (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) (التكوير: ٧)، فيرجعها الله إلى الحياة: (إِنَّهُ عَلَى **رَجْعِهِ** لَقَادِرٌ) (الطارق: ٨)، ويجمعها الله الذي خلقها أول مرة: (وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً* **أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً**) (مريم: ٦٧)، وهو أمر هين على الله: (بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ **نُسَوِّيَ بَنَانَهُ**) (القيامة: ٤).

الثاني: جمع ما كان من الإنسان من قول أو عمل مدة العمر: وقد جعل الله على كل عبد رقيباً على كل كلمة تصدر منه: (**مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ** عَتِيدٌ) (ق: ١٨)، كما يثبت ما يكون من المرء من عمل في كتاب: (هَذَا **كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ** مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الجاثية: ٢٩)، يشتمل على كل أمر صغير أو كبير: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ **لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا** وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) (الكهف: ٤٩).

الثالث: جمع ما ترتب على وجود العبد وأفعاله وأقواله من آثار وتبعات في الأرض إلى يوم القيامة: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى **وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ** وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) (يس: ١٢)، فــ(ما من نفس تقتل إلا وعلى إبن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل) و(من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر

من عمل بها إلى يوم القيامة)[١٢١] –كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم–، وإن كلمة طيبة صغيرة بدأت من عبد قد يراها نميت له بعد أجيال بما يكون منها من أثر: (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ **وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ* تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ** بِإِذْنِ رَبِّهَا) (إبراهيم: ٢٥)، كما ان قمامة يرميها العبد في غير موضعها لتتراكم من بعده وتصنع بعد قرون تلوثاً وفساداً في الأرض، تجعل للعبد نصيباً في ذلك الفساد، وتأمل **كم من الأثر يترتب على كل قول أو فعل منك!**، وكم سيحصي الله عليك من كل شئ، لتشهد على نفسك: (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً* اقْرَأْ كِتَابَكَ **كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً**) (الإسراء: ١٤).

الرابع: جمع ما سرى في تيار شعور الإنسان وعقله من خواطر وأفكار وسرائر:

وهذا أمر مما اختص الله بعلمه: (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ **يَعْلَمْهُ اللَّهُ**) (آل عمران: ٢٩)، ويجمعه على الإنسان: (**وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ**) (العاديات: ١٠)، ويحاسب عليه: (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ **يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ**) (البقرة: ٢٨٤)، وليس من منجى للعبد معه سوى التسليم بعد الطاعة: (وَقَالُوا **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا** وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (البقرة: ٢٨٥)، والدعاء: (رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا) (البقرة: ٢٨٦)، وقد رحم الله هذه الأمة بالتجاوز عن ما حدثت به نفسها ما لم تعمل أو تكلم[١٢٢]، ولكن الخطر عظيم إذ

---

[١٢١] رواه الإمام مسلم.

[١٢٢] روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تكلم به).

يُحَصَّل ما في الصدور جميعاً، فتأمل أيها العبد ما يكون من حصاد للعمر، وحساب بالحق بعد الحصاد.

إنه يوم يحق الله فيه للحق حقه: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا **الْحَاقَّةُ**) (الحاقة: ٣)، فلا وزن للباطل يومئذ: (**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ** فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الأعراف: ٨)، ويحاسب الخلق فيه على ما فرطوا في دينه وفي أمره ونهيه، فيفتح بينهم بالحق ويتبين الصادق من الكاذب: (قُلْ **يَوْمَ الْفَتْحِ** لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ) (السجدة: ٢٩)، ويفصل بينهم بالحق بما قدموا: (إِنَّ **يَوْمَ الْفَصْلِ** مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ) (الدخان: ٤٠)، وهو يوم مشهود: (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ **مَشْهُودٌ**) (هود: ١٠٣)، عظيم الشأن يستصغر دونه كل يوم: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ **يَوْمٍ عَظِيمٍ**) (مريم: ٣٧)، توعد الله فيه الظالمين الذين ما قدروا الله حق قدره: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ **يَوْمُ الْوَعِيدِ**) (ق: ٢٠)، حتى لا ينفع فيه لظالم عذر: (يَوْمَ **لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ**) (غافر: ٥٢)، بل لا يؤذن لهم ليعتذروا: (**وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ**) (المرسلات: ٣٦).

• يوم الحســـرة القـــريب:

إن هذا اليوم الموعود حق أكيد لا شك فيه: (رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ **لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ**) (آل عمران: ٩)، وفي كل لحظة تموت في الأرض نفس مثلي ومثلك، يجعل الله وفاتها دليلاً على الغيب الذي منه جئنا وإليه نعود: (فَلَوْلاَ **إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ*** **تَرْجِعُونَهَا** إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الواقعة: ٨٧)، وإن المسافة بيننا وبين هذا اليوم الموعود قصيرة، إذ **إن الزمن تافه بين طبق الحياة المحدودة ثم طبق البرزخ الطويل المحدود،**

وبين طبق الخلود بعدهما الذي لا تحده حدود: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ **الْخُلُودِ**﴾ (ق: ٣٤) وهذا يجعل ساعة الجزء الأعظم من تاريخ الخلق وموعد نهايته بهيئته المعروفة قريبة: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ**﴾ (القمر: ١)، وقد حانت وضاق وقت ما بيننا وبينها وأزف: ﴿**أَزِفَتِ الْآزِفَةُ**﴾ (النجم: ٥٧)، وإنما المصيبة أن يأتي المرء ذلك اليوم وقد غاب عنه أن يقدم له فيتحسر: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ **يَوْمَ الْحَسْرَةِ** إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (مريم: ٣٩)، حين يفقه أنه قد أدرك موضعه الأخير: ﴿وَإِنَّ **الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ** لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤)، وأن هذا الموضع هو وحده ما يستحق أن يسميه حياة لنفسه: ﴿يَقُولُ يَا **لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**﴾ (الفجر: ٢٤)، وكما يتذوق المرء مرارة الغبن حين يغفل ويبخسه شخص ما حقه بالخفية؛ فإن المرارة العظمى ستكون يوم ينظر ما قدمت يداه وتبدو له الأشياء بخلاف مقادير الدنيا، وكم بخس من حق نفسه حين باعها لسوى الله، أو حين قصر في جنب الله فخسر درجة من الدرجات التي لا تنتهي: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ **يَوْمُ التَّغَابُنِ**﴾ (التغابن: ٩)، في طبق وجوده الذي ستشهد وصف ربك المعجز له في (فقه الجنة) موطننا الأول ومنزلنا الأخير.

الفصل الثالث

-جهنـــم: دار الألـــم-

• بين النـــور والنـــار:

إن نور الله سر الوجود: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (النور: ٣٥)، وكما فلق الله كل روح إلى نور الوجود من ظلمة العدم، فإن كل روح في ظلمة إذ تضع نفسها في غير موضعها الذي يرضاه ربها لها بعد الوجود، لأنها بالله وجدت، وبمدد نوره تبقى بعد الوجود، وان النفوس التي أبت أن تكون في موضعها الحق عابدة لرب الوجود، فعبَّدت نفسها لمن سواه، وغشيت عصيان ربها وظلمت، فغشاها ران القلوب حتى أظلمت: (كَلَّا بَلْ **رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ** مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (المطففين: ١٤)، وختم الله على تلك القلوب: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) (البقرة: ٧)، حتى ما عاد فيها من منفذ يرد منه إليها نور الحق، بما قطعت نفسها عن النور: (**وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**) (النور: ٤٠)، فاستحقت أن تغسل أدرانها بالألم حتى تنقيها، لأن الألم (حاجز الإدراك)، وبه يتنبه الغافل ويتذكر الناسي ويقر الجاحد، فحق على تلك النفس أن تعصف بها: (**نَارُ اللَّهِ** الْمُوقَدَةُ) (الهمزة: ٦)، وتحرق فؤادها وموضع (الهوية) و(الأنا) منها: (الَّتِي **تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ**) (الهمزة: ٧)، حتى تنقيها وتصفيها، ولتعرف قدر ربها وقدر نفسها، فيكون الوجود في جهنم مؤقتاً لكل من كان فيه بذرة من الخير، أو لمن اختلط فيه الخير والشر حتى يدرك (هويته)!

• نبــأ من الله بوعـــد الله:

لقد أنبأنا ربنا عن نفسه نبأً عظيماً: (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) (الحِجْر: ٥٠)، وإن شأن الناس بعد البرزخ وعرصات

القيامة عظيم، وأنهم جميعا سيردون بعد تفرقهم أشتاتاً موضعاً يرون فيه هول هذا العذاب: (**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا** كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً) (مريم: ٧١)، فينجي الله المتقين حتى يردوا الجنة موطننا الأول ومنزلنا الأخير، بينما يجثو فيه الظالمون: (**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً**) (مريم: ٧٢)، وهذا وعد من الرحمن: (هَذَا مَا **وَعَدَ الرَّحْمَنُ** وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) (يس: ٥٢).

ولقد توعد الله من اتخذ من دونه إلهاً بأن يعذبه في دار الألم والعذاب العظيم الأكبر: (فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ **الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ**) (الغاشية: ٢٤)، وفيها الويل والوجع لمن كان منه الفساد والتكذيب بربه: (**وَيْلٌ** يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) (المرسلات: ١٥)، وفيها يعيد الألم المحض الشديد للوعي ما غاب عنه من إرادة معرفة ربه ومعرفة قدر نفسه ومقامه في الوجود، عن طريق تعرضه للنار: (الَّذِي يَصْلَى **النَّارَ الْكُبْرَى**) (الأعلى: ١٢)، والنار: هي اللهيب المحسوس، **ودار الألم:** نار عظيمة أضافها الله إلى نفسه ويوقدها بلا انقطاع: (**نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ**) (الهمزة: ٦)، وجعل وقودها الناس والحجارة: (فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي **وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) (البقرة: ٢٤)، فتحمى بلا حدود: (نَارٌ **حَامِيَةٌ**) (القارعة: ١١)، **وهي أشد حرارة من أي نار**، شررها كالقصر في عظمته فكيف بأصلها: (إِنَّهَا تَرْمِي **بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ**) (المرسلات: ٣٢)، ولهيبها **(لظى) خالص من الدخان:** (كَلَّا إِنَّهَا **لَظَى**) (المعارج: ١٥)، وهو **متزايد** لأنه (سعير): (وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ **السَّعِيرِ**) (الملك: ٥)، و(**جحيم**) **متأجج بعضه فوق بعض:** (وَإِذَا **الْجَحِيمُ** سُعِّرَتْ) (التكوير: ١٢)، فيكون (**سقراً**) يذيب ما فيها: (سَأُصْلِيهِ **سَقَرَ**) (المدثر: ٢٦)، حتى يحطم بعضها بعضا فتكون (حطمة): تحطم ما فيها: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا **الْحُطَمَةُ**) (الهمزة: ٥).

• اسم دار العــذاب:

سميت دار العذاب بــ(**جهنم**) لكونها ناراً **بعيدة القعر**: (وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ **فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ**) (الإسراء: ٣٩)، فهي (**هاوية**) يسقط إلى أسفل من يلقى فيها: (**فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ**) (القارعة: ٩)، ، فكأنها سجن عميق: (وَمَا أَدْرَاكَ **مَا سِجِّينٌ**) (المطففين: ٨)، يساق أهل الشر حتى أسفلها: (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) (التين: ٥)، ففيها دركات: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي **الدَّرْكِ** الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) (النساء: ١٤٥)، ولها سبعة أبواب تفتح ثم تغلق على من فيها: (لَهَا **سَبْعَةُ أَبْوَابٍ** لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ) (الحِجْر: ٤٤)، ويسمعون صوت شهيقها وهي تفور: (إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا **شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ**) (الملك: ٧)، مغتاظة من عصاة الله: (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) (الملك: ٨) ولا تكتفي مما يلقى فيها: (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ **وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ**) (ق: ٣٠)، وعليها تسعة عشر من جنود الله: (عَلَيْهَا **تِسْعَةَ عَشَرَ**) (المدثر: ٣٠)، ويتولى التعذيب فيها ملائكة غلاظ شداد: (عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ **غِلاظٌ شِدَادٌ**) (التحريم: ٦)، هم زبانية جهنم: (سَنَدْعُ **الزَّبَانِيَةَ**) (العلق: ١٨)، ويخاطب أهل النار خازنها بطلب أن يقضي عليهم ربهم وينهي عذابهم، فيجيبهم بأنهم ماكثون: (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ **لِيَقْضِ** عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ **مَاكِثُونَ**) (الزخرف: ٧٧).

• صورة من الألــم:

يصلى الظالمون النار ويشوون بها فتذيب الجلود لأنها (سقر) في قدرتها على الإذابة: (**سَأُصْلِيهِ سَقَرَ**) (المدثر: ٢٦)، ويحرقون بتعريضهم للهب: (وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ **الْحَرِيقِ**) (آل عمران: ١٨١)، وطعام أهلها بلا نفع لأجسادهم: (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ* **لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ**) (الغاشية: ٧)، من شجر الزقوم يغلي في بطونهم: (إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ* طَعَامُ الْأَثِيمِ* **كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ**) (الدخان: ٤٥) ، ومعه طعام من (غساق) من ما يقطر من جلود أهل النار: (إِلَّا حَمِيماً وَ**غَسَّاقاً**) (النبأ: ٢٥)، و(**غسلين**) **هو بقايا أجسادهم**: (وَلا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ **غِسْلِينٍ**) (الحاقة: ٣٦)، يغصون به إذ يأكلونه: (وَطَعَاماً **ذَا غُصَّةٍ** وَعَذَاباً أَلِيماً) (المزمل: ١٣)، ويشربون ماءاً شديد الحرارة من عين حارة: (تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ **آنِيَةٍ**) (الغاشية: ٥)، ويصب هذا الماء من فوق رؤوسهم **حميماً حاراً**: (**يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ**) (الحج: ١٩)، فيشربونه **شرب البهائم**: (فَشَارِبُونَ شُرْبَ **الْهِيمِ**) (الواقعة: ٥٥)، فيقطع أمعاءهم: (وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً **فَقَطَّعَ** أَمْعَاءَهُمْ) (محمد: ١٥)، وأما الهواء في النار فريح حارة تؤثر كالسم: (فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا **عَذَابَ السَّمُومِ**) (الطور: ٢٧)، وظلها من دخان (يحموم) حار شديد السواد: (وَظِلٍّ مِنْ **يَحْمُومٍ**) (الواقعة: ٤٣).

يُساق أهل النار إليها زمراً: (**وَسِيقَ** الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ **زُمَراً**) (الزمر: ٧)، وهم عن ربهم محجوبون: (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ **لَمَحْجُوبُونَ**) (المطففين: ١٥)، ويعرفون بعلاماتهم فيؤخذون من نواصيهم وأقدامهم: (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ **بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ**) (الرحمن: ٤١)، ويدفعون إليها دفعاً: (يَوْمَ

يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ **دَعّاً**) (الطور: ١٣)، ويسحبون فيها على وجوههم: (يَوْمَ **يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ**) (القمر: ٤٨)، فيتمنى الواحد منهم لو يفتدي من عذابها بأهل الأرض جميعاً: (يُبَصَّرُونَهُمْ **يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي** مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ* وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ* **وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ**) (المعارج: ١٤)، بينما هم ينادون المؤمنين ليقتبسوا من نورهم: (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا **انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ** قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ) (الحديد: ١٣)، ووجوه أهلها سود بلا نور: (فَأَمَّا الَّذِينَ **اسْوَدَّتْ** وُجُوهُهُمْ) (آل عمران: ١٠٦)، عليها غبار ويغشاها دخان: (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا **غَبَرَةٌ* تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ**) (عبس: ٤١)، ويعلوها الوجوم والعبوس: (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ **بَاسِرَةٌ**) (القيامة: ٢٤)، وقلوبهم خائفة وأبصارهم ساكنة: (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ **وَاجِفَةٌ*** أَبْصَارُهَا **خَاشِعَةٌ**) (النازعات: ٩)، ونفوسهم ذليلة: (خَاشِعِينَ مِنَ **الذُّلِّ**) (الشورى: ٤٥)، فعذابهم مهين: (وَلَهُمْ عَذَابٌ **مُهِينٌ**) (آل عمران: ١٧٨)، في موضع مغلق عليهم مكاناً: (إِنَّهَا عَلَيْهِمْ **مُؤْصَدَةٌ**) (الهمزة: ٨): وموثقين بالسلاسل والأغلال فيها فلا يتغير عليهم الزمان: (وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ) (الفجر: ٢٦)، في نار تحرق موضع الهوية و(الأنا) منهم: (الَّتِي **تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ**) (الهمزة: ٧)، لا يقضى عليهم فيها فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ **لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا** كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ) (فاطر: ٣٦)، بل يُزاد عليهم عذابها: (فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً) (النبأ: ٣٠)، ولا يموت من فيها ولا يحيا: (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ **لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى**) (طه: ٧٤)، وهم فيها خالدون إلا ما شاء الله: (قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ **خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (الأنعام: ١٢٨).

على طريق إعادة تشكيل الوعي

(القسم الثالث)

(فقــــه الجنـــــة)

(موطنـــنا الأول ومنـــزلنا الأخيـــر)

إن المفهوم الذي ستقرأه في الصفحات القليلات التاليات عن وجودنا النهائي، لا يمكن لعقل إنساني مهما كانت خلفيات وعيه أن ينتجه، وستراه في (فقه الجنة) هذا غاية من غايات الرقي والعلو، التي تليق بمخلوق مفضل كريم.

على طريق إعادة تشكيل الوعي
(القسم الثالث)

فقـــه الجنـــة

(موطنـــنا الأول ومنـــزلنا الأخيـــر)

ستعقب موتنا القادم وهجعتنا المؤقتة في القبر: يقظة ونشور، فحياة هي الحياة: (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت: ٦٤)، هي عودة إلى موطن منه ارتحلنا، ولنا خلق وله خلقنا، ولا سبيل للتعرف عليه بسوى بنور الوحي، إذ يعرفنا القرآن العظيم بخصائص لا تعرف بغير خبر السماء عن هذا الوجود النهائي العظيم، من حيث كونه الجزاء المتفرد لكل فرد من النوع الإنساني، المتنوع بتنوع الفعل الانساني، ولذلك فهو جزاء ذو **درجات يعلمها الله**، الخالق لما يشاء كما يشاء، يتجاوز وصفها كل خصائص المكان والزمان التي عرفنا، إذ إن كل درجة منها ممتدة **عمودياً وأفقياً كما يشاء ربها (مكاناً)، وممتدة طولياً بلا نهاية (زماناً)، ولا ينفك فيها التغيير –علامة الحياة– مستمراً**، في تنوع لا حصر له، من رب جميل، (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) (الرحمن: ٢٩).

ومن أجل تدبر أفضل لخصائص ذلك الوجود، من الضروري الوعي **بمقدمات ثلاث:**

المقدمة الأولى: تتعلق **بالله (خالق الجنة)**، ومعرفة أن الله خالق لكل ما سواه من العدم: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ **كُنْ فَيَكُونُ**) (النحل: ٤٠)، **ولا حد** لقدرته على الخلق، ولا لعدد ما يخلق ونوعه: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي **لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي** وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً) (الكهف: ١٠٩).

والمقدمة الثانية: تتعلق **بخصوصية الفرد الإنساني (ساكن الجنة)**، ومعرفة تفرده المطلق في خلقته، بدليل قوله تعالى: (أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً) (المائدة: ٣٢)، لأن كل فرد لا مثيل له، ومن ثَمَّ فإن **جزاءه وموضعه النهائي في الطبق الأخير متفرد كتفرد خلقته**، وينال الفرد فيه درجته بحسب ما أحدث من تغيير في الدنيا، وبحسب عمق ذلك التغيير و(آثاره)، وما ترتب على حياة الفرد في الدنيا إلى يوم القيامة من صلاح أو فساد أو خير أو شر: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ **مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ** وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) (يس: ١٢).

والمقدمة الثالثة: تتعلق **بالجنة**[١٢٣]، وهي دار السعادة الخالصة، وأن الأصل في وصفها أنه (**فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ** مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

---

[١٢٣] ورد في اللغة أن (جنن): أصل استعمل فيما استتر عن الحواس، فــ(الجُنون): استتار العقل، و(الجِنُّ): مخلوقات مستترة عن الاعين، و(الجُنَّة): بضم الجيم الترس الواسع الذي يختفي الرجل وراءه، و(جَنَّ): عليه الليل أي ستره بظلامه، و(الجنان): القلب المستور عن الحاسة، و(الجنن): القبر لستره الميت، و(الجَنين): للطفل المستتر في بطن امه، و(الجنة): كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض، (وانظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ومفردات الراغب الأصفهاني، وبصائر

(السجدة: ١٧)، وأنه (ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء)، وما أعده الله فيها هو مما (**ولا خطر على قلب بشر**).

إن المفهوم الذي ستقرؤه في الصفحات القليلات التاليات عن وجودنا النهائي، لا يمكن لعقل إنساني مهما كانت خلفيات وعيه أن ينتجه، وستراه في (فقه الجنة) هذا غاية من غايات الرقي والعلو، التي تليق بمخلوق مفضل كريم: (وَلَقَدْ **كَرَّمْنَا** بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ **وَفَضَّلْنَاهُمْ** عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) (الإسراء: ٧٠)، فدونك هذا المفهوم، وإنما هو كتاب ربك يحدثك عنه، فاقرأه مستصحباً ما ذكرته لك من المقدمات عن الله وعن نفسك وعن الجنة، وأعط ما ستقرؤه من عقلك وقلبك ما يستحق!

ذوي التمييز للفيروز آبادي)، واستعمل القرآن لفظ (الجَنَّة) اسماً **لدار اللذة الخالصة التي سترها الله عن إمكان ان يعيها عقل لعظم قدرها**: (**فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ** مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (السجدة: ١٧).

الفصل الأول

-الخصائـــص العامـــة للوجـــود في الجنـــة-

أولاً: قـــدر الجنـــة والوعد والبشرى بها:

١- عظمة الجنة وقدرها:

- **الجنة موطننا الاول، ولنا خلقت ولها خلقنا:** (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) (البقرة: ٣٥)
- **الجنة خير ما يحصل عليه انسان في مآله الأخير:** (أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) (آل عمران: ١٣٦).
- **وحياتنا فيها هي الحياة الحقيقية:** (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت: ٦٤).
- **فالجنة رحمة الله:** (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ) (الجاثية: ٣٠)
- **وهي نزل خاص من عند الله:** (لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ) (آل عمران: ١٩٨)
- **ومن لدن الله:** (وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) (النساء: ٤٠).
- **وهي تشرف بنسبتها إلى الله:** (وَادْخُلِي جَنَّتِي) (الفجر: ٣٠)

٢- الوعد بالجنة:

- **الجنة وعد من الله:** (وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التوبة: ٧٢)
- **وهو وعد سيسأل العباد ربهم تحقيقه لهم:** (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْؤُولًا) (الفرقان: ١٦)
- **وهو وعد صادق:** (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) (الاحقاف: ١٦).

٣- البشرى بالجنة:

- **البشرى بالجنة من الله:** (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) (التوبة: ٢٢).
- **ومن رسوله صلى الله عليه وسلم:** (وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة: ٢٥).

ثانياً: خصائــص الوجــود في الجنـــة:

١- المكان في الجنة ممتد:

- **سعة الجنة كسعة عرض السماوات والارض:** (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) (الحديد: ٢١).

- **بل ان السماوات والأرض هما عرضها مع امتداد المكان وتوسع الوجود:** (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران: ١٣٣).

٢-الزمان في الجنة ممتد، ومعه يستمر نعيم أهل الجنة ولا ينقطع:

- **لا يتوقف ولا ينقطع جزاء ربك في الجنة:** (فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) (الزيتون: ٦).
- **ويدوم فيها العطاء بمدد لا ينقطع من الله:** (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ) (هود: ١٠٨).
- **وإنعام ربهم لا ينفك يتجدد عليهم ويجدد حياتهم بنعمة بعد نعمة:** (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ) (الفاتحة: ٧).
- **في زمن حاضر ممتد بلا خوف من مستقبل ولا حزن على ماض:** (فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة: ٣٨).
- **ذلك انها دار المستقر بلا نهاية:** (مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا) (الكهف: ٣).
- **ومهما طال العهد فيها فإنه لشدة جمالها ولذتها لا يريد أهلها أن يتحولوا عنها:** (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) (الكهف: ١٠٨).

٣- مدى درجات الجنة اختص به الله، والتفاضل بينها عظيم، والعلم المطلق بما أخفي فيها غير ممكن:

- **لكل إنسان درجته وجنته الخاصة به:** ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الانعام: ١٣٢).
- **وعدد الدرجات التي خلقها الله للعباد في الجنة أكثر من كل ما يكون في الدنيا من درجات بين الناس، والتفاضل بين كل درجتين من الدرجات أكبر:** ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (الاسراء: ٢١).
- **وهي منازل ودرجات بعضها فوق بعض:** ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ (الزمر: ٢٠).
- **وهي درجات لا ينتهي عددها:** ﴿أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الانفال: ٤).
- **ولا يمكن لعقل أو خيال أن يدرك ما في الجنة من نعيم:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة :١٧).

ثالثاً: أهــل الجنــة:

١- أهل الجنة خير بني آدم لأنهم:

- **وفوا بعهدهم مع ربهم:** ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (الفتح: ١٠)

- **فكان ما عند الله خيراً لهم:** (وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ) (آل عمران: ١٩٨).

- **فأفلحوا بما قدموا:** (وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (البقرة: ٥).
- **وفازوا حيث خسر غيرهم:** (لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ) (الحشر: ٢٠).
- **فكانوا من المكرمين:** (أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ) (المعارج: ٣٥).
- **وشرفوا بنسبتهم إلى ربهم:** (فَادْخُلِي فِي عِبَادِي) (الفجر: ٢٩)

٢- الرجل والمراة سواء في الجزاء، بحسب ما أدى كل منهم من إصلاح في فرصة العمر:

- **فكل منهم يدخل الجنة:** (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً) (النساء: ١٢٤).
- **وكل منهم ينال أجره المستقل بما قدم:** (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (النحل: ٩٧).

٣- بين الجنة وأهلها:

- **من أهل الجنة من يساق إليها:** (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) (الزمر: ٧٣).
- **ومنهم من تقرب إليه الجنة وتزلف له:** (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) (الشعراء: ٩٠).
- **فيراها وهي تقرب إليه:** (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ) (ق: ٣١).

رابعاً: أحـــوال أهـــل الجنـــة:

١- السلام في الجنة:

- **الجنة دار السلام:** (لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (الانعام: ١٢٧).
- **وعلى أهل الجنة من ربهم سلام:** (سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ) (يس: ٥٨).
- **وسلام من خزنة الجنة:** (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) (الزمر: ٧٣).
- **ولا تنفك الملائكة تسلم عليهم:** (وَالَمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ* سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) (الرعد: ٢٤).
- **وهذا السلام يبدأ من لحظة مفارقة الروح أجسادهم في هذه الدنيا:** (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل: ٣٢).
- **وتحيتهم فيما بينهم السلام:** (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ) (ابراهيم: ٢٣).
- **بل انهم لا يسمعون فيها إلا السلام:** (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) (مريم: ٦٢).

٢- الرضا في الجنة:

- **إنه وعد من الله أن يرضي عبده التقي:** (وَلَسَوْفَ يَرْضَى) (الليل: ٢١).
- **فيرجع إلى ربه فيرضيه ربه ويرضى عنه:** (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي) (الفجر: ٣٠).
- **ويدخل الجنة دار الرضا:** (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ) (القارعة: ٧).
- **يدخلها عباد الله وقد رضي عنهم ربهم بما قدموا، وهم اليوم راضون عن ربهم في دار الرضا:** (رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) (البينة: ٨).
- **ويحيا فيها العبد في ظل رضوان الله:** (وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ) (آل عمران: ١٥).
- **وبهذا الرضا يكون دعاؤهم تسبيحاً وحمداً لربهم:** (دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (يونس: ١٠).

٣- جمال أهل الجنة:

- **يجمع الله لأهل الجنة جمال المظهر ونضارته وجمال الروح وسرورها:** (فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا) (الانسان: ١١).

فأما جمال وجوه اهل الجنة:

- **وجوه أهل الجنة ناعمة:** (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ) (الغاشية: ٩).
- **جميلة ناضرة:** (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) (القيامة: ٢٣).
- **بيضاء برحمة الله:** (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (آل عمران: ١٠٧).

- **مسفرة وضاحكة:** (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ) (عبس: ٣٩).
- **ولا يرهقها قتر ولا ذلة:** (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (يونس: ٢٦).
- **تعرف فيها نضرة النعيم:** (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) (المطففين: ٢٤).

وأما جمال قلوب أهل الجنة وصدورهم:

- **يملأ صدورهم الحبور:** (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ) (الروم: ١٥).
- **فاكهين فرحين:** (فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ) (الطور: ١٩).

٤- نور أهل الجنة:

- **يسعى النور بين أيديهم:** (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (الحديد :١٢).
- **ويسألون ربهم أن يتم لهم ذلك النور:** (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (التحريم : ٨).

٥- رفقة أهل الجنة:

- **رفقة الجنة طيبة:** (وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقًا) (النساء: ٦٩).
- **يدخلها الصالحون ومعهم أهلهم وأحبابهم:** (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ) (الرعد: ٢٣).
- **ببركة دعاء الملائكة لهم:** (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (غافر: ٨).
- **فيستجيب الله لهذا الدعاء ويجعله حقا:** (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) (الطور: ٢١).
- **ولا غل ولا حقد ولا ضغينة بين اهلها:** (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (الاعراف: ٤٣).
- **وحوارهم بينهم بأطيب الكلام:** (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) (الحج: ٢٤).

٦- حوار أهل الجنة:

- **يتحاور أهل الجنة فيما بينهم:** (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ) (الطور: ٢٨).

- **ويتحاورون مع أهل النار والعذاب:** (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) (الاعراف: ٤٤).
- **ويتساءلون عمن عرفوا في الدنيا من أهل النار:** (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ) (الصافات: ٦١).
- **ويضحكون من الكفار:** (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ) (المطففين: ٣٥).
- **ويتوسل بهم أهل النار ليقتبسوا من نورهم:** (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ) (الحديد: ١٣).
- **ويذكروهم بما كان من الصحبة في الدنيا لعلها تشفع لهم:** (يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) (الحديد: ١٤).
- **وينادونهم ليفيضوا عليهم مما عندهم ولكن ليس إلى ذلك من سبيل:** (وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ) (الأعراف: ٥٠)

٧- مشيئة أهل الجنة:

- **مشيئتهم مطلقة لأن يريدوا ما يريدون أو ما يدَّعون وما يطلبون، فيكون لهم بإذن ربهم:** (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللّهُ الْمُتَّقِينَ) (النحل:٣١).
- **بل يكفيهم مجرد الاشتهاء ليكون لهم ما يشتهون:** (وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيم) (فصلت: ٣٢).
- **وفوق ما يشاؤون:** (لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) (ق: ٣٥).

الفصل الثاني

-بعـــض من صـــور النعيـــم-

الجنة: دار اللذة الخالصة، أعدها خالق عظيم لا تنفد كلماته الكونية التي بها يخلق ما يشاء كما يشاء: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً) (الكهف: ١٠٩)، ولا تعلم نفس ما أخفى الله لعباده في الجنة من قرة أعين جزاء صالح أعمالهم: (**فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) (**السجدة: ١٧**)، لأنه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر: (**أعددت لعبادي الصالحين : ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر**)[١٢٤]، فـ(**ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء**)[١٢٥]، وكل ما يحكي عنه القرآن مما ستراه هنا من صور للنعيم، إنما هو للتقريب إلى ما عهدناه من مألوفاتنا في الدنيا: (**وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً**) (البقرة: ٢٥)، ومن أجل التشويق إلى العمل من أجل الوصول إليها، وهي موطننا الأول، عساها أن تكون مستقرنا ومركبنا الأخير.

---

[١٢٤] حديث قدسي رواه البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم.

[١٢٥] رواه الطبري في تفسيره بسنده إلى ابن عباس وغيره، ٣٩٢/١.

أولاً: مســاكن أهــل الجنـــة:

- **مساكن أهل الجنة طيبة:** (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ) (الصف: ١٢).
- **مقامهم فيها أمين لا خوف فيه:** (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ) (الدخان: ٥١).
- **وهو مقام مريح لا يتعب فيه البدن ولا تفتر فيه النفس:** (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) (فاطر: ٣٥).
- **ومكانهم فيه عالٍ:** (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ) (الحاقة: ٢٢).
- **في غرف لا حد لكمال بنائها الرباني:** (لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ) (الزمر: ٢٠).
- **فيها حدائق من كل نوع:** (حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا) (النبأ: ٣٢).
- **ذات أفنان:** (ذَوَاتَا أَفْنَانٍ) (الرحمن: ٤٨).
- **كثيفة ومدهامة:** (مُدْهَامَّتَانِ) (الرحمن: ٦٤).
- **طيبة وجميلة:** (فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُود) (الواقعة: ٢٩).

- **تجري الأنهار من تحتها:** (جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) (البقرة: ٢٥).
- **وهذه الأنهار من كل لون ونوع:** (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى) (محمد: ١٥).

- **وفيها عيون من كل لون:** (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) (الذاريات: ١٥).
- **ومن هذه العيون ما هو جار:** (فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ) (الرحمن: ٥٠).
- **ومنها ما هو نضاخ:** (فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ) (الرحمن: ٦٦).

- **ومنها ما هو متفجر:** (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) (الانسان: ٥).
- **مجالسهم فيها طيبة متقابلين:** (عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ) (الصافات: ٤٤).
- **وهذه السرر مرفوعة وعالية:** (فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ) (الغاشية: ١٣).
- **وهذه السرر مصفوفة:** (مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ) (الطور: ٢٠).
- **ومنسوجة موضونة:** (عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ) (الواقعة: ١٦).
- **وهذه السرر مترفة بطانتها من حرير فكيف بوجهها:** (مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ) (الرحمن: ٥٤).
- **ومنها ما هو أرقى وأشد حسناً:** (مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ) (الرحمن: ٧٦).
- **والسرر محوطة بالفرش:** (وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَة) (الغاشية: ١٦).
- **يحفها من حولهم خدم محفوظون عن خدمة من سواهم:** (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ) (الطور: ٢٤).
- **يطوفون عليهم بأجمل آنية لأطيب طعام:** (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا) (الانسان: ١٦).
- **وهؤلاء الخدم مخلدون لا يتعبون ولا يموتون وأشكالهم جميلة متنوعة:** (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا) (الانسان: ١٩).

- **هم فيها مسترخون في ظلال طيبة:** ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ﴾ (الصافات: ٥٦).
- **وهذه الظلال الطيبة ظليلة:** ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِـــلاًّ ظَلِيلاً﴾ (النساء: ٥٧).
- **لأنها ممتدة:** ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ (الواقعة: ٣٠).
- **لا يذوقون فيها حراً ولا قراً:** ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ (الانسان: ١٤).

ثانياً: زوجـــات وأزواج أهـــل الجنـــة:

- **يدخل أهل الجنة جنتهم مع أزواجهم فرحين:** ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (الزخرف: ٧٠).
- **ويجتمعون في ظلالها:** ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ﴾ (يس: ٥٦).
- **وأزواج الجنة مطهرة:** ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ (البقرة: ٢٥).
- **وجمال الزوجات عظيم ولم يمسسهن أحد قبل أزواجهن:** ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن: ٥٨).
- **قد أعاد الله خلقهن باكرات متحببات لأزواجهن وفي أعمار جميلة متقاربة:** ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ (الواقعة: ٣٧).
- **لهن جمال أخاذ محفوظ عن الذبول والأفول:** ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ (الواقعة: ٢٣).

- **ولطهارة نفوسهن يقصرن أبصارهن ويحفظنها على أزواجهن:** (وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ) (الصافات: ٤٨).
- **وجمال أجسامهن أكمل ما يكون في كل شئ:** (وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا) (النبا: ٣٣).

ثالثاً: لبـــاس أهـــل الجنـــة:

- **لباسهم فيها أرق لباس وأطيبه:** (وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) (الحج: ٢٣)
- **وهو من كل نوع ولون:** (وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ) (الكهف: ٣١).
- **وفوق اللباس زينة وحلي تزيدهم جمالاً:** (وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ) (الانسان:٢١)
- **وتلك الزينة من كل نوع:** (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا) (الحج: ٢٣)

رابعاً: طعـــام أهـــل الجنـــة:

- **في الجنة طعام متنوع مما يشاء أهلها:** (لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ) (يس: ٥٧).
- **بحسب ما يشتهون:** (وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ) (الطور: ٢٢)

- **يؤتى به إليهم في خير آنية وأسلوب تقديم:** (يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (الزخرف: ٧١).
- **وهو طعام كثير لا ينقص:** (لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ) (الزخرف: ٧٣).
- **ولا حد لتنوعه مهما بلغ الخيال:** (فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ) (الرحمن: ٥٢).
- **ومنه مما ألفوه متشابها في الدنيا:** (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) (الرحمن: ٦٨).
- **وينتقون منه ما يحبون:** (وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ) (الواقعة: ٢١).
- **ولا يتوقف مدده ولا يمنع عنهم:** (وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ) (الواقعة: ٣٣).
- **وثمرات الجنة مذللة لهم قريبة وسهلة المنال:** (وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا) (الانسان: ١٤).
- **منها ما يقطف كما تقطف الثمر الحلو:**(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ) (الحاقة: ٢٣).
- **أوتخضد وتقطع خضراء رطبة حين يريدون:** (فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ) (الواقعة: ٢٨)
- **أويجنون ثمرها وتتجدد ولا ينفك جناها متغيراً كأنه ذو مواسم:** (وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ) (الرحمن: ٥٤).

خامساً: شـــراب أهـــل الجنـــة:

- **يشربون من ماء الحياة الذي لا ظمأ بعده: ماء الكوثر:** (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) (الكوثر: ١).
- **ومن عيون يفجروها تفجيراً:** (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) (الانسان: ٥).
- **ومن أطيب شراب:** (يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) (المطففين: ٢٨).
- **ومنه خمر طيب لذيذ لا يذهب العقل مثل خمر الدنيا:** (يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ) (الطور: ٢٣).
- **وغيره من شراب متوافر كثير:** (وَكَأْسًا دِهَاقًا) (النبأ: ٣٤).
- **يؤتى إليهم بأجمل شكل:** (يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ * بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ) (الصافات: ٤٦).
- **فمنهم من يشرب بنفسه:** (إِنَّ الْأَبْرَارَ **يَشْرَبُونَ** مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) (الانسان: ٥).
- **ومنهم من يسقى ويخدم:** (**وَيُسْقَوْنَ** فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا) (الانسان: ١٧).
- **ومنهم من ينسب سقيه إلى ربه:** (**وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ** شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا) (الانسان: ٢٢).

فتأمل يا عبدالله أن تسند سقايتك لشرفها إلى ربك! رب العالمين!

اللقـــــاء العظيـــم:

إنك (واحد فريد) من نوعك، لم يخلق مثلك، وسعيك في هذه الحياة قائدك حتماً في يوم قادم إلى لقاء (الواحد الأحد)، كما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كل واحد منا: (ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان)[١٢٦]:

- **إن لقاء الله حتم لازم لكل واحد منا بعد فرصة الكدح المؤقتة في الحياة:** (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ) (الانشقاق: ٦)
- **والمفلح من أعد نفسه لهذا اللقاء:** (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) (الكهف: ١١٠)
- **ومن غفل عن الاستعداد للقاء الله فإن أعظم عقوبته حجبه عن رؤية ربه:** (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) (المطففين: ١٥).
- **وأعظم نعمة لمن قضى العمر يعد نفسه لهذا اللقاء هي أن يرى ربه:** (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) (القيامة: ٢٣).

فتأمل: أن تنظر إلى الله (ربنا الجميل ذي الجلال والإكرام) وتراه!

[١٢٦] رواه البخاري.

خاتـــمة الكتـــاب

في التعريـــف بالله

وبيان علاقـــة الوجـــود بالله

خاتمة: في التعريــف بالله، وبيان علاقــة الوجود بالله

أولاً: في التعريــف بالله: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) (الأعراف: ١٨٠):

يشهد المسلم أن: (**لا إله الا الله**)، وبها يعلن الاستسلام بسلام لمراد الله، وليكون (الله) محور فعله القادم مدى وجوده، -كما كان من الله خلقه من قبل، وبالله بقاؤه من بعد-، فيجعل من الحياة فرصة مكرسة لمعرفته من كتابه المسطور: (القرآن)، ومن كتابه المنظور: (الكون)، ثم للاستعداد للقائه بالفناء في أمره ونهيه، والصبر على مقدوره، لأن (الله) هو وحده الإله الحق الذي يستحق الخضوع وإفناء العمر في سبيل نيل رضاه، وتطويع النفس لتكون كما يريد هو وحده، لا كما هي تريد.

ليس قبل هذا الإله شيء ولا بعده شيء في الزمان، وليس فوقه شيء ولا أدنى منه إليك شيء في المكان، طيب جميل حيي كريم، يستحيي منك إذا رفعت يديك إليه بالدعاء أن يردهما صفراً، تعالت ذاته عن كل علو، وتصاغر دونه كل ما سواه، وعز عن أن يُنال، وتقدس اسمه الجميل الجليل: (الله).

• وجــود الله:

إن النفس ليأخذها العجب من مكابرة الجاحدين في إنكارهم وجود الله ومعرفته، في ظل بداهة حقيقة أن الانسان لم يخلق نفسه، ولم يخلق الوجود من حوله: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ* أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ) (الطور: ٣٦)، وهو بعد خلقه لا يملك أن يخلق لنفسه سمعاً ولا بصراً ولا قلباً ولا شيئاً مما خلقه الله له، وهذا دليل سهل الادراك على وجود **خالقه** (**الحي**) **بذاته** الخالق لكل ما سواه، والذي ادعى هذا الحق لنفسه ولم يدعه أحد سواه: (**نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ**) (الواقعة: ٥٧). ثم إن الانسان من بعد هذا لا يملك وقف التغير الطارئ في كيانه، ولادة وبلوغاً وشيخوخة فموتاً: (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً) (الحج: ٥)، وإن **الله** (**القيوم**) وحده هو الذي يدبر أمر هذا التغير الدائم ويمد بأسباب البقاء: (قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ) (الأنبياء: ٤٢). وهذه الحقائق البسيطة، في الخلق أولاً، ثم في عدم سلطان الانسان على وقف التحول والتغير الدائم فيه، دلائل بينة على وجود الخالق (الحي القيوم)، يصعب إنكارها إلا على مكابر عنيد.

وفيما عدا خلق الله لك وتدبيره شأنك كله، يمكنك -بغير تكلف- الوصول إلى معرفة الله، وذلك بسؤاله سبحانه أن يدلك عليه، وهذا وعد منه أن يجيبك: (**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (البقرة: ١٨٦)، وكل الذي تحتاجه لتصل إلى معرفته وقوف بين يديه تقول له فيه: (**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**) (الفاتحة: ٦)، ولن يخذلك أبداً!

• في معرفــة الله:

لقد سبق التعرض لبعض تجليات الجلال الإلهي في مقدمة الكتاب للتعريف بـ(**الرب الجميل**) من خلال شهود **آثار الجمال** في النفس، وفي السقف السماوي والمهاد الأرضي والملبس والمأكل والمركب التي خلقها الله، ولكن (**وصف الله**) شأن آخر، لا يملك أحد أن يعرفك به سوى الله نفسه، حين أوحى إلى قلب عبده محمد صلى الله عليه وسلم بعض أسمائه وصفاته ليبلغها للناس، ودونك بعض هذه **الصفات بعد تلك الآثار، وفيها فرصة للمعرفة بما ثبت عنه من وصف لنفسه بالحق، تؤطر المعرفة المتحصلة من شهود ما صدر عنه من آثار صنعه في الخلق**، عساها أن تعين القلب على الاستعداد لذلك اللقاء العظيم، وأنت وحدك مع ربك، لا تملك إلا ما قدمت هنا، لتعرف ولتستعد!.

• (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (النور: ٣٥):

إن (الله) هو الحق اليقيني الوحيد الثابت وراء قصة الوجود، وهو سر قدومنا إلى هذه الدنيا، وبالفطرة يعرفه الناس، وبالوحي عرف المسلمون اسمه الحق: (**الله**)، الذي سمى به نفسه، ومنع أن يتسمى به أحد من خلقه، فما تسمى به أحد سواه، فألهته قلوب العابدين دون ما سواه، وعبدته وحده بحق، لأنه وحده الإله الحق، فهو (أعرف المعارف)، وبه وحده يكتسب كل ما سواه إمكان أن يُعرَف!، فلا سبيل لمعرفة شيء على وجه التحقيق إن لم تعرف الله، حتى إنك أنت نفسك لن تعرف نفسك إلا إن عرفته، ذلك بأن الله هو (**النور**): الذي يعرف به كل ما سواه.

• الله: رب الوجــود:

إن الله هو (**الرب**) الذي أوجد كل شئ بسر نوره، وتدرج بكل شئ للوصول به إلى كماله: (الْحَمْدُ لِلَّهِ **رَبِّ الْعَالَمِينَ**) (الفاتحة: ٢)، فهو يربي كل ما سواه منذ لحظة إيجاده، ويمده بالوجود حتى لا ينفك مخلوق يتدرج في أحوال الكمال مدى وجوده، فهو وحده (**الحي**) بذاته **الذي استمد كل ما سواه حياته منه، وبه وجوده**، ولا يستمد هو حياته مما سواه لكمال أوصافه: (هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) (غافر: ٦٥)، وهو (**القيوم**) بكل شئ سواه، **ومنه مدد الوجود لكل ما سواه، وبه بقاؤه**، فلا يدور كوكب ولا يدق قلب إلا بقيوميته عليه، وذلك لكمال أفعاله، وإذا نظرت إلى تاريخك الشخصي لترى كيف أعطيت الصورة والاسم، -بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً-، وكيف يدوم وجودك في هذه اللحظة الآن، عرفت أن ربك الحي القيوم يربيك: (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) (الرعد: ٣٣)، ويتدرج بك في الطريق إلى كمالاتك، وتدبيره محيط بك لا ينفك عنك ما دام وجودك.

• إتقـــان خلـــق الوجـــود:

تتداخل أحداث هائلة في هذا الكون الواسع، يؤدي فيها كل جزء في الوجود دوره بإتقان بالغ ليصنع لك اللحظة، وأصل هذا الاتقان في أحداث الكون: (إحسان الله)، والذي هو من مقتضيات الرحمة التي وسعت ذلك الكون[١٢٧]: (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ **الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**) (البقرة: ١٦٣)، ذلك أن الله هو (**الرحمن**) **بذاته**، الذي: ما من رحمة إلا منه، ولا يكون منه إلا الرحمة، وهذا يقتضي أنه ما من إحسان يكون في الوجود إلا منه، ولا يكون من الرحمن تجاه موجود إلا الإحسان، كما أنه (**الرحيم**) **بفعله** بكل ما سواه، الذي: رحمته دائمة لا تنقطع عن الوجود، ورحمته عمت كل من سواه من موجود، فكل من سوى الله مرحوم بالله، وهو موجود بـــ(إحسان الله): وهو إتقانه خلقه ومنـــته عليهم بعطاءات لا تنتهي بلا انتظار الجزاء منهم، لأنه (**الغني**) بذاته عنهم، (**المغني**) لكل ما سواه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (فاطر: ١٥).

---

[١٢٧] الرحمة في اللغة: لطف ورأفة ورقة تقتضي الاحسان، ورحمة الله إحسان مطلق، وإحسان الله عطاء بلا حدود وإتقان في تقدير كل شئ أو حدث في الوجود، قد كتبها الله على نفسه: (كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) (الأنعام: ١٢)، ودعاك لشهود أثرها في الوجود: (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ) (الروم: ٥٠)، وقد شملت بإحسانها كل موجود عطاءاً وإتقاناً: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) (الأعراف: ١٥٦).

• نظام التدبـــير في الوجـــود:

ينتظم مسار العمر تقدير من ربك، يبتليك به بالخير أو بالشر، بما يعلم أنه يمهد به سبيلك إليه، ويعرفك عليه، ولعلك قد يمر عليك وقت -حين يعترضك الشر- لا تفقه فيه بعض قدر الله عليك وهو يربيك، فتظن في ربك (الرحيم) الظنون، وتنسى أنه (**اللطيف**): الذي يتوصل إلى مراده فيك بما خفي من الأسباب عنك: (إِنَّ **رَبِّي لَطِيفٌ** لِمَا يَشَاءُ) (يوسف: ١٠٠)، فيجعل من الألم -أحياناً- سبيلاً لإرادة القرب منه، وفي ذلك محض إحسان لقلبك التائه، من الله (**الحكيم**): الذي يقضي بعلم، حيث إنه يعلم كل شأنك، ويقدر أقداره عليك بعلمه بك، وهو (**العدل**): الذي يضع الشئ موضعه، فتطمئن أنك في كل تلك المقادير تكتنفك رحمته التي وسعت كل شئ، وتعلم أنك مهما أحاطت بك دوائر مصائب الدنيا فإن أمراً نافذاً واحداً يحكم إغماض عينك الصغيرة، ويحكم دوران الشمس الكبيرة في فلكها، وهو أمر (**الملك الحق**): (فَتَعَالَى اللَّهُ **الْمَلِكُ الْحَقُّ** لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) (المؤمنون: ١١٦) الذي لا يتخلف شئ في الوجود عن الخضوع لسلطانه المطلق على كل شئ، مهما ظننت ببصرك القصير أن في الظاهر من يكون له بعض السلطان عليك ممن سواه، وأجدر ما يكون منك، هو أن تقرر أن تكون عبداً لهذا الملك، ترجو منه وحده دفع السوء، والإنعام بالخير، وتثبيت قلبك على الهدى.

- ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾ (**الإخلاص: ٢**):

إن الله هو الإله (**الصمد**) الذي يفتقر إليه كل ما سواه، ولا يفتقر هو إلى ما سواه، وإن القلب الذي يعرف الله بهذا الوصف يعرف قدر نفسه، حين يشهد كمال صمدية الله في مقابل شدة اضطراره إلى ربه؛ لدرجة أنه حتى الخاطرة التي تمر في باله -في لحظة أدق من دقة قلبه- لا تكون إلا به، ثم إن الله هو (**الأحد**) في صمديته، أي أنه: (**المتفرد**) الذي ليس مثله شئ ولم يكن له كفؤا أحد، و(**الواحد**) الذي لم يلد ولم يتجزأ، ومن العدم أوجد كل شيء، وهو بائن عن خلقه الذين يحتويهم المكان والزمان، فهو وحده (**الأول**) الذي ليس قبله شئ، و(**الآخر**) الذي ليس بعده شئ، فاستغرق ما قبل الزمان وما بعد الزمان، وما من زمان يحيط بخالق الزمان، كما استغرق المكان وخارج المكان إحاطة وعلماً لأنه (**الظاهر**) الذي ليس فوقه شئ، فما من علو فوق الله، و(**الباطن**) الذي ليس أدنى منه شئ، فليس من شئ أقرب اليك من الله، حتى نفسك التي بين جنبيك: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد: ٣).

- **حب الله:**

إن القلب الذي يعرف الله، لا يملك الا أن يحبه أبلغ الحب، ذلك أن الحب يكون في القلب إما لكمال وجمال في **ذات** المحبوب، يدفع القلب ليميل بالحب إلى ذلك (الجميل) المستحق للثناء والمديح، **أو** يكون لفضل وإحسان في **فعل** المحبوب، يدفع القلب ليميل بالحب إلى ذلك (المحسن) المستحق للامتنان والشكر، والله تعالى هو (**ذو الجلال والإكرام**): ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ **ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ (الرحمن: ٧٨)، فما من جلال وجمال ذاتي كجمال وجلال الله، وما من إحسان ومنة كإكرام الله

وإحسانه إلى كل من سواه، ومن ثَمَّ فلا يكون للحب معنى أبداً كما يكون معناه حين يحب المخلوق ربه الجليل الكريم، وهذا الحب يحيـــي في قلبك القرب من رب (**طيب**) لا يكون منه إلا الخير، و(**جميل**) يحب الجمال الذي بثه فيك وفي كل ما حولك، ويحب منك تذوق الجمال وصناعته، وهو رب (**حيـــي كريم**) يستحيي منك إذا رفعت يديك إليه بالدعاء أن يردهما صفراً[١٢٨]، فخزائنه ملأى لا تنفد، فما من مقيد أو حاصر لـــ(كن) التي يوجد بها من العدم ما يشاء، ويؤتي بها ما يشاء لمن يشاء.

- **تقديـــس الله:**

وبحب الله يتوجه القلب بكله ليسبح الله وينـــزهه عن كل نقص، ويحمد الله ويقدسه ويثبت له كل كمال: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) (طه: ١٣٠)، وهو يعلم أنه مهما بلغ في تسبيحه وتقديسه لربه، فإن الله: (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ **الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**) (الشورى: ٤)، فهو (**العلي**) في المكانة على كل من سواه، وعلى كل تصور للمكان يمكن أن يرد في خاطر العبد الكليل عن علو ذاته، وهو (**العظيم**) الذي يستصغر دونه كل ما سواه، وتعالت قدرته عن أن يعجزها أمر، فهو (**العزيز**) الذي لا يُنال، وقد عز عن أن يكون له ند، أو أن ينازع إرادته ضد ممن سواه.

- **(قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) (الأنعام: ٩١):**

إن السر وراء هذا الوجود إله لا يحيـــي القلب إلا حبه، ولن يعرف أحد نفسه إلا إن عرفه، لأنه النور الذي به يعرف كل ما سواه، وهو وحده الذي أوجد

---

[١٢٨] يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين) (رواه الترمذي)

كل ما سواه، وتدرج بكل شيء ورباه ليصل به أعلى الممكن من كماله، وهذا الإله حي بذاته، قيوم بكل ما سواه، وسع الوجود برحمته، وما من رحمة إلا منه، ورحمته عمت كل من سواه، وقد تجلت في كل موجود إحساناً وإتقاناً وإكراماً.

وهذا الإله يقضي بعلم ويضع الشيء موضعه، ويتوصل إلى مراده بما خفي من الأسباب على وعي المخلوق القاصر، في ملكه المطلق، حيث لا سلطان على وجه التحقيق إلا له وحده، فهو الذي يفتقر إليه كل ما سواه، ولا يفتقر هو إلى ما سواه؛ أوجد بسر نوره الكل من ظلمة العدم، وهو واحد بائن عن خلقه، ليس كمثله شئ، ولا له كفء أو نظير، وليس كجلاله وجماله جلال ولا جمال، وليس من إكرام كإكرامه كل من سواه.

ليس قبل هذا الإله شيء ولا بعده شيء في الزمان، وليس فوقه شيء ولا أدنى منه إليك شيء في المكان، طيب جميل حيي كريم، يستحيي منك إذا رفعت يديك إليه بالدعاء أن يردهما صفراً، تعالت ذاته عن كل علو، وتصاغر دونه كل ما سواه، وعز عن أن يُنال، وتقدس اسمه الجميل الجليل: (الله).

روى الإمام أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم: (من قال لا إله إلا الله صادقاً بها دخل الجنة) ، فلتقلها من قلبك وقد تعرفت على ربك، **واخل بها وحدك ليغفر بها ذنبك، وأفن بها عمرك وادخل بها قبرك، لتلقى بها (الله): ربك.**

ثانياً: علاقـــة الوجـــود بالرب الجميـــل

إذا كانت ذرات الكون وخلايا جسمك ونبضات قلبك كلها (مسلمة) (ساجدة) (قانتة) (مسبحة) (بحمد الله رب العالمين؛ (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) (الحِجْر: ٩٩)، فهذا السجود سبيلك الحق لترتقي في مراتب الشهود والوصول والقرب من النور الأعظم: (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) (العلق: ١٩)

إنك اليوم تطوي فصلاً جديداً من فصول رحلتك، وأنت راكب طبقاً من أطباق وجودك، وكادح إلى لقاء ربك الجميل في موضعك الخاص الذي خلقك فيه، بينما تحدد اختياراتك في علاقاتك مع ما حولك من التنوع، وتجاهد لتكون على مراد الله، -في مقامك الذي أقامك فيه-، وتشهد تدبير ربك وتقديره لك وهو يربيك، فتغير وتتغير، وتتدافع في موضعك بين (المختلفين) لتدول لك الأيام، وتؤسس لموضعك القادم في درجات البرزخ، ثم لموضع استخلافك في الطبق الأخير، حيث وجودك الممتد النهائي العظيم!، وهذه -بمجمل فصولها- قصة عظيمة، لرحلة فريدة، لكنها في حجمها جزء ضئيل من قصة أعظم، مسرحها كل الوجود.

إن كل هذه الرحلة إنما تُطوى في وجود خلقه الله، ضمن أطباق خلقها الله، ويطويها مخلوق خلقه ربنا الجميل، لم يخلق نفسه بنفسه، ولا هو قائم بنفسه، وإنما هو (نور الله) سر كل موجود، خلقاً وإمداداً، ولو انقطع مدد الله عن أي شئ في الوجود -أو عنك وأنت تقرأ هذه الكلمات-، لتهاوى وجوده وانقطع في ظلمات العدم، ولذلك كان حتماً على الوجود كله أن يكون خاضعاً لربه: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً **قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**) (فصلت: ١١)،

فهو اختيار كل ذرة من جسمك أصلها من تراب الأرض، وقائم وجودها بين السماء والأرض: أن تأتي الله طائعة، وإن ما بينها وبين الله؛ هو ما بين كل ذرة أخرى في الكون وبينه، مما جبلها عليه عند خلقها، إذ:

١- إن كل ذرة في الكون، وكل خلية من جسمك، أو نبضة في قلبك: **مسلمة لله**، أي (مستسلمة بسلام) لأمره وحكمه: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ **وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً** وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران: ٨٣).

٢- وإن كل ذرة في الكون، وكل خلية من جسمك، أو نبضة في قلبك **ساجدة ذليلة في استسلامها لأمر ربها**، وواقعها الأعظم شدة افتقارها إلى الله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ **يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ** وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (الحج: ١٨).

٣- وهذه الذرات والخلايا والنبضات **قانتة** لله في إسلامها وسجودها الذليل، أي (دائمة الطاعة) ما دامت في الوجود: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ **مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ**﴾ (البقرة: ١١٦).

٤- وهي جميعاً **تسبح الله الجميل** وتنـــزهه وتعلي قدره في إسلامها وسجودها ودوام قنوتها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ **يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا

يَفْعَلُونَ) (النور: ٤١)، فالكون كله يسبح لله: (**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) (الجمعة: ١).

٥- وإنما يلقي الحب[١٢٩] كل ذرة وخلية ونبضة في أعتاب الله -إسلاماً وسجوداً وقنوتاً وتسبيحاً-، **وهو حب الحمد** الذي فطرها عليه: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**[١٣٠] وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً) (الإسراء: ٤٤).

إن ربنا الجميل الذي خلق **أطباق الوجود** رب عظيم: (يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) (الرعد: ١٣)، أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة، وقد آتاك بما **علمك** من (فقه الوجود) في قرآنه العظيم ما يرفعك به ويعطي قدراً ومعنى لوجودك،

---

[١٢٩] يقول ابن تيمية رحمه الله: (ان كل حركة في الوجود انما تصدر عن محبة) -مجموع الفتاوى ١٠/٤٩-، ويقول تلميذه ابن القيم: (فبالمحبة وللمحبة وجدت الأرض والسماوات، وعليها فطرت المخلوقات، ولها تحركت الافلاك الدائرات، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها، واتصلت بداياتها بنهاياتها) -روضة المحبين/٧-.

[١٣٠] انظر في معنى (الحمد) ما ذكرناه في مقدمة التعريف بالرب الجميل، عن ما اختص به لفظ الحمد، حين ينسبه العبد إلى ربه بقوله (الحمد لله)، وما يكمن في معناه من حب من العابد للمعبود ثناءاً على الجلال وامتناناً للإكرام.

فاعمل لتستحق نعمة هذا الوجود، ونعمة العلم بالحق الذي به قام، وافتح كتاب النور و(**اقْرَأْ** بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) (العلق: ١)، لتزداد علماً بهذا الحق: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) (طه: ١١٤)، وإذا كانت ذرات الكون وخلايا جسمك ونبضات قلبك –بما علمت– كلها (**مسلمة**) (**ساجدة**) (**قانتة**) (**مسبحة**) (**بحمد الله**) **رب العالمين**؛ (**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ*** وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) (الحِجْر: ٩٩)، فهذا السجود سبيلك الحق لترتقي في مراتب الشهود والوصول والقرب من النور الأعظم: (**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**) (العلق: ١٩)، وصلِّ على نبي إنسان أوحى إليه ربه أن يعلمك ما لم تكن تعلم، وسلم تسليماً كثيراً.

وتم في رمضان ١٤٣٠ هـــ، والحمدلله رب العالمين.

wattary@yahoo.com

أهم المراجع

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن – محمد بن جرير الطبري – دار الفكر – بيروت – ١٩٨٨م.
- تأويلات اهل السنة- أبو منصور الماتريدي- دار الكتب العلمية- بيروت- ٢٠٠٥
- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) – فخر الدين محمد الرازي – دار الفكر – بيروت – ١٩٨٥م.
- الجامع لأحكام القرآن – محمد الأنصاري القرطبي – دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٩٥٤.
- تفسير القرآن العظيم – عماد الدين إسماعيل ابن كثير– مكتبة الصفا – القاهرة – ٢٠٠٢.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – برهان الدين البقاعي – بتعليق عبد الرزاق غالب المهدي – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٩٥م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – شهاب الدين السيد محمود الآلوسي – دار الفكر – بيروت – ١٩٨٧هـــ.
- تفسير التحرير والتنوير – محمد الطاهر ابن عاشور – الدار التونسية للنشر – تونس – ١٩٨٤م.
- في ظلال القرآن – سيد قطب – دار الشروق – بيروت – ١٩٧٨م.
- معجم مقاييس اللغة – الحسين ابن فارس – بتحقيق عبد السلام هارون – دار الفكر– بيروت – ١٩٧٩م.
- مفردات ألفاظ القرآن – الراغب الأصفهاني – تحقيق: صفوان عدنان داودي – دار القلم – دمشق – ١٩٩٢م.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي
- جامع الرسائل- أحمد بن تيمية– تحقيق د. محمد رشاد سالم- ١٩٨٤
- النبأ العظيم – د. محمد عبد الله دراز – دار الثقافة – الدوحة – ١٩٨٥م.
- مجموع الفتاوى لابن تيمية- دار الوفاء- مصر- ٢٠٠١.

- زاد المعاد في هدي خير العباد- ابن قيم الجوزية- تحقيق شعيب الأرنؤوط- مؤسسة الرسالة- بيروت-٢٠٠٢
- مختصر منهاج القاصدين- ابن قدامة المقدسي- تحقيق سيد عمران- دار الحديث-القاهرة-٢٠٠٥
- رياض الصالحين- للإمام النووي- تحقيق الشحات أحمد- أم القرى- مصر- ٢٠٠٤
- الفتح الرباني والفيض الرحماني- عبد القادر الكيلاني- مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة ٢٠٠٦.
- كيف يحيا الانسان- لين يو تانج- ترجمة خيري حماد- دار الكتاب العربي، بيروت- ١٩٦٧.
- دع القلق وابدأ الحياة- دايل كارنيجي -تعريب عبد المنعم الزيادي-مكتبة الخانجي، القاهرة- ١٩٩٤.
- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم – محمد الغزالي – دار الشروق – بيروت – ١٩٩٧م.
- فقه الهجرة إلى الله (في ظلال الحكم العطائية)- أحمد الوتاري- قيد الطبع.

السيرة الذاتية للمؤلف

أحمد عدنان عبدالله الوتاري

المواليد: ١٣٨٣ هـــ- ١٩٦٣ م، بغداد- العراق

البريد الالكتروني: wattary@yahoo.com

التحصيل الاكاديمي

١- بكالوريوس الهندسة المعمارية- جامعة بغداد- ١٤٠٦ هـــ- ١٩٨٦ م

٢- بكالوريوس العلوم الاسلامية (بامتياز مع مرتبة الشرف)- جامعة بغداد -١٤٢٠هـــ

الممارسة العلمية الأدبية:

١- **كتاب (فقـــه الســـورة القرآنيـــة)**، المتضمن لمقدمة في الأصول العامة لمنهج دراسة البناء الموضوعي للسورة القرآنية، مع نماذج تطبيقية لست عشرة سورة، وقد قامت (جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم) بطبعه ونشره.

٢- **كتاب (فقـــه الهجـــرة الى الله)**، وهو محاولة لإعادة تشكيل فسيفساء الجمل المتناثرة الحكيمة التي سطرها روح ابن عطاء الله السكندري قبل اكثر من ٧٠٠ سنة، تم ربطها لتنـــتظم في جملة واحدة، تنير سبيل السلوك والهجرة إلى الله.

٣- **كتاب (فقـــه الوجـــود)**: وهو محاولة على طريق إعادة تشكيل الوعي الإسلامي في فقه الحياة وفقه الموت وفقه الجنة، وفق قراءة مؤسسة على النوع الثاني من أنواع مناهج التفسير الموضوعي الخمسة: (التفسير الموضوعي في إطار المفهوم القرآني).

٤- مجموعة بحوث في البناء الموضوعي للسورة القرآنية، تمتاز بأصالتها وبجدة منهجها البحثي، بلغت حتى الآن بحدود ٤٠ بحثاً، وقد تم تقييم أصالة البحوث وجدارتها العلمية من قبل بعض من خيرة علماء المسلمين في العراق وغيره.

الممارسة العملية الهندسية

١- مدير التصاميم في شركة سي أس أتش كيه دبي المحدودة، دبي ٢٠٠٦ – ٢٠٠٩م

٢- صاحب الامتياز ومدير مكتب المهندس المعماري الاستشاري احمد الوتاري- بغداد ١٩٩١-٢٠٠٥م

فهـــرس المحتـــويات